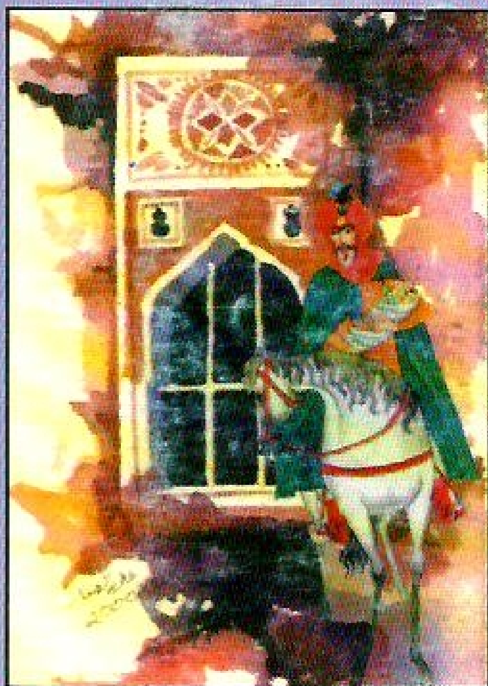


الهيئة العامة
لقصور الثقافة



علي الزيبق



لوحة الغلاف: الفنان علي الصغار

فاروق خورشيد







علي الزيبق

فاروق خورشيد



الهيئة العامة
لقصور الثقافة



سلسلة شهرية تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونصوص وسير وحكايات وملاحم الأدب الشعبي

(٦٢)

مكتبة
الدراسات الشعبية

• على الزيبق .
• فاروق خورشيد .
• الطبعة الأولى : دار الشروق ١٩٨١
• الطبعة الثانية :
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - يناير ٢٠٠٢ م
٢٤٤ ص: ٥ر١٣ × ٥ر١٩سم
• تصميم الغلاف للفنان : محمد بغدادي
• كلام الغلاف الأخير :
من تقديم الأديب خيرى شلبي للكتاب .
• مراجعة لغوية : بيومى عوض.
• رقم الإيداع : ٥٨١٧/ ٢٠٠٢
• طبع من هذا الكتاب ثلاثة آلاف نسخة

• المراسلات :
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى : ١٦ أ شارع أمين
سامي - القصر العيني
القاهرة رقم بريدى ١١٥٦١
ت : ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى : ٠

الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر .
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

المحتوى

المحتوى

(يتبع)

هذا الكتاب

فن صياغة الوجدان

قاد فاروق خورشيد جيلا من المبدعين، نحو الولع بالسير الشعبية دراسة واستلهاما ذلك هو الجيل الثانى بعد الجيل الأول ممن كانوا أكثر جرأة وأكثر ارتباطا بمكوناتهم الوجدانية وبتراثهم الشفاهى حيث تواضعوا أمامه وتمعنوا فيه فاكتشفوا ما يحتويه من طاقات إبداعية عظيمة تتمثل فى خلالها أمة أعظم انطوت عقليتها الشعبية على ملكة حضارية خلاقة استطاعت أن تجسد القيم الأخلاقية والفروسية النبيلة وأن تشخصها فى أشخاص من لحم ودم.

ذلك الجيل يقف في مقدمته الدكتور فؤاد حسنين على والدكتور عبد الحميد يونس وزكريا الحجاوى وأحمد رشدى صالح وغيرهم. تبعهم جيل يقف فى مقدمته فاروق خورشيد ويضم الكثيرين مثل محمود ذهنى ود. نبيلة إبراهيم وشكرى عياد وغيرهم.

ولكن اهتمام فاروق خورشيد بالسير الشعبية أكل الكثير من سنوات عمره الغض، وغطى على اهتماماته الأدبية الأخرى فى سن النضج حيث كان من كتاب القصة القصيرة البارزين فى جيله إلى جانب الأدب الإذاعى الذى كان ولا يزال يعشقه بحكم عمله كرجل إذاعة بدأ عمله مذيعا ثم أبدع فى جميع أشكال الإبداع الإذاعى. اهتم فاروق خورشيد بالغوص فى السير الشعبية وهى تحتاج لوحدها عمرا كاملا، مع ذلك قرأها مرات عديدة حتى أصبح حجة فيها، فى كل ما يتصل بها من قضايا فنية وتاريخية واجتماعية ومن ثمرة هذه الاهتمامات المخلصة كتابه عن عصر التجميع وبداية فن الرواية، وكتابه أضواء على السير الشعبية، وكتاب فن كتابة السيرة الشعبية بالاشتراك مع صديق عمره الدكتور محمود الحنفى ذهنى الذى قدم رسالة لإجازة الدكتوراه عن سيرة عنترة بن شداد التى نتعشم أن يأذن لنا بإعادة نشرها فى هذه السلسلة تعويضا له عن الظلم الذى حاق به فى الطبعة الأولى التى نشرت باسم محمود الحفنى، فكان ذلك الخطأ فى الاسم سببا فى جبال

الكآبة التي ألمت بالرجل فلم يعنٍ حتى بتصحيح الاسم فى طبعة ثانية منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً إلى اليوم !

ومن ثمرة اهتمامات فاروق خورشيد بالسير الشعبية محاولاته المتكررة لإعادة صياغة بعض السير بأسلوب عصرى مستفيد من إمكانيات فن الرواية بعد نضجه فى العالم الحديث، حيث تتحول السيرة الحافلة بالكثير من الخرافات والغيبيات والشعوذات والثرثرات التى كانت تفرضها طبيعة العمل الشفاهى الذى لا بد أن يتلون كل جلسة كل ليلة بشيء جديد يثير شهية المستمعين ويربطهم بما سبق الاستماع إليه.. إلى رواية ذات بناء فنى محكم، لها منطقها الفنى الخاص، لها مصداقيتها، بحيث تبقى روحها الشعبية كالعطر الذى يميز أهله، تبقى لها مشهياتها الفنية الإثارية ولكن دون مبالغة دون خروج على المألوف دون لجوء إلى ما يجافى المنطق القويم. هكذا فعل فى رواية سيف بن يزن الموصولة الأصل بالسيرة الشعبية المعروفة، وهكذا فعل أيضاً فى روايتى (على الزيبق) و(ملاعيب على الزيبق) الموصولتين بأصل السيرة الشعبية المعروفة باسم على الزيبق المصرى ومن نافلة القول - كما يقول العرب القدامى الإشارة إلى ما يصاحب هذه الصياغة الروائية العصرية من مقتضيات فنية تمتد إلى جسم العمل الأصلى وتهزه وتعيد بناءه على نسق روائي درامى حيث يتراجع السياق السردى المتراتب المنثال، ليبرز الحدث الروائى، كما يتحول

التراكم الملحمى الغزير بغير حساب إلى لبنات منتقاة يقوم عليها بناء الحدث، وفى بوتقة الحدث تنصهر الشخصيات ويظهر جوهرها، لا كشخصيات متفردة - فردية- بل كمرايا للمجتمع والتاريخ الذى يعبر عنهما الحدث. وهذا جهد ليس بالقليل كما أنه غير قابل للانتحال من أى كاتب آخر يزمع تحويلها للسينما أو التليفزيون بحجة أنها قائمة على أصل موجود، لا، إن الصياغة هذه هى ملك لصاحبها بصرف النظر عن الأصل القديم الذى صيغت منه لأنها صياغة وليست إعادة كتابة، فالصياغة تعنى تشكيلا جديدا وبناء جديدا، إنها تحويل مادة انتهى عمرها الافتراضى أو انتهى تأثيرها بانقراض دورها ثم شكلها، إلى شىء جديد بروح جديدة ومعطيات جديدة واستكشافات جديدة، ولهذا فأوديب توفيق الحكيم تختلف عن أوديب أندريه جيد وبدورهما يختلفان عن أوديب سوفوكليس الذى يختلف بدوره عن الأصل الأسطورى للحدوتة.

ولكن لماذا ننشر هذه الصياغة الجديدة ولا ننشر السيرة الأصلية مع أنها فى حوزتنا

الواقع أننا لم نفضل هذه على تلك، فالحاجة ماسة إلى نشر النصين وهذا في خطتنا إن شاء الله. وإنما بادرنا بنشر الاستلهام الحديث لنثبت إلى أى حد يمكن أن يستفيد كتابنا من تراثنا الشعبى فى استلهام أعمال حديثة تعمق فينا جوهر ومقومات

الشخصية المصرية العربية. ولسوف ننتهز فرصة قريبة قادمة لننشر النص الأصلى لما يحتويه من إبداع خاص له مذاقه الخاص وله أيضا قدرته الباقية على الإيحاء والإلهام.

نرجو أن نكون قد وفقنا، وسلام عليكم.

• خيرى شلبى •

إهداء

إلـــى عـــزة .
رفيقة الحياة والطريق

فـــاروق

كلمة

ونحن نبنى غدنا ، تغوص عقولنا الواعية فى ضمير أمتنا بحثاً عن سند من أمسنا ، وأمسنا - ولو علمنا- ملىء بالأرض الثابتة الصلدة تحتمل ثقل البناء الذى نريد ، وتقبل إصرار الأصلاء على أن يكون حاضرنا جسراً يمتد بين ماض عريض ومستقبل واثق .

وفى دنيا الفن والأدب يقول تراثنا إن شعبنا عبر عن نفسه فى ثقة واقتدار ، وإنه أحس أهمية الكلمة فاستعملها صادقا جريئاً لا يهاب ، استعملها لتعكس أمله وتطلعه ، ولتؤكد إصراره وعزمه ، ولتصنع منه رائداً من ر واد حضارة الإنسان . .

وفي سيرنا الشعبية جوهر هذا الشعب الأصيل الذى جعل من بطولاته أساطير تبقى على مر الزمن وتعكس فضائله

وتجسد كفاحه من أجل حرية الإنسان وكرامة الإنسان، والفن فى السير الشعبية ليس زخرفاً وليس جمالاً شكلياً، الفن فى السير الشعبية تركيب معقد، مزيج من الحلم والواقع، وتآلف حقيقى بين ألم ما يرسمه الحاضر من إحباطات للإنسان، وبين أمل ما يريده القلب الحر للإنسان من انتصارات، إنه قصة الدراما الإنسانية فى صراعها الصريح الواضح بين ما هو كائن وبين أمل الإنسان فيما يجب أن يكون صراعها بين الواقع والخيال.

كلمة عن على الزيبق

شخصية على الزيبق من الشخصيات التى اشتهرت فى أدبنا الشعبى شهرة كبيرة وأخذت لها سمة بارزة من إتقان الحيلة وسرعة التخلص مع الشجاعة الفائقة والحيلة المتقنة. وهناك شخصيات في أدبنا الشعبى نجحت فى الخروج من باطن الصفحات المدونة لترتبط بالحياة وتمتزج بنفوس المتلقين وتصبح رمزا لصفات معينة محددة، فعنترة رمز الشجاعة، ودليلة رمز المكر والحيلة وشيحة صاحب الملاعيب، وعقبة شيخ الضلال وسيف بن ذى يزن الإنسان الفذ ذو القوى الخارقة. وهذه الشخصيات حين نجحت هذا النجاح

سجلت للأدب الشعبى وجوده ودلت على أهميته في تجسيد معانى الخير والجمال فى صراع الإنسان العربى من أجل البقاء والنماء الإنسانى.

وشخصية على الزيبق تتردد كثيرا فى ألف ليلة وليلة، فاسمه يرد مقترنا دائماً بأسماء أحمد الدنف وحسن شومان ودليلة المحتالة وابنتها زينب فى أكثر من قصة من قصص ألف ليلة، يتردد ذكر هذه المجموعة من الشطار والعياق والفرسان فى قصة علاء الدين أبى الشامات وهى واحدة من أمتع حكايات الليالى.. ثم تنفرد شخصية على الزيبق بسيرة خاصة بها تتبعتها منذ المولد وحتى الموت هى سيرة على الزيبق ابن حسن رأس الغول المصرى.

والواقع أن هذه السيرة تشبه فى مجموعها القصص التي تظهر حين تتفسخ المجتمعات الرأسمالية وتؤذن بالزوال فيظهر الأبطال الأفراد الذين يقاومون سلطات مجتمعهم بما جبلوا عليه من شجاعة وقوة حيلة ليأخذوا من الأغنياء وليعطوا الفقراء، وليحققوا العدالة بمفهومهم النقى الخالص الذى لا تلوثه مفاهيم المجتمع المنهارة. من أنواع هذه القصص مغامرات اللصوص اللذين لا يستطيع أحد أن ينالهم والذين ينالون هم كل شيء ليحققوا العدالة فى اللصوص الحقيقيين الذين يسخرون العدالة لخدمة أغراضهم وحماية إجرامهم، وفي الأدب العالمى شخصيات كروبن هود وروكامبول واللص الشريف والقديس وغيرهم.. وفى أدبنا العربى الشعبى هذه الشخصية

الجديرة بالدراسة والفهم، أعنى شخصية على الزيبق.

والسيرة على هذا ترسم صورة حقيقية لحياة الشعب فى بغداد ودمشق والقاهرة فى أثناء فترة زمنية انهارت فيها سطوة الدولة وارتفع إلى مركز السلطان فيها المغامرون من كل حدب وصوب فهم مرة أتراك وهم أخرى ديلم وهم فى ثالثة من مجلوبى النخاسين تصم وجوههم علامات العبودية. ولم يكن أمام الشعب إلا أن يتسلح بنفس أسلحتهم وأن يقاومهم بنفس أسلوبهم، وهكذا أبرز القاص الشعبى شخصية على الزيبق لتلعب دور ابن البلد العادى فى معترك الطغاة واللصوص، وتحقق عن طريق الانتصارات الروائية توازناً وجدانيا لدى المتلقى العربى حين تتحقق أحلام يقظته فى النصر والانتقام على بديله الشعبى.

وسيرة على الزيبق رغم أنها من أضعف السير الشعبية فى البناء القصصى إذ تفوقها سير عنترة وذات الهمة والظاهر وسيف فى الحبكة والبناء بل والمواقف الجزئية، إلا أنها أقرب هذه السير إلى نبض الحياة. فسير عنترة وذات الهمة والظاهر وسيف تجرد الأبطال من حدود الزمان والمكان، بل ومن حدود القدرة المحددوة للإنسان، أما سيرة على الزيبق فهى تحدد مكانها وفترتها الزمانية بما يشبه الوضوح والدقة، أما بطلها فهو إنسان عادى يستخدم ذكاءه وقوته وهو مرة يخطىء ومرة يصيب وهو مرة ينهزم وأخرى ينتصر والحيل والمواقف فيها هى فى قدرة الإنسان العادى وما فيها من خوارق إنما ترجع إلى قدرة البطل

على استعمال أدواته ومهاراته فى هذا الاستعمال..

وإن كان هناك أى لون من الشك فى حقيقة كاتب سيرة عنترة أو ذات الهمة مثلا ومن أى الأقطار هو، فالذى لا شك فيه أن كاتب سيرة على الزيبق مصرى لحما ودماً فالأحداث تجرى فى جو مصرى خالص حتى ولو كان مكانها بغداد أو دمشق فهما عنده صورة من القاهرة. وتفكير البطل وآماله وأحلامه هى انعكاس لتفكير المصرى العادى ابن البلد وآماله وأحلامه.. بل لعله من النادر أن تجد فى هذه السيرة بطلا جانبياً من أبطالها لا ينتمى إلى إحدى قرى مصر أو أحياء القاهرة.

ونحن حين نقدم هذه السيرة تقديما روائيا معاصراً إنما نحرص على السمات الأصلية للعمل فى نفس الوقت الذى نستغل فيه ما أتاحته لنا فنون القص الحديثة من إمكانيات لإبراز أبعاد الشخصيات ورسم صورتها والغوص إلي أعماقها لتتحرك من صورة رسمها فنان بدائى إلى عمل حى متحرك قدر الإمكان.

ونحن نريد بتقديمها أن نسهم فى إبراز وجه أدبنا الشعبى الروائى العربى من ناحية وفى تقديم هذه الأعمال إلى أجيال الفنانين العرب من ناحية أخرى علهم يجدون فيها مادة خصبة لأعمالهم الفنية تربط تعبيرهم الحديث اليوم بتراث فنى مجيد قدمه تاريخنا الفنى الحافل وقدم فيه صورة حقيقية لنبض الشعب العربى.

• فاروق خورشيد •

١

عـــلى الزيبـــق

ما كـان السيـد نور الدين القـاضى يحس بوقع أقـدامـه على الطريق من فـرط مـا مـلأ قلبه من حنق امتزج بالخوف والإشفاق على ذلك الطفل الصغير الذى عـانى منه في أمسه ويومه ما عـانى. وهز عصاته فى غضب وثورة وهو يذكر ما حل بأهل السوق من ذعر وفزع، وارتسمت تقطيبة عابسة على وجهه المتغضن المليء بالأخاديد التى خطها الزمن ورسمتها أهوال الحياة الطويلة الشاقة التى عاشها. ولكن تقطيبته ما لبثت أن تركت مكانها لبسمة حانية تتسلل إلى الوجه العجوز وهو يذكر

ضحكة حفيده الخلية المنتصرة وابتسامات عينيه العابثة..
وكأنما أحنق الشيخ أن يجد فى قلبه مكاناً للحنان على الشقى الصغير فضرب الأرض بعصاته بقوة وهو يجبر ملامح وجهه أن تستعيد سمات القسوة والغضب. ورفع يده محيياً جاره الشيخ عز الدين وكل منهما يدلف إلى مدخل داره.

وكان أكثر ما يضايق السيد نور الدين هو اضطراره إلى الإفضاء لابنته فاطمة بقراره حول ابنها حقا إنه لن يستمع بعد اليوم إلي توسلاتها ودموعها، فهذا الصبى ينبغى أن يبتعد عنه، يتيم هو أو غير يتيم، إنه لا يستطيع بعد الآن أن يتحمل عبثه الشيطانى الساخر ولهذا فما كادت ابنته فاطمة التى فتحت له الباب تسأله

- لقد عدت مبكرا ياأبى. ما لك؟

حتى انفجر فيها مرة واحدة وأنفاسه تكاد تتقطع من تلاحق الكلمات على شفتيه

أتسألين ما لى، وأنت السبب إن هذا الملعون لن يرجع عن غيه إلا بعد أن يسكننى القبر

وأحست فاطمة بما يجيش فى قلب أبيه الشيخ من حنق وغضب، فقالت مهدئة

- على هل فعل معك ما يسيء إليك يا أبى، ما أظنه يفعل هذا وهو يحبك ويحترمك ولا يعرف إلا أنك أنت أبوه.

- فقال الشيخ وثورته تصل إلى قمتها

- أنا لست أباه، فأنا لا أنجب الشياطين..

فقالت فاطمة وهى تحاول أن تهدئ من ثورة الشيخ

- هدئ نفسك يا أبى، واخفض صوتك حتي لا يسمعك.

فصاح الشيخ مندفعاً فى ثورته

- أتخافين على إيذاء شعوره وهو لا يخاف على أحد، ولا يرعى حرمة لإنسان، أتعرفين ماذا حدث منه اليوم؟

فقالت فاطمة وهى تتنهد في استسلام

- ماذا حدث منه اليوم يا أبى

قال الشيخ ولحيته ترتجف مع ارتجاف فكه وتدافع الكلمات إلى فمه

- أتذكرين بالأمس ما حدثتك به من أمر خان الخليلى وكيف تصايح الناس في كل مكان، كل يصرخ، آه يا رأسى. وقد انصبت عليهم صواعق لا يدرون من أين نزلت بهم تصيب هذا فى جبهته وتصيب ذاك فى صدره وتصيب الثالث فى رقبته حتى تصايح الناس أن الجن يرجمون خان الخليلى بالصواعق والنيران، وحتى قال بعضهم إنها الطير الأبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

قالت فاطمة وقد بدأت تظن أن أباها يخلط فى الكلام

- أذكر يا أبى ولكن ما علاقة هذا بعلى؟

قال الشيخ مندفعا فى ثورته وقد بدأت أنفاسه تتقطع وبدأ الإجهاد يفعل فعله فى صدره المريض العجوز الذى أخذ يرتفع

وينخفض فى عنف

- لقد رابنى أمس أن كل من يقترب من الدكان يصيح ويجرى، ولكنى لم أعط للمسألة أهمية لأن علياً كان يجلس وأمامه الكتاب فى هدوء وهو يتظاهر أنه يقرأ فيه. ولكن اليوم اكتشفت المسألة فقد كان يمر أمام الدكان رجل زجاج يبيع الأوانى الزجاجية ويحملها فى طبق فوق رأسه، وما أن اقترب من الدكان حتى صاح وقفز قفزة عالية وهو يمسك برقبته وسقط الزجاج من فوق رأسه فانكسر، ولمحت بعينى ابنك الشيطان على وهو يرميه بنواية بلحة يضعها بين أصبعيه ثم يطلقها فتخرج كأنها السهم.

وابتسمت السيدة فاطمة، ثم أسرعت تخفى ابتسامتها وهى تقول

- هذه أفعال شياطين؟

فقال الشيخ وقد بدأ غضبه ينفثئ وبدأ التعب يظهر واضحاً على صوته

- لقد تذكرت أنه أخذ منى بالأمس دراهم اشترى بها بلحاً ملأ به جيوبه، ولاشك أن اللعين كان يغافلنى ويرمى أهل السوق أمس، كما حاول أن يغافلنى ويكرر فعلته اليوم.

فقالت فاطمة

- وماذا فعلت للزجاج يا أبى؟

قال الشيخ وقد اختفت نبرة الحدة من صوته

- أعطيته ثمن زجاجه المكسور وطيبت خاطره، ثم أسرعت أغلق الدكان وأعود إلى هنا

وسألت فاطمة

- وعلى. ؟

قال الشيخ وهو يطرق برأسه

كالزيبق، اختفى ولم أعثر له على أثر

فانقبض صدر فاطمة وهى تقول فى أسى

- أخشى أن يعرف الصبى أنك رأيته فتسوء العاقبة، يا أبى أنت تعرف أنه يتيم.

فقال الشيخ وهو يرفع رأسه ونبرة الحدة تعود إلى صوته

- إن حسن رأس الغول لم يمت يا فاطمة، وإن كان حسن قد حير الشطار والفرسان فى مصر وبغداد فى زمانه حتى غلبته دليلة على أمره وابتعد عن العراق فإن هذا الصبى لا يقل عنه ضراوة وشقاوة..

قالت فاطمة فى يأس

- منذ مات أبوه وأنا أحاول أن أبعده عن كل ما يتصل بحياته أو أصله، فأنا أوهمه أنك أبوه، كما حاولت أن أدخله الكتاب ولكنه ركب شيخه بالشقاوة حتي لم يعد المسكين يحتمله وظننت أنك ستساعدنى في تربيته.

فقاطعها أبوها فى حدة

- إن الدم لا يصبح ماء يا فاطمة، والعرق دساس. وأنا

أقسمت أننى لا أتعرض لهذا الشيطان بعد الآن ولن أرجع فى هذا القسم مهما كان السبب.

فأطرقت فاطمة برأسها وهى تقول

- حسنا يا أبى - لن أطلب منك مالاتريد.. إن علياً لن يذهب معك إلى الدكان بعد اليوم.

لم تنم فاطمة هذه الليلة حتى تأكدت أن علياً هو الذى ركب أهل السوق بالأذى، فحين عاد لم تفاتحه فى شيء، وإنما قدمت له عشاءه ثم صحبته إلى سريره، وما أن اطمأنت إلى أنه قد نام حتى ذهبت تبحث فى جيوبه لتجد بقايا النوى وقد دبب على أطرافها فغدت كالسهام حدة ومضاء.

ولم تنم السيدة فاطمة ليلتها حتى استقرت على رأى رأته خير الآراء لتجنب ابنها مصير أبيه. وهكذا ما طلع الصباح حتى استدعت سالما تابع زوجها الراحل وأخلص رجاله وقالت له

- لابد أن تساعدنى ياسالم فى تربية ابن مقدمك فهو ينفر من كل محاولة لتعليمه.

فقال سالم فى بساطة

- لو تركت لى الأمر يا سيدة فاطمة لتركته لى أعلمه الفروسية والعياقة.

فصاحت فاطمة

- هذا ما لايجب أن يتم أبدا، فأنا أريد أن يعيس ابنى حياة

مستقرة آمنة ويرث دكان جده ويعيش فى أمان وكفانى ما قاسيته من حياة مع أبيه حسن رأس الغول.

قال سالم وهو يهز كتفيه

- الأمر أمرك فماذا تريدين منى؟

فقالت فاطمة وفى صوتها لهفة

- تذهب به إلى الأزهر الشريف وتكلف به أحد المشايخ هناك يعلمه الأدب والدين.

فقاطعها سالم قائلا

- لا فائدة، إن أحداً منهم لن يرضى به بعد أن شاعت حكاياته مع شيخ الكتاب.

فقالت فاطمة وهى تخرج صرة نقود

- سأعطى من يقبله عشرة دنانير ذهباً

فتنهد سالم وهو ينظر إلى الصرة ويقول

- أعرف شيخاً أعمى لا يجد طلاباً ولا يجد قوت يومه وأظنه سيقبل علياً..

فقالت فاطمة وهى تعطيه الصرة

- ولتكن معه منذ اليوم الأول لا تفارقه لحظة ولا تتركه يركب الناس بأذاه.

٢

الشيخ عثمان

لم يعترض على حين صحبه سالم عبر شوارع القاهرة وأزقتها متجها نحو الأزهر الشريف. فما كانت هذه الرحلة الجديدة بالنسبة له إلا مرحلة أخرى من مراحل صراعه الصامت مع أمه التى تريد له الجلوس الصامت الكئيب أمام شيخ يردد كلاما جامداً لا حياة فيه بينما كل عرق ينبض فيه يصرخ طلباً للحركة، وبينما كل لفتة ذهن تضغط على عقله طالبة منه البحث عن حيلة جديدة يملأ بها حياته نشاطاً وحيوية. ولكن علياً كان يحب أمه وما كان يريد أن يغضبها واحمر وجهه

وهو يتذكر وجهها الحنون الصابر وهى تخبره فى هدوء أنه لن يذهب مع أبيه نور الدين إلى الدكان فى خان الخليلى مرة أخرى، لقد كان على متأكدا أنها تعرف، نعم إنها تعرف ما فعله في خان الخليلى، ومع هذا فهى لم تلمه بكلمة. وأحس بغصة فى حلقه وهو يدخل ميدان الأزهر المليء بالحركة والنشاط، وأصحاب العمائم يخرجون من الشوارع الضيقة المحيطة بالمسجد الجامع ويتوجهون إلى مدخل الأزهر الواسع.

وقال لسالم

- ألا تعرج بنا نطوف فى هذه الحارات ونتفرج عليها إن الوقت ما زال مبكرا

فتنهد سالم وهو يقول

- لا فائدة يا سيد على، لابد من الذهاب إلى حلقة الشيخ عثمان الضرير فهو فى انتظارنا منذ صلاة الصبح. أما هذه الحارات فماذا تظن أنك سوف ترى فيها لا شيء هنا يا سيد على سوى الفقر والجوع.

فقال على وهو يتوقف أمام باب الأزهر الكبير ويطل على صحنه الواسع الذى يموج بحلقات الدرس

- أليس هناك مكان يخلو من الفقر والجوع؟

- لا يختفى الفقر يا على وهناك أغنياء يموتون من التخمة وفقراء يموتون من الجوع، فرزق الفقراء الذين يعملون يأكله الأغنياء الذين لا يعملون.

قال على وقد لمعت عيناه أتعرف يا سالم أننى أحلم دائما بأننى أركب جواداً وأمسك رمحاً وسيفاً لأقتص من الظالمين وأنصف المظلومين، ولآخذ من الأغنياء المتبطلين لأعطى للفقراء الكادحين؟

وأخذ سالم يتأمل وجه الغلام صامتاً وهو يلمح فيه ملامح عزيزة عليه، فقد كان على فى هذه اللحظة قريب الشبه جداً من أبيه البطل حسن رأس الغول، ولكن الفتى لا يعلم وأمه لا تريده أن يعلم.. وتنهد سالم وهو يدفع الفتى إلى صحن المسجد ويقول

- من يدرى يا على. من يدرى. هيا بنا فقد تأخرنا على الشيخ عثمان.

ولم يكن الشيخ عثمان بأحسن من شيخ الكتاب، بل لعله كان أغلظ حسا وأشد فظاظة، يجلس متربعا فى صلف ويروح يدير الكلام بين شدقيه قبل أن يخرجه متعثراً متحشرجا يؤذى السمع ويصدم الأذن. وما كان ما يقوله الشيخ فى هزات رأسه الرتيبة وتمتماته الدائمة يزيد فى شىء عن حديث الفقيه فى الكتاب.. وزادت جلسة الشيخ عثمان سوءا ، أن أحدا من رواد الأزهر ما كان يجلس إليه، فكانت الحلقة لا تضم إلا عليا وسالماً أما سالم فسرعان ما كان يغط فى نومه غطيطا يغطى على صوت الشيخ الضرير، أما على فسرعان ما كان ينفلت من مجلسه أمام الشيخ فى هدوء ليتسلل إلى حلقات أخرى أكثر

نفعا وأشد إمتاعاً   وفى رحاب الأزهر تنقل على تنقله الصامت العادى ليستمع إلى درس الفقه والأدب وشيخه ماض فى حديثه الرتيب لا يسمعه إلا سالم النائم.   وكان مشايخ الحلقات ينهرون عليا أول الأمر، ولكنهم سرعان ما ألفوا ابتسامته الهادئة وأسئلته الذكية واستيعابه السريع الغريب.

وكان من الممكن أن يستمر على فى دراسته وقد استهوته مشاكل النحو ونكت البلاغة ووجد فيها مجالا لذكائه ومهارته لولا أن الشيخ عثمان أدرك أن تلميذه يتسلل من الحلقة ليجلس إلى غيره من الأساتذة.. ولا يعرف على كيف أدرك الشيخ عثمان الأمر وإن كان يشك فى أن أحد الطلبة الذين يقتحم عليهم حلقاتهم ويتفوق عليهم فيها قد غار منه فوشى به إلى شيخه الضرير، كل ما يعرفه على أن الشيخ قد أصبح يمد عصاه بين الحين والحين ليقرع رأسه بها قرعا خفيفاً وكأنما يؤكد كلامه أو كأنما يتأكد من وجود تلميذه.   وضاق على بالشيخ وضرباته التى أصبحت ضريبة دائمة، كما ضاق بالجلسة الغبية التي لا يسمع فيها سوى صوت شيخه الرتيب وغطيط سالم الذى لا ينقطع.   ولم يكن الأمر يحتاج إلي إمعان فكر ليقرر على أن الوقت قد حان لينتقم لنفسه من هذا الملل الذى لا طائل من ورائه.   وهكذا قصد إلى مجلس الشيخ ذات صباح وهو يخفى بين ثيابه ورقة عريضة من أوراق التين الشوكى برز منها أكثر من برعم صغير وامتلأت بالأشواك الحادة، وما أن انهمك الشيخ

فى كلامه المكرر والمعاد حتى نام سالم وعلا غطيطه. وجلس على يتحين الفرصة لينفذ خطته حتى إذا ما رفع الشيخ عمامته ليجفف رأسه الصلعاء أسرع على فقذف بالورقة الغليظة إلي رأسه وانفلت يجرى وصيحات الشيخ تملأ أذنيه. وتوارى على خلف أحد الأعمدة ليشهد الشيخ الضرير وهو يرفع عصاته وينهال بها ضربا على سالم الذى أيقظته الضربات من نومه مذعورا فمضي يحاول تهدئة الشيخ، والشيخ لا يهدأ وإنما يسب ويشتم في كلمات متلاحقة متداخلة وعصاته ترتفع وتنخفض فى سرعة مذهلة لتجد لنفسها في كل مرة مكانا على جزء من جسد سالم.. ولم يجد سالم بداً فى نهاية الأمر من أن يسكت الشيخ بالطريقة الوحيدة التى يعرفها، فرفع الشيخ بين يديه كالطفل ثم قذف به إلي الأرض كومة مترهلة مختلجة مضطربة، وانفلت خارجاً ودبوسه فى يده إيذاناً بأنه سيوقف كل من يعترض طريقه عند حده. ومن بعيد تبعه على وهو يكتم ضحكاته بصعوبة وقد أيقن أن أيامه فى الأزهر قد انتهت بهذه العلقة الساخنة التي تبادلها الشيخ والتابع العملاق، وأنه لا الدنانير العشرة ولا غيرها تستطيع أن تجمع بينهما ثانية أبداً

ظل على يتابع سالماً من بعيد وهو يجوس خلال شوارع واسعة تنبعث من الدكاكين على جانبيها روائح العطارة النافذة ويتكدس حولها أشولة مليئة بأنواع غريبة من البضائع بينما

تزدحم الشوارع نفسها بالسائرين على أقدامهم أو الممتطين صهوات البغال والحمير، وبين حين وآخر يندفع فارس راكباً جواده ليشق طريقه مسرعاً وسط الزحام. وكان على يتلفت حوله فى دهشة وهو يتأمل أصناف الأطعمة المعروضة وأنواع المشروبات ذات الألوان الداكنة التى تعرضها حوانيت الشربتلية، إلا أنه لم يدع سالما يغيب عن بصره لحظة، فإن أسرع سالم أسرع وإن أبطأ سالم أبطأ هو، فقد كان يريد أن يصل إلى تفاهم مع سالم قبل العودة إلي المنزل فإنه لا يريد بعد اليوم أن يستبدل شيخا بشيخ أو كتابا بمدرسة.

أما سالم نفسه فقد كان يسير مستغرقاً في أفكاره دون أن يلقى بالا إلى ما حوله، فكثيراً ما حملته قدماه عبر هذا الشارع فى طريقه إلى الرميلة وقرة ميدان حيث يعرض العياق حيلهم وحيث يتبارى المتصارعون ويتبارز أمهر الفرسان وأشجعهم، وما منعه عن الذهاب إلى الرميلة طوال هذا الوقت إلا ارتباطه بعلى ابن مقدمه حسن رأس الغول، وابتسم سالم وهو يتذكر ما حدث منذ قليل فى ساحة الأزهر وكاد يندفع مقهقهاً وهو يقول لنفسه

- إنها شمائل المقدم حسن، منصف لا يفكر فيه إلا الشياطين، أنا والشيخ نتضارب وهو كالزيبق لا أثر له.

ولم يكن سالم يشعر بأن عليا يتبعه فقد كان يظنه قد أركن إلى الفرار حتى لا تقع عليه عينا سالم، إلا أنه كان يظن أن علياً

على حق فمن كان مثله تجرى فى عروقه دماء المغامرة لن تستطيع قوة أن ترغمه على حياة الرتابة والاستقرار، ولكنه قلب الأم. وابتسم سالم لنفسه وهو يتذكر أن هذه الأم نفسها فاطمة ليست أماً عادية فهى قد بارزت أحمد بن البنى الذى كان أشجع فرسان عصره وقتلته، وصارت كلما دخلت معركة أو تعرضت لفارس تزيت بزيه وتلقبت باسمه، لقد كان لايفوقها فى الشجاعة إلا المقدم حسن رأس الغول نفسه، وما كان أنسبهما زوجين يوم كان اسم حسن رأس الغول يثير الذعر والخوف فى بغداد إلى القاهرة.. وهز سالم رأسه وهو يقول لنفسه

- الأب حسن والأم فاطمة والاسم على والفعل ولا دليلة.

٣

صلاح الكلبى

قطع على سالم أفكاره أنه وصل إلى ميدان الرميلة وقرة ميدان لتتلقاه صيحات الفرسان والمصارعين والعياق وهم يتبارون ويتبارزون وما أن رأوه حتى أسرعوا لتحيته فالمحبة بينه وبينهم لا تنقطع، وتقدم منه مقدم الميدان مرحباً وهو يقول

- أوحشتنا يا سالم.. لقد طالت غيبتك.. أنت لم تشهد هذه الألعاب الجديدة. اجلس اجلس يا رائحة الأحباب.. كيف حال السيدة فاطمة والسيد على الصغير؟

فتنهد سالم وهو يجلس ويجيل بصره فى الميدان الذى يموج بالحياة وقال

- ما أبعدنى عنكم كل هذه المدة إلا السيد على الصغير

فقال المقدم وهو يفرك كفيه فتتقلص عضلات ذراعيه العاريتين

كم أود أن أراه.

فتنهد سالم وقال

- لو رأيته يا مقدم لتذكرت المقدم حسن رحمه الله، وهو فى فعله يشبهه تماما

ومضى سالم يحكى لمقدم السوق ما فعله ليتخلص من شيخه فى الأزهر، فأغرق المقدم بالضحك وهو يقول

- مثل هذا لاتنقصه الحيلة ولا الشجاعة ولكن ينقصه المران والتعلم ومدرسته الحقيقية هى هنا

وما أن انتهى المقدم من كلامه حتى تقدم أحد الرجال حاملا صرة من المال فتناولها منه المقدم ووضعها أمام سالم وهو يقول:

- هذه هى حصيلة اليوم يا سالم.

وفوجئ الاثنان بالصبى على وهو ينقض كالصقر على الصرةف يدفعها بعيدا ويصيح بسالم

- هل جئت هنا لتستجدى، أليس هذا عيباً عليك يا سالم؟

وضحك سالم وهو يقول

- لقد فاجأتنى يا سيد على، إن هذا هو حصيلة يومهم

يعطونه لى لأفرقه بينهم.. فتعال لتشهد قسمة المال بين العياق والفرسان والمصارعين، ولكى أفرجك على هذه الساحة..

فغمز مقدم السوق بعينه وهو يقول

- إذا كان هذا هو السيد على فقد قادته قدماه إلى أجدر الأماكن به.

وابتسم سالم وهو يأخذ بيد الصبى ويقول

- لا يستطيع أحد يا مقدم أن يعاند القدر، وما هو مكتوب مكتوب. هيا يا على لأريك حلبة المصارعة..

كان على يسير كالمبهور وسط هذاالعالم الغريب الذى تفتح أمامه فجأة، فمن حلبة المصارعة حيث يعرض المتصارعون أدق الحيل وأبرع المسكات إلى ميدان المبارزة حيث يصول الفرسان فوق خيولهم ويجولون، إلى رحبة واسعة يلتقى فيها المتلاكمون يوقعون بعضهم بعضا بضربات الأيدى، إلى ساحة صراع الديكة حيث يتصافح المجتمعون وكل يراهن على الديك الفائز، إلي حاو يعرض ألعابه وضاربة الودع تكشف المستور وتتحدث عن المستقبل.

وسأله سالم وهو يمر به بين صفوف من رماة النبال كل منهم يحاول أن يصيب هدفاً أدق وأبعد من هدف زميله

- إذن فقد تبعتنى يا سيد على طوال الطريق وأنا الذى ظننت أنك ستختبئ منى ولا تظهر

- فقال على وعيناه تبرقان إعجاباً إذ أصاب أحد الرماة فرع

شجرة على مبعدة فشقه نصفين

- ولماذ أهرب منك، أنت أجبرتنى على ما لا أريد فأذقتك مالاتحب

وفجأة توقف الميدان كله عن الحركة وسرت همهمة بين الفرسان والعياق إذ ارتفع صوت طبلة رتيبة، كما لاحت من بعيد كوكبة من الرجال تضرب الأرض بأقدامها فى وقع ثقيل، وهمس مقدم الميدان من بين أسنانه

- إنه صلاح الدين الكلبى والزعر من رجاله..

وأمسك سالم يدى على و هو يهتف

- هيا بنا إلى هذا الدكان حتى يمر فلست أريده أن يراك معى فيعرف، وتسوء العاقبة.. وانساق على لليد القوية التى اندفعت به إلى دكان صغير، ثم ردت الباب بحيث استطاع من فرجته أن يرى مجموعة الزعر وهم يسيرون فى صف طويل يتقدمهم عملاق طويل القامة أنيق اللحية جميل الثياب، تبدو عليه مخائل القوة والشباب.

وهمس إلى سالم قائلا

- من هذا الذى يسير فى المقدمة يا سالم؟

قال سالم فى صوت منخفض ونبرات تفيض حنقا وغضباً

- هذا هو صلاح الكلبى مقدم درك مصر، وهؤلاء هم الزعر من أتباعه.

وعاد على إلي أسئلته وهو يشاهد الوجوم الذى حل بالميدان

كله ومجموعة الزعر يمرون فى عجرفة

- ولكن لماذا تختبئ منه ونحن لسنا لصوصاً أو مجرمين؟

فقال سالم وقبضته تشتد على ذراع على

- بل هو اللص والمجرم، ونحن لا نختبئ من أحد، وإنما أحببت أن لا يراك معى فيعرف.

وصمت سالم متردداً فقال على فى فضول

- يعرف ماذا؟

فعاد سالم يقول وهو يتنهد

- لاشيء. ها هو قد انصرف، فهيا بنا نعود بك إلى المنزل فلاشك أن أمك قلقة عليك إذ تجاوزنا الآن موعد العودة اليومية إلى الدار

وتشبث على بمكانه وهو يقول

- بل لابد أن أعرف.

فدفع سالم باب الدكان ففتح وقاد علياً من يده إلى الميدان وهو يقول

- سأحكى لك عن صلاح الكلبى هذا، لقد كان لصاً وعياراً لا يطاق، وليتجنب العزيز شره عينه مقدما على الدرك..

ورفع على رأسه فجأة وتوقف عن السير وهو يقول

- ولكن الجميع هنا يكرهونه، ولقد رأيت فى عيونهم البغض والكراهية له.

قال سالم

- لأنه ركب الناس بالشر ، وفرض نفسه على الجميع ، لا يترك إنساناً فى حاله إلا إذا رشاه .

وقال على وهو يضغط على ذراع سالم

- سوف أهزمه وأخلص الناس من شروره .

ضحك سالم وهو يقول

- يا بنى أنت لست من أنداده فقد دوخ العيارين والفرسان حتى خافه الجميع .

قال على

- قل إنه لم يلق بعد من هو ند له .

وتفرس سالم فى وجه على وهو يقول

- وأنت هذا الند .

قال على

- أنا لا أخاف بأسه ولا أخشى سطوته .

وهنا تدخل مقدم السوق فى الحديث فقال

- ما دمت يافتى تجد فى نفسك هذه الجرأة فمرحبا بك بيننا نعلمك فنون النزال والصراع وندربك على أفانين العيارين من التخفى واستعمال البنج وتسلق الجدران

ولمعت عينا سالم وهو يقول

- هذه هى المدرسة التي يبحث عنها ، ولو سئل أبوه لما طلب له إلا هذه المدرسة .

قال على فى دهشة

- ولكن أبى رجل طيب فى حاله.

فقال مقدم السوق

- لنترك أباك في حاله يا على. ولتحضر غداً مبكراً فسوف أجعل منك شيطاناً لم تشهد البلاد مثله.

فتنهد سالم وهو يقول

- حسنا فقط لنخف الأمر على السيدة فاطمة ولنقل لها إنك تذهب كل يوم إلى الأزهر وليسامحنا الله فى هذه الأكاذيب..

٤

الشيخ حسن المناشفى

لم تشهد الرميلة وقرة ميدان أنشط من على فى الإقبال على كل ما يأخذ الفرسان وأهل الشطارة أنفسهم به من مران، فهو السباق إلى الفهم، وهو السباق إلى الإتقان والإجادة ثم هو السباق إلى التفوق والتبريز فى كل ميدان شهد له أقرانه بالشجاعة والذكاء والذهن اللماح الذى سرعان ما يدرك نقطة الضعف فى خصمه فيستغلها لقهره والتفوق عليه، وكان مقدم الميدان فخوراً بتلميذه الجديد الذى ظهر له بين زملائه لقب جديد ظل علماً عليه إلى

آخـر العـمـر ، إذ أسـمـوه بالزيبق لـسـرعـة الإفلات من مـكائدهـم وفـخـاخـهـم. أمـا سـالم فـقـد كـان يرقب علياً وإحساس بالرضى والفـخـار يملأ نفسـه ، وكـأنما كـان يرضى ذكـرى عـزيـزة لديه بما يتـيـحـه لعلى من فـرصـة لإتقـان كل فن . . ثـم كـان سـالـم يقـوم بنفسه فى نهاية النهار بتدريب ابن مقدمه الراحل على مجموعة من الحـيل فـى كل باب مـا كـان يتـقـنهـا إلا أخـصـاء حـسن رأس الغول والذين تلقوها هم عنه . علمه حيلاً في المصارعة تدق عنق المصـارعين العـاديين ،ولقنه خـدعـا فى المبارزة بـالسـيـف واللعب بالرمح ، ثم جعله يتقن الفن الذى يعرفـه سـالـم خيراً من غـيـره وهو فن التنكر فى أى شكل يريد .

كل هذا يدور وفـاطمـة تظن أن عليـا يذهـب إلى الأزهر ،وهى ترقبـه كل صبـاح فى حنان داعـية له بالتـوفيق فى درسـه وموصـية عليـه سـالما لـيزداد به عناية ، وقـد اسـتراح قلبـهـا إذ انقطع سيل الشكوى الذى كـان ينهال عليـهـا من جراء اندفـاع على ، وظنـت أنه آخر الأمر قد اهتدى واستقر

أمـا على فـقـد كـان كل يوم يزداد ثقـة بنفـسه ووثوقـا فى قـوتـه ومـهـارته. ومـا مضـت مـدة حتى أيـقن أن الرميلة وقـرة مـيـدان لـم يعـد لديـهـمـا مـا تعطيـانه له ، فـقـد نفـدت فنونـهـم ومـا نفـد تطلعـه إلى معرفـة الأكثر وإتقـان الأبرع ، وقال يومـا لسـالـم وهـمـا يعـودان من الميدان

- إن مـا يحيـرنى يا سـا لم هو هؤلاء الفـرسان والعـيـاق الذين

يكتفون بعرض فنونهم على المارة والجمهور رغم ما هم عليه من البراعة والمهارة..

قال سالم

- وماذا تريدهم أن يفعلوا يا سيد على؟

فقال على فى حماس

- يقضون على هذا الظالم المستبد صلاح الدين الكلبى ويتقاسمون نعمه وأمواله.

فقال سالم وهو يقف فى الطريق واضعا يده على كتف على:

- أنت لا تفهم يا على. بين أن تقدر وأن تفعل مسافة كبيرة. واسم صلاح الكلبى كفيل بإلقاء الرعب فى أقسى الأفئدة وأقواها

فقال على وهو يجيل نظره فى الشارع فيلمح مسجدين أحدهما كبير عند الناصية والآخر صغير فى نهاية الشارع

- لقد أذلكم الخوف منه. ولو وجد من يجرؤ على تحديه لما خافه أى واحد منكم.

قال سالم وهو يستأنف السير

- لست أخشى عليك يا على إلا من هذه الأفكار التى ستوردك موارد الهلاك.

قال على وهو يمسك بذراع سالم ويشير بيده

- انتظر لحظة يا سالم هل لاحظت ونحن نسير من هنا كل يوم أن هذا المسجد الكبير على الناصية ملآن دائماً بالمصلين

بينما يخلو المسجد الصغير هناك فى نهاية الشارع من الناس؟

قال سالم بدون مبالاة

- وماذ فى الأمر يا على. المسجد الكبير يؤمه صلاح الكلبى ورجاله من الزعر ولذلك فالناس يقبلون عليه تقرباً من صلاح أما الثانى فكما ترى.

فهر على رأسه وقال

- حتى فى بيوت الله.

ثم لمعت عيناه وهو يخبط الأرض بقدمه ويقول

- أخيرا عثرت على الوسيلة التى أشد بها ذنب الذئب، أعطنى دبوسك يا سالم.

فقال سالم فى لهفة وعلى ينفلت من جواره منطلقا

- ماذا تريد أن تفعل يا على؟

قال على وهو يبتعد

سأعلن لصلاح الكلبى وجودى. سأريه أن زمن بطشه قد ولى وزال.

لم يستطع الشيخ حسن المناشفى أن يعود إلى حديثه مع الأصدقاء وهم يتجهون نحو المسجد لأداء فريضة صلاة الجمعة فقد كان يحس بنظرات الفتى الفارع الذى يقف أمام باب المسجد تخترق صدره وتهز قلبه بقلق لم يدر له سببا، وحاول أن يتجاهل هذه النظرات وهو يبسمل ويحوقل ويستعيذ بالله

من الشيطان الرجيم. والتفت إلي الأسطى على الشربتلى وهو يقول

- إن حكمة الله سبحانه وتعالى فى هذا

ولم يكمل، فقد تقدم الفتى منهم فى تؤدة وهو يقول فى صوت أجش لا يتناسب مع ملامحه الفتية

- إلى أين العزم يا رجال؟

ولاحظ الشيخ حسن المناشفى أن الفتى على يحمل فى يده دبوساً ضخما ينوء بحمله أقوى الرجال، ويسوق كل من يدخل الجامع الكبير إلى الجامع الصغير بدبوسه الغليظ، ولكنه تجاهل ما رأى وهو يستجمع نفسه المضطربة وقال فى صوت حاول أن يكسبه الهدوء والثقة

- مالك أيها الفتى تتعرض لنا بدبوسك هذا ونحن نقصد بيت الله؟

وجاءه الصوت الهادئ يقول

- أريد البركة يا سيد.

وحاول الشيخ أن يتجاهل هذه السخرية وتظاهر أنه يأخذ الحديث مأخذ الجد وقال

- إذن ادخل وصل معنا فالإيمان يا بنى طريق البركة.

وعاد الصوت الهازئ يقول والدبوس يتحرك حركة ذات مغزى فى يد الفتى الفارع القوام

- بل ستصلون أنتم معى فى هذا الجامع الصغير الذى يقع

فى آخر الشارع . .

وتبادل الشيخ حسن المناشفى النظرات مع الأسطى على الشربتلى الذى قال فى صوت متخاذل

- لقد تعودنا أن نصلى فى هذا الجامع الذى يؤمه كبراء البلد . .

ولم يكمل الأسطى على حديثه فقد ازداد تقدم الفتى وازدادت حركة الدبوس ، وقال الصوت الخشن

- بل ستصلون معى هناك ، ومن يخالف كلامى سأهلكه بهذا الدبوس .

وسرت همهمة احتجاج وسط الجمع وهمس على الشربتلى فى أذن الشيخ حسن

- اليوم الجمعة يا شيخ حسن وفيه ساعة نحس ، ويبدو أن هذه الساعة قد حلت

وطرق الصوت الخشن أسماعهم من جديد وهو يقول فى تهديد ودبوسه يرتفع فى الهواء

- ستذهبون معى . ومن يريد أن يتخلف يرفع صوته لينطق آخر كلماته .

واصطدمت ركبتا الشيخ حسن فى ارتجاف وهو يهرول مسرعاً إلى الجامع الصغير والكلمات تخرج من فمه مرتجفة وهو يقول

- بل نحن قادمون معك يا بنى وكلها بيوت الله . .

وحين تبعه الباقون مهرولين علت الابتسامة وجه على وهو يتطلع إلى مجموعة أخرى من القادمين الجدد إلى الجامع الكبير

***

كان الجامع الصغير مليئاً بالناس على غير العادة، ومضى أكثرهم يتظاهر بالانهماك فى التسبيحات، بينما شغل آخرون أنفسهم بأداء ركعات تذكروا أنها دين عليهم، فقد كان الجميع يتجنبون التطلع إلى الفتى الواقف بباب المسجد، كما كانوا يتجنبون أن تلتقى أعينهم بعضها ببعض، وران على المسجد كله جو من الخوف الممزوج بالدهشة. على أن أكثر من بالمسجد دهشة كان خادمه الشيخ علوان الذى مضى يهمس إلى أبى خليل السقاء قائلا

- لم أشهد يا أبا خليل يوم جمعة كمثل هذا اليوم من قبل، لقد كان المسجد يظل خاليا طوال الصلاة إلا من اثنين أو ثلاثة من عابرى السبيل والأغراب، ولست أدرى اليوم ماذا دفع الناس إلى هنا زرافات ووحدانا

فقال أبو خليل السقاء وهو يشير بيده إلى باب المسجد بينما تتعثر الكلمات فى فمه الأهتم

- ألا ترى هذا الفتى الذى يقف بدبوسه عند باب الجامع، لقد رأيته بعينى يسوق كل من يدخل الجامع الكبير إلى هنا بدبوسه الغليظ هذا

وقطع على الشيخ علوان الحديث أن تقدم الإمام إلى القبلة

فهمس متسائلا وهو يهرول إلى المبلغة

ترى ماذا يريد هذا الفتى وليس فى الجامع أى مغنم ؟

إلا أن سؤال الشيخ علوان سرعان ما وجد جوابه عند نهاية الصلاة ، إذ ما كاد المصلون يتجهون إلى الباب وأولهم الشيخ حسن المناشفى يتبعه صديقه الأسطى على الشربتلى ، حتى تعرض لهم الفتى صاحب الدبوس وهو يقول فى صوته الهادىء الهازئ

- إلى أين يا سيد

واستجمع الشيخ حسن المناشفى نفسه وهو يقول

- مالك بنا يابنى ، الصلاة وصليناها حيث شئت والآن نريد العودة إلى بيوتنا

وارتفعت ضحكة هازئة ارتجفت لها أوصال الرجال وقال الفتى

- لا يا والدى ، دخول الجامع شىء ، والخروج منه شىء آخر ، ولا سبيل لخروجكم إلا ويعطينى كل منكم درهماً

واندفع الأسطى على الشربتلى قائلا فى عنف

- أما تستحى يا غلام من هذه الوقاحة ؟

وارتفعت صيحة الفتى الغاضبة ، وفى نفس الوقت هبط دبوسه فوق كتف الأسطى على الشربتلى الذى امتزج صراخ ألمه بعويله وصيحات الشيخ حسن المناشفى الذى اهتزت لحيته وهو يقول :

- سندفع يا فتى سندفع.

ثم التفت إلى الجمع حوله يقول

- إنها زكاة الصلاة. صدقة يوم الجمعة، ادفعوا يا إخواني ادفعوا

وسرعان ما أخذ المصلون يرمون في المنديل العريض الذي فرشه الفتى فوق أرض الجامع دريهماتهم التي تكومت مكونة كومة كبيرة، أخذ الشيخ علوان ينظر إليها في دهشة وهو يحاول أن يختبئ في جسد السقاء العريض الذي همس في أذنه

- ليست معي دراهم يا شيخ علوان.

فقال له من بين أسنانه التي تصطك في عنف

- أنا معي، هيا نخرج. هيا

ولكن الفتى رفع دبوسه أمامهما فمنعهما من المرور وهو يقول

- ألست خادم المسجد؟

وارتجف الشيخ علوان وهو يهمس

- نعم يا ابني. نعم يا شاب. أنا والله خادم المسجد.. وهذا صديقي، وهذان درهمان.

وابتسم الفتى وهو ينزل دبوسه ويشير به إلى كومة الدراهم ويقول

- هذه الدراهم تأخذها كلها لخدمة المسجد ولتوزعها على

فقراء المصلين وأبناء السبيل . وظل الشيخ علوان فاغراً فاه حتى اختفى من أمامه الفتى الفارع وهو لا يكاد يدرك معنى ما سمع إلي أن أحس بيد تهزه بعنف وبصوت أبى خليل السقاء يقول له

- أسمعت . . هذه الدراهم للمسجد وأنا

وعاد نظر الشيخ علوان إلى كومة الدراهم لحظات ، ثم اندفع نحوها مادا كفيه وهو يصرخ مخاطباً المكان الذى يقف فيه الفتى صاحب الدبوس

- نصرك الله يا نصير المظلومين . أعانك الله يا معين المحتاجين .

٥

العجل

كان صلاح الكلبى قلقاً أشد القلق إثر الأنباء التى سمعها من العزيز هذا اليوم، وكان يجلس وسط رجاله فى قاعة الزعر وهو يقول لهم

- لقد أرسلت دليلة رسولاً يقول إنها ستحضر إلى مصر، وينبغى أن نظهر لها غاية الإكرام فهى مقدمة درك بغداد ولست آمن على منصبى أو نفسى منها، فينبغى أيضاً أن نراقبها تماماً ونعرف كل حركاتها وسكناتها من لحظة دخولها أرض مصر

فقال المقدم عثمان وهو يفتل شاربه الضخم

- نحن لها يا مقدم، دليلة أو غير دليلة، إن النملة لا يمكن ان تدب فوق الأرض دون أن نعرف عدد دباتها

وابتسم صلاح الكلبى فى رضى وهو يتأمل تابعه العملاق، لقد كان عثمان ساعده الأيمن فى كل مغامراته التى أكسبته شهرة مرعبة يرتجف لها كل عياق مصر، والتى مكنته أخيراً أن يفرض سطوته حتى على العزيز نفسه فيعينه مقدما لدرك مصر تجنبا لشره وإرهابا للصوص والعياق بسطوته وشهرته، حقاً لقد صدق عثمان، إن النملة في مصر قبل أن تدب عليها أن تستأذن منه أولاً، ولن تجد دليلة تلك الأرض الخصبة التي تعودتها فى بغداد لتمارس ألاعيبها وقطع عليه حبل تأملاته صوت ضجة خارج القاعة استطاع أن يميز منها اسمه وهو يقال فى استعطاف وابتهال، فالتفت لعثمان وهو يقول

- هؤلاء قوم لهم شكاية، أدخلهم يا عثمان، فلا بد أن نستمع إلى شكاوى الناس.

وما أن فتح عثمان باب القاعة حتى اندفع خليط من الناس اندفاعاً، كانوا مزيجاً غريباً من التجار وأصحاب الحرف، اختلطت أزياؤهم وتداخلت صيحاتهم. واضطر صلاح إلي أن يصيح فيهم

- اسكتوا جميعا وليتحدث واحد منكم..

واندفع من وسط الجمع شيخ كبير العمامة مكور الجسد،

وأخذت الكلمات تتدافع من فمه وهو يقول

– يا مقدم أغثنا، الفتى بدبوسه وحرابه وسيفه وسهامه، كأنه العون، طوله أكبر من الشجرة، وحجمه أضخم من الفيل، وأذنه..

وصاح به صلاح وقد أخذ يضيق بحركاته الغريبة وكلماته المتداخلة وتراقص جسده المتكور.

– ما هذا التخريف يا رجل.. قل ما الحكاية دون نط أو صراخ.

وأحدثت صيحة المقدم صلاح فعلها فساد القاعة صمت كامل، وارتج على الشيخ حسن المناشفي فسكت، ودار بعينه الواسعتين فى القاعة كأنما يتلمس مهرباً، ولكنه لم يجد سوى عيون تتطلع إليه، فازداد اضطرابه واشتدت حيرته. ولكنه استطاع بعد لأى أن يستجمع أنفاسه اللاهثة ليقول

– طلع علينا كالعون الهارب من قمقم سيدنا سليمان..

وأسرع الأسطى على الشربتلى إلى معاونته فأكمل قائلا

– أرغمنا على الذهاب إلى المسجد الصغير، قلنا له إن المسجد الكبير يصلى فيه المقدم صلاح الكلبى وإننا نحب أن نصلى معه فيه.

وتحمس الشيخ حسن لتدخل صديقه الأسطى على فقال

– لم يهمه وإنما صاح بصوت كأصوات المردة، اذهبوا إلى الجامع الصغير

واستأنف الأسطى على حديثه بنفس الحماس فاندفع يقول
وعند الخروج من المسجد دفع كل منا درهماً
وتشجع الباقون فأخذ كل واحد منهم يحكى طرفاً من الحكاية، استطاع صلاح الكلبى آخر الأمر أن يفهم حقيقة ما حدث فصاح فيهم ليسكتهم، ثم قال فى استخفاف
- واحد يفعل بكم كل هذا أنتم والله تستأهلون ما هو أكثر من هذا، وعلي أية حال سأرسل له من يقوده ذليلا لنسترد منه دراهمكم. والآن اخرجوا
وتدافعوا جميعا نحو الباب وهم يتسابقون إلى الخروج وفى مقدمتهم الشيخ حسن المناشفى الذى ود لو أن الأرض ابتلعته لتبعده عن نظرات صلاح الكلبى الحادة، إلا أن صوت صلاح أوقفه عند الباب وهو يصيح فيه
- أنت. تعال هنا
وعادت أقدام الشيخ حسن تتعثر وهو يتجه نحو المقدم المخيف ويهمس
- أنا يا مقدم
وقال صلاح وهو يتفرس فيه
- نعم أنت، تحضر هنا يوم الجمعة القادم لتصحب معك اثنين من رجالى وتكمنوا لهذا الأبله المغرور وتشير لهم نحوه وسيتولى هم الباقى. أفهمت؟
وأراد أن يعترض ، أن يقول له إن الدرهم لا يهم وإن الأمر

انتهى. ولكنه سمع لسانه يقول

- أمرك يا مقدم. سأحضر يوم الجمعة. نعم سأحضر يوم الجمعة..

وتنهد المقدم صلاح وهو يعتدل فى مقعده والباب يصطفق خلف هذا الجمع الخائف الغاضب، كان دائماً يحس بالراحة والرضى وهو يشهد أثر نظراته فى قلوب الناس، إنهم لا يتمالكون أنفسهم أمامه، يذوبون أمام نظراته، يتضاءلون أمام صوته، كلهم هكذا حتى ولو كانوا يشتكون. ما أن يقفوا أمامه حتى يتحول غضبهم إلى خوف، وتتبخر شكاياتهم للتحول إلى تضرعات، وسمع عثماناً يقول

- لا تهتم يا مقدم، فلا شك أنه أحد العياق ضاق به العيش فلجأ إلى هذه الحيلة ليحصل على دراهم تقيم أوده ولست أظن أنه سيعيد الكرة فيغامر بكسب عداوتك.

والتفت إليه المقدم صلاح وهو يقول

- ربما فكر فى معاودة الكرة. ولذلك أحببت أن أكون فى انتظاره فقد استسلم له هؤلاء المشايخ فى سهولة ربما أغرته بهم..

وطرق الباب فقطع صلاح الكلبى حديثه ليتطلع إلى الباب الذى فتح ليدخل منه عباس الأشول صائحاً.

- ضاع العجل يا مقدم صلاح. ضاع العجل..

وعصف الغضب بين جنبى صلاح هو ينظر فى وجه عباس

الأشـول المضطرب، لقـد كـان هذا العـجل رشـوة من أهل مـدينة الطيبـة دفـعوه لكى يؤجل عنهم دفع الأمـوال الأميـرية. وكـان يمني النفس الليلة بعشاء طيب، ولكنه تمالك غـضبه وسأل فى صوت هادئ.

ألم يحضره أهل الطيبة يا عباس؟

فقال عباس وعيناه الضيقتان تجولان فى قلق

بل أحضروه يا مقدم، واستلمته منهم، وربطته فى الحبل وجررته ورائى إلى هنا، وكان كل من فى السوق يحيوننى لأنهم يعرفون أن العجل عجلك.

فصاح صلاح الكلبى وقد فقد سيطرته على الغضب الذي ملأ جوانحه

حسنا وأين هو

وقال عباس وهو يحرك ساعديه فى يأس

كـان ورائى طول الطريق، أجـره بالحـبل، ولكنه طار، تبخر، ما إن تركت السوق حتى أحسست بالحبل خفيفاً، فالتفت ورائي فلم أجد العجل ولم أجد أحدا

ولم يتمالك صلاح الكلبى نفسه من أن صاح به وهو يرفع يده ويهوى بها فوق وجهه

أيؤخذ منك العجل فى رابعة النهار ووسط السوق وأنت مثل الصنم لا تحس ولا تشعر

واندفع عباس الأشول يجرى من أمام المقدم صلاح وهو يعوى

ويصيح بين صرخاته قائلا

- ماذا تفعل يا مقدم البلد والبلد قد امتلأت بالشياطين.

حين عاد على بالعجل إلى المنزل قابله سالم وهو يصيح متسائلا

- ما هذا يا على؟

وابتسم على وهو يروى لسالم أحداث يومه، وأنهى حديثه بقوله

- أما الدراهم فقد تركتها لخادم المسجد، أما هذا العجل فاذهب به يا سالم إلى ضريح السيدة، واذبحه عند باب الضريح وفرق لحمه على المعوزين والمحتاجين..

وأطال سالم النظر إلى وجه على الذى امتلأ بالحماس وابتسم قائلا

- لقد أطلقت كلاب القنص وراءك يا على، ولست أشك أن الزعر جميعاً الآن يملأون شوارع القاهرة وأسواقها بحثاً عن العجل، ومن وجدوه معه عرفوا فيه ضالتهم.

فتجهم وجه على وهو يقول

- هل تجبن يا سالم. ؟

وعاد سالم يبتسم فى هدوء، وهو يقول

- أنا لست جباناً يا بنى، ولكن هناك شيئاً اسمه الحذر، ولو سرت فى الطرقات بهذا العجل أكون كمن يعرض رقبته إلى المشنقة..

ولم ينتظر علي أن يسمع من سالم باقي حديثه فقد سئم هذه النصائح التي لا تتكرر، ولذلك فقد أمسك بمقود العجل يسوقه وراءه وهو يقول

- سأبيعه إذن وأعطيك ثمنه لتفرقه على المحتاجين.

ولم يكن حذر سالم في غير موضعه فإن علياً لم يكن يدري وهو يرقب عملية المزاد التي يقوم بها الدلال على العجل أن التاجر ذا اللحية السوداء الذي أخذ يزايد على ثمن العجل حتى أوصله إلي خمسة وعشرين ريالاً لم يكن إلا صلاح الكلبي نفسه، وقد عرف العجل فأراد أن يشتريه ليهتدي عن طريقه إلى بائعه أي سارقه من التابع الأرعن عباس الأشول.. وكان علي غارقا في أفكاره وهو يتصور ماذا ستفعل هذه الريالات كلها بالفقراء ممن يلوذون بباب ضريح السيدة.. ولكنه انتبه على صوت الدلال وهو يصيح به

- تعال أيها الفتى، يا صاحب العجل، خذ نقودك من هذا التاجر

ولمح علي هذا التاجر وهو يعطي الدلال دلالته، ثم يلتفت إليه متفرساً بعينين كعيني الصقر، وسمعه وهو يقول له

- اتبعني يافتى فالنقود ليست معي، وهات العجل فالبيت قريب..

ولم يكن علي وهو يسوق العجل وراءه ويسير وراء التاجر ذي اللحية السوداء يعرف أنه يسير إلى فخ منصوب .

٦

ابن حسن رأس الغول

الواقع أن صلاحاً كان يسير أمام حسن وهو يفكر فى هذا الموقف الغريب الذى وجد نفسه فيه، فحقيقة لقد تنكر ونزل إلى الأسواق بحثاً عن العجل وسارقه، ولكنه لم يرتب أموره بحيث يتيسر له أن يقبض عليه دون أن يهرب، فالفتى يبدو فارع الطول قوى الجسد، هو حقاً لا يخشاه فمن يكون هو إلى جوار صلاح الكلبى، ولكن كيف يكون الحال لو تمكن الفتى من الفرار وخطر لصلاح أن يسوق الفتى إلى قاعة الزعر ثم يشير إلى رجاله فيطبقون عليه، ولكنه سرعان ما عدل عن هذا

الخاطر فماذا لو أن الفتى كان يعرف القاعة فأدرك الفخ المنصوب وهرب   وحين رفع صلاح رأسه رأى بوابه ضخمة أمامه، وكان يعرف أن هذه البوابة تؤدى إلى مجموعة من الحارات فابتسم وهو يقول للفتى

- هذا هو البيت يا فتى فأعطنى العجل وسأرسل لك بالنقود مع الخادم

وحين ترك له على مقود العجل أدرك صلاح أن الحيلة قد انطلت على الفتى فدخل مسرعا يسوق العجل.

وهو يستحث الخطى ليصل إلى قاعة الزعر ويعود برجاله لاعتقال هذا اللص الجرىء الذى لم يجد ما يسرقه إلا عجل المقدم صلاح الكلبى نفسه

بدأ على يحس بالقلق حين طالت غيبة التاجر ذى اللحية السوداء، وبدأ يستعيد فى ذهنه كلمات سالم المحذرة ونظرات هذا التاجر المتفرسة المستريبة   وهتف به عقله أن يعود ويترك العجل وشأنه، ولكنه ما كان يرضى لنفسه بمثل هذه الهزيمة السهلة وهو الذى وطن نفسه على مجابهة الأهوال أفيليق به أن يهرب عند أول بادرة للخطر

وظل على موزعا بين هاتف النجاة، وحافز البقاء، لا يدرى أيهما يتبع إلى أن لمح جارية تخرج من البوابة الكبيرة وهى تحمَل سلة ضخمة فهدأت نفسه وهو يقول :

- لقد حملنى الوهم على الشك فى كل الناس ها هو التاجر قد أرسل جاريته بالنقود، بل ولعله أرسل لى معها طعاماً

واقترب على من الجارية وهو يصيح بها أنه صاحب العجل، والتفتت إليه الجارية مذعورة ثم مضت تهرول مسرعة وقد بدت عليها أمارات الذعر من تهجمه، ووقف على حائراً لا يدرى ماذا يفعل إلى أن سمع صوتاً يقول من ورائه فى تهديد

- ماذا تريد من هذه الجارية يا فتى ؟

والتفت على إلى مصدر الصوت وقد تقلصت عضلاته استعدادا لمعركة حامية، ولكنه وجد أمامه وجها وقورا لشيخ طاعن يتفرس فيه فى دهشة، ويعيد عليه السؤال مرة أخرى، فقال على وهو يطرق

كنت أظنها جارية صاحب هذا البيت أرسلها إلى بنقود العجل الذى اشتراه منى

وظل الشيخ يتفرس فيه لحظات، ثم انطلق يضحك وهو يربت على كتفه ويقول

- أى بيت هذا يا فتى، ما هذه البوابة التى تراها إلا بوابة تسوق إلى عدة شوارع ضيقة وحوارى، وما أظن صاحبك الذى تحكى أنه اشترى منك العجل إلا نصاباً استغل صباك وقلة خبرتك وسرق منك العجل، فاستعوض ربك يا فتى

ولم يتردد على لحظة، فقد أدرك سر الفخ المنصوب وأحس بالخطر الذى يكمن فى تلكئه فى ذلك المكان فلم ينتظر حتى

يكمل الشيخ حديثه، بل تركه يوجه نصائحه الأبوية إلى الهواء وانطلق يجرى بملء قوته وقد أدرك أن نجاته مرهونة بسرعة ابتعاده عن هذه البوابة المشئومة

وظل الشيخ الطيب يحملق فى ذهول وراء الصبى الهارب وهو يستعيذ بالله من جيل هذه الأيام الذى يترك الناس يضحكون عليه ويسرقون منه العجول، ثم يهربون من النصيحة المخلصة كأنها خطر داهم يهددهم، إلا أن الشيخ أفاق من ذهوله على منظر جمد الدم فى عروقه. إذ رأى أمامه مجموعة كبيرة من الزعر يتقدمهم صلاح الكلبى بنفسه وهم كاملو العدة حاملو السلاح يتلفتون فى كل مكان من الساحة الواسعة، وسمع صلاحا يقول لرجاله

لقد هرب اللعين هذه المرة، ولكننى أعرف أين أجده، فمثل هذا المأفون يريد أن يتحدانى ولا بد أن يذهب إلى المسجد يوم الجمعة القادم.

- ولم يلتفت منهم أحد إلى الشيخ الذاهل وهم يعودون بضحيجهم وعجيجهم إلى قاعة الزعر

ابتسم سالم فى وجه على المتجهم وأخذ يربت على كتفه مواسيا وهو يقول

- لقد أخبرتك يا على، إننى أعرف صلاحاً معرفة جيدة وليس مثله من يسكت على سرقة شيء يخصه، فلم تسمع تحذيرى لك .. فازداد تجهم وجه على وهو يقول :

- لا بد أن يدفع صلاح ثمن العجل، وسأجعله يندم على أنه أخذ منى هذا العجل كما لم يندم على شىء قط

فتنهد سالم وهو يقول

- حسناً وماذا تريد أن تفعل ؟

قال على وقد عادت أسارير وجهه تنطلق من جديد

- سنعد أولاً الحجرة التى فى البستان ونجلب لها كل ألوان وأنواع الملابس المختلفة ثم ننطلق إلى الرميلة وقرة ميدان فأنا فى حاجة إلى تنشيط عضلاتى من جديد

وضحك سالم وهو يقول

- لا بأس يا فتى بمثل هذه الروح ينبغى أن يواجه المرء الهزائم وربت على كتفه فى حنان وهو يقول

- هيا بنا

بدأ سالم يحس بالهدوء والاطمئنان وأيام الأسبوع تمضى دون أن يتحدث على بشىء عن صلاح الكلبى أو عن العجل، وأخذ الظن يراوده بأن عليا قد اكتفى بما حدث، وأنه صرف تفكيره إلى ألعاب الرميلة وقرة ميدان، وما بينه وبين العياق فيها من منافسة ومبارزة، إلى أن جاء يوم الجمعة فتبدد كل إحساسه بالأمان وأدرك أنه كان غافلا عما يجول فى صدر الفتى حين سمعه يقول له

- اليوم سأذهب إلى الجامع الكبير لأسوق من فيه إلى المسجد الصغير وآخذ منهم دراهمهم وأنا أعرف أن صلاحاً قد

أعد لى كميناً هناك ، ولكننى هذه المرة مستعد له

فقال سالم فى اضطراب

- ولكن يا على أنت لا تعرف الخطر الذى يتهددك بهذا العبث فنظر إليه على وهو يقول

إننى أعرف ما أريد ، وهذا يا سالم ليس عبثاً ولكننى ألوى ذنب الذئب ولن أخدع نفسى أو أخدعك فإن شئت تعال أو

فقال سالم وهو يتنهد

- بل أنا معك

وعاد الفتى يقول فى إصرار

- على شريطة ألا تتدخل فى شىء إلا إذا دعوتك

كان الشيخ حسن المناشفى يرتجف كورقة فى مهب الريح وهو يقف بين المقدمين عثمان وعباس الأشول ويحاول أن يدارى جسده المتكور بين جسديهما العملاقين حين رأى الفتى ذا الدبوس يقترب من المسجد فهمس فى صوت كالفحيح

- ها هو أيها المقدمان ، الفتى الذى يقف عند باب المسجد وفى يده الدبوس

ومر عثمان على شاربه الضخم بيده القوية وهو يقول

- أمثل هذا أخافكم أيها الجبناء ؟ هيا يا عباس

ووقف الشيخ حسن يبحث له عن مكان يختبىء فيه بعينيه الضيقتين اللتين اكتسبتا لون الدم من فرط ما كان يحس به من

قلق وهو يرقب القدمين العملاقين يقتربان من الفتى، وسمع الصوت البارد الهادىء الذى جمد الدم فى عروقه من قبل وهو يقول لهما

- إذن فقد قررتما الإقدام أخيراً هيا وأريانى ما لديكما أيها العملاقان

وقبل أن يجيبه أحدهما كان قد قذف بدبوسه إلى رأس عباس الأشول فى ضربة قوية ألقته أرضاً بينما انقض هو على عثمان يلوى جسده فى حركة مفاجئة لا يتقنها إلا عتاة مصارعى الرميلة، وقال وهو يضغط بكل قوته على ساعدى عثمان حتى أوشك شارباه أن يلتصقا بالأرض

- ادفع الدراهم يا عملاق بل ادفع كل ما معك من دراهم أو أكسر ذراعيك معاً

وبعينين جاحظتين من الدهشة والرعب شاهد الشيخ حسن المناشفى ذلك العملاق الضخم الذى كان منذ لحظات يدل بقوته يتلوى ألماً بين ذراعى الفتى، وكلما اشتد تلويه كلما ازداد اقترابه من الأرض والألم يصيح من كل جزء فى جسده، ثم سمعه وهو ذاهل يقول فى صوت مختنق

- سأدفع، خذ كل ما معى، فقط أطلق ذراعى

وحين أطلق الفتى ذراعى العملاق فجأة، تلقاه بضربة قوية رمت به إلى جوار زميله وامتدت يد الفتى تجمع ما مع العملاقين من نقود وهو يقول بصوته البارد دون أن ينظر إليه :

وأنت أيها الشيخ المأفون هات كل ما معك حتى تكف عن التجسس على الناس

وهرول الشيخ حسن المناشفى وهو لا يحس بساقيه يرمى كل ما معه حتى عمامته أمام الفتى الهازئ الساخر، الذى ركل العملاق ذى الشوارب الكثة بقدمه وهو يقول

- قل لصلاح الكلبى الذى أرسلك أن علياً الزيبق سيأخذ منه ثمن العجل

قال صلاح الكلبى فى هدوء أشد هولاً من العاصفة وهو يتفرس فى وجهى عباس وعثمان

- إذن فاسمه على الزيبق

- لكأنى أعرف وجهه وصوته، فإن فيه شيئا يذكرنى بوجه آخر أعرفه تمام المعرفة

فقال صلاح وعيناه تفيقان

- ماذا تعنى يا عثمان

فرفع عثمان رأسه وهو يقول

- إن له وجه حسن رأس الغول وصرخات حسن رأس الغول.

وقال عباس الذى ظل صامتا منذ دخل هو وعثمان إلى القاعة بأنباء هزيمتهما على يد الفتى على الزيبق

- لقد رأيت سالما تابع المقدم حسن رأس الغول يقف من بعيد وهو يرقب المعركة فى تحفز

ودمدم صلاح من بين أسنانه

- ولكن حسناً رأس الغول قد مات !

فقال عثمان مذكراً

- ولكن امرأته فاطمة أنجبت ولداً قبل أن يموت

- أتعنى أن هذا هو ابنه ؟

فقال عثمان وكأنما يتشفى من هزيمته

- لماذا لا يا مقدم، ها هو يتحداك كما تحداك أبوه من قبل

وعاد صلاح يقول فى صوت غاضب وهو يقطع القاعة ذاهباً آتياً فى سرعة

كأنما يطلب الثأر لأبيه ولكن الذى قتل أباه قادر على قتله، إن فاطمة قد اختفت من يوم موته زوجها حسن. اختفت تماماً هى وابنها وفشلت كل المحاولات للعثور عليهما، وما كان يهمنى أن أعثر عليهما أما الآن فليخرج كل واحد منكم ولتسيروا فى كل مكان بحثا عن هذا الولد أو عن أمه أو عن جده، ومن يعثر عليه أو على أثر يوصلنى إليه له جائزة كبيرة هيا انطلقوا

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

٧

الأسطى رجب

قال سالم لعلى وهما فى الحجرة التى أفردها على لنفسه فى بستان البيت

- لقد انطلقت كلاب الصيد من عقالها فما من حارة أو زقاق إلا ويرتادها الزعر يحملقون فى كل الوجوه ويستوقفون كل من يشكون فيه

قال على وهو يبتسم

- فليبحثوا ، لقد بدأت الحرب بينى وبين مقدمهم والويل للمهزوم

- دعواتى لك يا على

بل أنا أريد ما هو أكثر من دعواتك يا سالم   أريد معونتك

- إذن فاسمع يا سالم   أتعرف الأسطى رجب طباخ قاعة الزعر

إنه يجلس كما علمت كل ليلة عند دكان الشربتلى على ناحية خان الخليلى

وتقارب الرأسان واستمر الهمس يدور، وكلما مضى على فى حديثه كلما ازدادت الابتسامة اتساعا على وجه سالم وقد بدأت دماء المغامرة تغلى فى عروقه وبدأ يحس أنه يستعيد شبابه القديم، وقال حين انتهى على من حديثه الطويل

- ستنجح يا زيبق ولو أنها مغامرة شاقة ولكننى بدأت أومن أنك قادر على الكثير

ما أن انتهى الأسطى رجب من ارتشاف صحن الخشاف اليومى الذى يتقنه الأسطى على الشربتلى حتى وضع الصحن على المائدة الخشبية وإلى جواره الدراهم التى تعود أن يضعها كل مساء، ثم حيا وانصرف، وهو يفكر فيما ينتظره من واجب ثقيل فهؤلاء الزعر يأكلون كالوحوش ومقدمهم أكثر شراهة منهم، يهجمون على الطعام كأن بينهم وبينه خصومة قديمة، أو كأنهم مكلفون بالقضاء عليه وإعادة الصحون فارغة تماما، لقد اضطر كثيرا أن يتنازل عن جزء من نصيبه لمن يطرق بابه من السائلين وعابرى السبيل الذين يظنون أن فضلات مثل هذه

القاعة كفيلة بإغراقهم بالخير والبركة، وأى خير وبركة ومعظم ما يأكلونه من السحت والسرقة والاغتصاب، وتنهد الأسطى رجب وهو يهز كتفيه، ما له هو، الطعام يأتى وهو يطبخه وهم يأكلونه، أما الحساب فيوم الحساب، وكم يشفق هو على طباخ النار يوم يحشر فيها هؤلاء سيعرف يومها معنى العذاب الذى لا نهاية له حقاً

وقطع على الأسطى رجب حبل أفكاره وقع أقدام ثقيلة تقترب منه، وصوت غليظ رهيب يقول فى خشونة

- مكانك يا هذا، وأخرج ما فى جيوبك من نقود وأسرع

ولم يكن الأسطى رجب والحق يقال جباناً، كما أن النظرات القاسية التى كانت تحدق فيه من فوق اللثام الذى غطى وجه العملاق الذى يعترض طريقه ما كانت لتخيفه، فكم رأى من أمثال هذه العيون وكم سمع من أمثال هذه الأصوات الخشنة، وكان الأسطى رجب كفيلا بأن يهز كتفيه بلا مبالاة ويمضى فى طريقه لولا تلك اللطمة القاسية التى أصابته فرمته أرضاً، وأحس بنفسه يرفع من فوق الأرض كطفل صغير ويلتصق ظهره فى عنف بالحائط من ورائه ويد خبيرة مدربة تفتش جيوبه كلها

وحاول أن يقاوم فاشتد ضغط اليد التى تمسك به وتلصقه بالحائط حتى أحس أن أنفاسه تنقطع وأن الدم يهرب من جسده كله، وبدأ الدوار يملأ رأسه، وحلقات سوداء تدور أمام عينيه، وأحس أنه يهوى من حالق حين ارتفعت اليد التى تمسك به

فسقط مرة واحدة إلى الأرض، وتناهت إلى أذنيه وسط ما يملؤهما من طنين أصوات معركة وصيحات غاضبة وحين تمالك نفسه واستطاع أن يقف على ساقيه لمح صرة نقوده على الأرض وذلك العملاق الملثم الذى هاجمه يولى الأدبار مسرعاً بينما رأى فتى فارعاً باسم الوجه يتجه إليه وهو يلهث ويمسح نقطة من الدم سالت من بين شفتيه ويقول له

- هل فقدت شيئا يا والدى

ولم يكن للأسطى رجب ولد، فأحس بهذه الكلمات الحانية تتدفق إلى قلبه فتعيد إليه سلامه وأمنه، ونظر إلى الصرة الملقاة على الأرض وانحنى يلتقطها ويعيدها إلى مكانها من ملابسه وهو يقول

- لقد أنقذنى مقدمك يا بنى ولولاك لقتلنى ولست أدرى ماذا كان يريد منى هذا المجنون وأنا رجل فقير فى حالى

قال الفتى وهو يزيل بيده التراب عن ملابس الأسطى رجب

- إنه قاطع طريق وجدك وحيدا فاستهواه الظلام تعال يا والدى سأسير معك لأوصلك إلى حيث تقصد حتى لا يعاود هذا المجرم الكرة مرة ثانية

ولم يمانع الأسطى رجب فى صحبة هذا الفتى الباسم الوجه الطلق الحديث البادى القوة والبأس بل وجد فى صحبته راحة ومعيناً على قطع الطريق إلى القاعة، وسرعان ما وجد نفسه يحدثه بمتاعبه التى لا نهاية لها فى قاعة الزعر ومطبخ المقدم

صلاح الكلبي   وارتاحت نفسه لما أبداه الفتى من فهم لمشكلاته وعطف عليها، كما اشتد ارتياحه لما أحسه في لهجة الفتى وحديثه من احترام له ولمكانته من مقدم الدرك نفسه وحين اقتربا من القاعة تذكر أنه لم يسأل الفتى عن شأنه ولا حتى عن اسمه فقال

- لقد أكثرت الحديث عن نفسي يا بني دون أن أسألك حتى عن اسمك ولكن عذرى أنني لا أجد من أحدثه طوال يومي سوى الصحون والقدور

فابتسم الفتى وقال

- اسمي يا سيدى حسن، ولي مدة أبحث عن عمل أعول به أمي وإخوتي، فأنا مرة أحمل أثقالاً لتاجر وأنا مرة أخدم في مطعم من مطاعم السوق، وأنا في مرة ثالثة

فصاح الأسطى رجب وقد خطر له خاطر فجائي

- أتعرف في خدمة المطاعم يا فتى   ؟

فقال الفتى وهو يهز رأسه في قنوط ويأس

- بل إنني طباخ ماهر يا والدى، لكن الحظ يعبس لي دائما

ولم يدعه الأسطى رجب يكمل حديثه بل أسرع يقاطعه وهو يمسك بساعده

- لقد أرسلتك العناية يا بني لتنقذ حياتي اليوم مرتين، مرة حين هزمت قاطع الطريق الذى كاد يقتلني ومرة حين تنقذني من وحدتي وتعبي في مطبخ الزعر

والتقط أنفاسه وسط حماسه المتدفق ومضى يقول وهو لا يلاحظ الابتسامة الخبيثة التى ارتسمت على وجه الفتى

لو قبلت أن تعمل معى لساعدتنى على رد بعض دينى عليك وحملت عنى عبء هذا العمل الشاق، ماذا قلت يا حسن؟

ووافق حسن وابتسامته تزداد اتساعاً   وبعد قليل كان على الزيبق أن يدخل عرين الأسد

هرول الأسطى رجب على صياح المقدم صلاح الكلبى وصوت خوار العجل وهو يتمتم بألفاظ لا معنى لها، ثم عاد يجر العجل وراءه وهو يقول لعلى وكأنما يخاطب نفسه

- عجل للعشاء، ألا يشبع هؤلاء المناكيد، تذبح العجل، حاضر نذبحه، ونطبخه أيضا، ولكن سيأكله هو وهؤلاء الزعر الذين يلتهمون قطيعا كاملا   والأنكد أنه أرسل هذا الديوث عثمان ليحضر له امرأة، لماذا، لتنير له الليل   أسمعت، تنير له الليل، هذا الظالم الذى يجمع بين المال المسروق والطعام السحت ونساء الطريق

ولمعت عينا على وهو يقول

- سأذبح أنا العجل وأقطعه يا أسطى وأرح نفسك أنت

وعاد الأسطى رجب إلى تمتماته وشكوى الزمان والأيام والزعر وهو يقول :

- سأذهب إلى الكرار لأعد الأرز، وإن احتجت إلى معونة فأنا إلى جوارك

وحين اختفى الأسطى رجب كان لحم العجل يملأ القدر الكبير وعلى يشعل من تحته الحطب ويذكى النيران، وانبسطت أسارير الأسطى رجب وهو يرقب هذا المساعد النشيط ويغبط نفسه على توفيقه إليه، وقال وابتسامته تملأ وجهه

- ما شاء الله يا حسن، ما كل هذه الهمة سنستطيع أن ننتهى من إعداد العشاء قبل أن يبدأوا فى الشكوى والضجر

فقال على

- سأترك اللحم على النار حتى يستوى وأسرع إلى المنزل لإخطار أمى وإخوتى بتأخيرى حتى لا ينتابهم القلق على فما تعودوا منى أن أعود إليهم متأخرا

وازدادت ابتسامة الأسطى رجب وهو يقول

- ونعم الوفاء يا بنى، اذهب وعد سريعاً فإن رضاء الأم من رضاء الرب

ولكن علياً لم يخرج من المطبخ قبل أن يغافل الأسطى رجب ويرمى فى القدر بغرارة كاملة من الملح، أخذ يقلب محتوياتها ليمزجها باللحم مزجاً كاملا

* * *

وقال على لسالم وهو يخلع ملابسه بسرعة

- أحضر لى الملابس النسائية من الصندوق حتى أضع

المساحيق على وجهى وأرتدى الأثداء الصناعية

فقال سالم فى دهشة

ما هذا الذى تريد أن تفعله يا على

صاحبنا عثمان ذو الشوارب خرج يبحث للمقدم صلاح الكلبى عن جارية حسناء، ولست أريده أن يعود للمقدم خالى الوفاض   فازدادت دهشة سالم وهو يقول

تعنى أنك تريد

فقاطعه على وهو يعدل من وضع الشعر المستعار على رأسه

- نعم سأكون الجارية التى يقضى معها صلاح الكلبى ليلته، ولن ينسى هذه الليلة أبداً

٨

الليلة نعبث

حين شاهد عثمان الجارية الرشيقة تتأود أمامه بأعطافها وتتمايل فى مشيتها زايله قلقه الذى زامله منذ خرج من قاعة الزعر خوفا من أن يعود إلى المقدم صلاح الكلبى خالى الوفاض فمن أين له بالجوارى فى مثل هذه الساعة من الليل ولكن الحظ قد واتاه، وها هو ما كاد يبتعد خطوات عن القاعة حتى صادف هذه الحسناء المتمايلة الأعطاف أمامه تكاد تناديه بكل لفتة من لفتات يدها وبكل حركة من حركات رأسها الرشيقة. وفتل عثمان شاربه

الـخم، والتوت شفته فى ابتسامة شرهة وهو يتقدم نحوها فى خبة ويقول

- مساء الخير يا قمر، إلى أين يا سيدة الحسن والجمال ؟

ولم ينفر منه الظبى المتمايل، إنما وقفت الجارية وهى تلحظه بعين مزججة تنطق بالسحر والفتنة وقالت

- مساء الجمال يا سيد المقدمين، هل أنت المقدم صلاح الكلبى أسد الرجال

وشفعت سؤالها بحركة من كتفيها أنسته هذا الصوت الىريب الناشز، ولكنه همس لنفسه أن الحلاوة لا تكتمل أبداً، وأن الكمال لله وحده وازداد اقترابا منها وهو يقول

- أنا رجله الأمين وساعده الأيمن، ماذا تريدين منه يا ربة احمال والخفر

وأجابته ضحكة ناعمة ملساء انزلق لها قلبه وخفق، وعادت احسناء تقول وهى تكشف له عن وجه جميل زانته المساحيق وانبعثت منه رائحة الطيب والعنبر

- لى أخ حيرنى بغلظته وقسوته، كلما جاءنى خاطب قال هى كتعاء، هى لكناء ليبعدهم عنى وأظل أخدمه طول العمر ومصمص عثمان شفتيه، وعاد يفتل شاربه الكث وهو ينول وعيناه تلمعان

- هذه شكوى لا بد أن يسمعها المقدم بنفسه . هيا بنا إليه.

وحين سارت أمامه تتثنى وتتأود فرك كفيه وهز رأسه وهو يهمس لنفسه

- المقدم صلاح حظه من السماء رزقه دائماً تحت قدميه .

ومصمص شفتيه وهو يتأمل العود اللدن الذى يخطر أمامه ويهمس

- وأى رزق يا مقدم أى رزق

كان سرور صلاح الكلبى بالجارية يفوق ما كان يتصوره عثمان ، فقد أفرد لها مكاناً إلى جواره ومضى يلتهمها بنظراته التهاما وهو يستمع إلى شكايتها التى مضت تحكيها فى جمل متقطعة وهى لا تكف عن التأود والتوجع والتثنى وهو بين الحين والحين يصفق وهو يصرخ

- أين هذا الأسطى الملعون ؟ يا رجب أين العجل ؟ اللحم يا رجب فقد طابت الجلسة ووجب الطعام

ويأتى صوت الأسطى رجب من بعيد متخاذلاً مضطرباً وهو يقول

- حالاً يا مقدم حالاً العجل أوشك على النضج

ثم يعود المقدم صلاح إلى الاستماع إلى حديث الفاتنة وهو يطيب خاطرها ويربت مرة على خديها وأخرى فوق شعرها وثالثة عند ذراعها وفى كل مرة تزداد لمساته جرأة ، وتزداد عيناه الشرهتان لمعاناً كما يزداد نداؤه على الأسطى رجب إلحاحاً إلى أن صاح فى عثمان فجأة فى صوت كالزئير

- قم يا عثمان واحضر هذا الأسطى الملعون فالضيفة جاعت ، وهذا الكلب يتلكأ فى إحضار الطعام

وكاد عثمان الذى اتجه إلى باب القاعة متثاقلا يصطدم بالأسطى رجب الذى اندفع إلى القاعة يحمل بين ذراعيه إناء واسعا مليئا بقطع اللحم يتصاعد منها البخار وتفوح منها رائحة ذكية أسالت لعاب عثمان الذى غمز بعينه فى مداعبة وهو يقول

- تأخرت يا أسطى   ما كل هذه الرائحة العطرة

ولم يرد عليه الأسطى رجب بل مضى فى تمتماته غير المفهومة يندفع بحمله الثقيل حتى وضعه أمام المقدم صلاح والجارية ثم وقف يفرك كفيه فى قلق ، ويجول بعينيه الضيقتين فى ضيق   وقد بدا لعثمان كفأر فى مصيدة يتلمس عبثا طريق الفرار   ومد صلاح الكلبى يده إلى قطعة من اللحم فرفعها وقدمها إلى الجارية وهو يقول

- ذوقى يا حلوة هذا اللحم ، فهو لحم عجل من بلدة الطيبة أحسن من يربون لحم العجول   خذى هذه القطعة و

وخيل لعثمان أنه لمح ابتسامة غريبة على شفتى الجارية المصبوغتين وهى ترد يد المقدم فى رقة وتقول

- بل هو لك أنت أولاً يا مقدم ، وهل يجوز أن تأكل الجارية قبل سيدها

واهتز صلاح طربا وهو يدفع بقطعة اللحم إلى فمه ويقول :

- أذوقه على وجهك أيتها الحبيبة

ولكن قطعة اللحم ما كادت تدخل فمه حتى جحظت عيناه، وهب واقفاً وهو يسعل بشدة بينما اصفر وجه الأسطى رجب واشتدت حركاته اضطراباً ورمى المقدم صلاح اللحم من فمه وهو يسب ويلعن والسعال آخذ بخناقه لا يتركه وعيناه تزدادان احمراراً وتملؤها الدموع واندفع عثمان نحو المقدم يسنده وهو يقول في ذعر

- سلامتك يا مقدم سلامتك

بينما هبت الجارية من مكانها وأسرعت إلى جواره وهي تقول في جزع

- ما لك يا مقدم ما لك ؟

والأسطى رجب يلطم وجهه، والزعر يتحركون في قلق والمقدم صلاح يعثر على أنفاسه الضائعة بعد عناء، فيندفع إلى الأسطى رجب ويلطمه لطمة تلقيه في ركن من أركان القاعة وهو يصرخ في غضب مخيف

- ما هذا أيها الكلب ؟ هل صنعت اللحم بماء البحر

وقفز الأسطى رجب من مكانه وهو يلوي يديه بحركات مضحكة بينما تخرج من فمه أصوات لاهثة متتابعة متقطعة ينطقها بصوت باك وهو يقول

ذقنه أول مرة.. فوضعت ماء. ثم ذقنه ثاني مرة فازداد ملوحة .. فوضعت ماء وكلما زدته من الماء زاد من الملوحة.

لست أدرى من أين أتى له كل هذا الملح   لعل العجل كان يأكل ملحا مع البرسيم

وصرخ فيه المقدم صلاح الكلبى

- اذهب من أمامى أيها المخرف   هل يأكل العجل ملحاً ؟

اذهب وخذ معك هذا السم الناقع واحضر لنا فاكهة نسد بها جوعنا وإياك أن يظهر فيها الملح

وقالت الجارية فى حنان

- لا تغضب يا مقدم، فداك العجل وألف عجل

ثم ابتسمت وتأودت وهى تقول

- ألا أكفيك أنا

وعادت الابتسامة تدريجيا إلى وجه المقدم وهو يمد يده إلى خصر الجارية فيجذبها إليه وهو يقول

- بل أنت عندى الكفاية

وأجلسها إلى جواره من جديد وراح يهمس إلى أذنيها بكلام لم يسمع منه عثمان شيئا وإن كانت هى تتأود له وتتثنى وتضحك بهذا الصوت الغريب الذى لا يناسب كل هذا الجمال

ولكن عثمانا ما له ؟ إن لله فى خلقه شئوناً   والخد الجميل تزينه الشامة، وهذا الصوت يزيدها حلاوة. ولكن العجل باظ، باظ كله وضاعت أكلة العشاء   الفاكهة والجارية للمقدم. وعثمان عليه أن يبحث مع الآخرين على ما يسكت صراخ بطونهم العاوية

وعاد الأسطى رجب مهرولاً وفي يده صحن كبير مليء بالتفاح وهو لا يزال يتمتم لنفسه كلاماً لا يفهمه أحد، ووضع الصحن ونظر إلى عيني المقدم وارتجف، وعاد يتلوى وهو يقول متعثراً

- لا بد أن البرسيم كان مسقياً بماء الملح والعجل أكل البرسيم، واللحم أصبح بطعم الملح وصاح فيه المقدم صلاح فأسرع يهرول خارجاً وهو يتعثر ويكاد يقع، وابتسم عثمان لمنظره البائس، كما ازدادت ابتسامته والمقدم يختار تفاحة يدفعها إلى الجارية وهو يقول

- هذه التفاحة تشبه خديك، قضمة من تفاحتي لك، وقضمة من تفاحتك لي

وسعل عثمان وهو يمر على يده بشاربه فالتفت المقدم صلاح نحوه، وصاح

- لماذا أنت واقف هكذا كالصنم، خذ الرجال واذهب لتبحث لهم عن طعام للعشاء

وابتسم عثمان وهو يلتفت إلى الرجال ويقول

- هيا بنا يا رجال فما زال الوقت متسعاً لنصل إلى دكان الأسطى عباس وعدسه العظيم هيا بنا

وبينما كان يخرج وراء الرجال جاءه صوت المقدم صلاح وهو يصيح بهم

- واحذروا هذا العايق الجديد، افتحوا عيونكم جيداً وتذكروا أن من يعثر عليه له مكافأة ضخمة

ما كـاد البـاب يغلق خلف الزعـر ، حـتى اندفع المقـدم صـلاح الكلبى نحو الجارية فى شوق وهو يقول

أخيراً أيتها الجميلة ، نحن وحدنا

ودفعته الجارية فى رفق وهى تهمس

- الليل طويل يا مقدم وما زلنا فى أوله

وازداد البريق فى عين صـلاح ، وعـاد يندفع إليـهـا مـرة أخـرى وهو يقول فى صوت غليظ

- ما لنا والليل نحن وحدنا وهذه الليلة لنا

فعادت تدفعه من جديد فى رفق وهى تبتعد عنه وتقول فى صوت متأود أطار ما بقى عند صلاح من اتزان

- لماذا العجلة يا مقدم هل تخاف أحداً ؟

وغدا صـوت صلاح الكلبى كالعواء وهو يمد أصابع كـالمخالب يمسك بها كتفيها فى عنف وهو يقول

أنا لا أخـاف إلا عينيك يـا جميلة ولا تقـولى مقـدم ، بل أنا لك صلاح فقط قولى صلاح

ولم تهرب منه الجارية ، بل قالت فى هدوء

أمرك يا صـلاح ولكن لى حسبـة بسيطة من المال عندك

وهمس صلاح وهو يلتهم رائحة الطيب تنبعث من جسدها

- حسبـة ، أى حسـبة وأى مـال عليك الأمر وعلى الطاعة قولى ماذا تشتهين ؟

ولم يحس صلاح بنفسه إلا وهو ملقى فوق الأرض والجارية تقبض على رقبته فى قسوة بينما تشل حركة جسده كله بيدها الأخرى فى مسكة لا يتقنها إلا عتاة المصارعين، وكان صوتها خشناً أجشاً حين تحدثت فى لهجة باردة هازئة تقول

- ثمن العجل الذى أخذته منى بالمكر والخديعة يا لص

لقد سممت لك العجل لكى لا تهنأ بلحمه، ولكن عليك أن تدفع ثمنه وارتج على صلاح وأخذ يصيح وهو يتخبط بين ذراعين مفتولتين كأنهما من الصلب الذى لا يلين

- ما هذا من أنت ؟

وكاد قلبه يكف عن الخفقان حين جاءه الصوت الهادئ البارد بالرد الذى كان يخشاه والذى حدثته به نفسه منذ وجد نفسه طريحا فوق الأرض

- أما عرفتنى بعد، أنا هو العايق الجديد الذى أرسلت رجالك فى البحث عنه، أنا على الزيبق يا صلاح وأنت الآن فى يدى أصنع بك ما أشاء أيها الفاسق يا زير النساء

وفتح صلاح فمه ليصيح فلا شك أن رجاله لم يبتعدوا كثيرا عن القاعة، ولكنه قبل أن يخرج من فمه صيحة واحدة كانت الكمامة التى وضعها على تكاد تكتم أنفاسه بينما أخذت أصابع مدربة تشد وثاقه فى عنف وشدة، ورأى وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما ذلك الشيطان المتنكر فى ثوب امرأة يجمع كل ما فى القاعة من ثياب وسلاح، ثم يتناول صرة المال

الضخمة من صندوقه الكبير ويزنها في يده ثم يقربها من عينيه وهو يقول

هذا هو الجزء الأول من ثمن العجل يا مقدم

وجاءته الضحكة الهازئة الباردة والباب يصطفق في خفة وشيطان يرتدي ثوب امرأة ويحمل معه ماله وثيابه وسلاحه

٩

لحية المقدم

أغرق سالم فى الضحك وهو يسمع قصة على وما فعله بصلاح، وهتف بين ضحكاته المتواصلة

- هذه أسود ليلة قضاها صلاح الكلبى

فقال على وهو يخلع تنكره بسرعة ويتجه إلى إناء مليء بالماء يزيل فى مائه أصباغ وجهه

- ولكنها لن تكون الأخيرة يا سالم

وعاد سالم يضحك من جديد فارتسمت ابتسامة على وجه على وهو يقول :

ليتك رأيته ورجاله يخبطون على الباب فيتأوه بصوت تكتمه الكمامة فيظن رجاله أنها تأوهات الجارية فيتضاحكون، فيسمعهم هو فيزداد أنينه ويزداد ضحكهم، إلى أن طال عليهم الأمر فكسروا الباب ليجدوه فى أشنع حال   لقد ظللت أضحك وأنا فى مكمنى فى غرفة الكرار أرقب القاعة من طاقة هناك حتى خشيت أن يسمعوا صوت ضحكاتى

وكف سالم عن الضحك وهو يقول فى صوت جاد تشوبه رنة خوف

- أما كان الأسلم أن تسرع بالهرب حتى لا يكتشفوا أمرك.

- ما كنت أستطيع الهرب حتى أعرف ما يدبر صلاح، فبينما كان رجاله يفتشون كل مكان فى القاهرة كنت أنا أسمع حديثهم وصياحهم، وأشهد بعينى غضبة صلاح الجنونية التى جعلت عثمانا ينصحه بحمام السوق ليهدئ من أعصابه الثائرة.

وابتسم سالم وهو يقول

- إن حمامات العالم كله لا تكفى لإزالة ما على صلاح من أقذار

- بل لقد سعى بذهابه إلى الحمام إلى نكبة أخرى ستزيد جنونه   فأجفل سالم وهب واقفا وهو يقول :

- ماذا تعنى يا على

- أعنى أننى أريد أن أنكبه فى بدنه فيستجير ولا يجد من يجيره. أريدك أن تذهب إلى صاحب الحمام منذ صباح الغد الباكر وقبل أن يصل إليه رسول صلاح الكلبى وأرغمه على أن يقول له أنه مريض وأنه سيرسل ابن أخته إلى الحمام بدلاً منه ثم إياك أن تتركه لحظة حتى أصل إليكما

وسأل سالم فى دهشة

- ماذا ؟ أعتقل صاحب الحمام   ولكن ماذا ستفعل أنت

فقال على فى صوته الهازئ البارد

- سأكون أنا أبن أخت الحمامى، وسأعد لصلاح حماماً لم يشهد مثله من قبل

كان صلاح الكلبى وهو فى الطريق، إلى الحمام وسط رجاله يتذكر ما حدث له بالأمس ويتميز غيظاً وحنقاً   هل هان أمره حتى يلعب به مثل هذا الصبى الأمرد الذي يبدو كالنساء نعومة وليناً، ولكنه تذكر مسكته الرهيبة ويده الثقيلة وهى تضغط على رقبته فارتجف   وتلفت حوله خوف أن يكون رجاله قد لاحظوا هذه الرجفة التى عرت جسده، ولكنه اطمأن حين رأى وجوههم الصارمة وهى تنظر له فى ولاء، واشتد اطمئناناً وهو يلحظ أن القوم فى السوق يندفعون واقفين حين يمر من أمام حوانيتهم وعيونهم تنطق بالرهبة والخوف   ولكنه عاد يسأل نفسه، هل ستظل هذه العيون تنطق بالخوف حين يعرف أصحابها ما حل به على يد هذا الغرير الأحمق النكرة الذى لا

يعرفه أحد   لقد أفسد عليه العجل ولحمه، كما أفسد عليه الليلة وبهجتها، وهو أخيراً سلبه كل ما كان فى القاعة من مال وثياب وسلاح، بل لقد سلبه ثقته فى نفسه وقوته حين تركه عاجزا مكمماً يخبط الأرض بقدميه فى يأس   وعاد جسده يرتجف مرة أخرى، ولكنها كانت رجفة الحنق والغضب   لو أمسكه مرة أخرى بين يديه لحطم جسده ومزقه تمزيقاً   وقطع عليه تأملاته صوت عثمان وهو يقول

- هذا هو الحمام يا مقدم صلاح   لقد أخلاه صاحبه هذا الصباح لنا وأرسل ابن أخته ليكون فى خدمتنا   ثم فتح عثمان الباب بدفعة من يده، ودخل المقدم صلاح ورجاله لتستقبلهم روائح الحمام الدافئة الممتزجة ببخور عطر يهدهد الأعصاب ويريح النفس   وقال الصبى الصغير الذى خرج لاستقبالهم بابتسامة لطيفة وهو يحمل فى يده مناشف ناصعة البياض

- مرحباً بسيد الرجال   لقد نظفت الحمام، وأحكمت البخار، وبخرت المناشف فليس كل يوم يؤنسنا بتشريفه سيد الرجال وبطل الأبطال

وأعجب حديث الفتى صلاحا فربت على خده الأمرد مبتسما وهو يقول

- هل تعرفنى يا فتى   ؟

فقال الفتى وهو ينظر إليه بانبهار وإعجاب

- ومن لا يعرفك يا مقدم   هل يجهل أحد المقدم صلاح

الكلبى من يرتعد لذكر اسمه عتاة اللصوص، إننى أريد حين أكبر أن أصبح من خدمك ومشاديدك يا مقدم

واستهواه صوت الفتى الناطق بالإكبار فدفع إلى يده درهماً، ثم تقدم إلى داخل الحمام وهو يقول لعثمان

- افتح عينيك يا عثمان ولا يغادر واحد منكم مكانه

وأعانه الصبى فى مهارة على خلع ملابسه، ثم قاده إلى المغطس وانساب البخار وارتفع الماء الدافىء ليخلل جسده كله، وأحس بنفسه يستريح ويهدأ، وأغمض عينيه فى استكانة والفتى يمر بالليفة فوق ظهره فى نعومة وسرعة ومهارة وجاءه صوت الفتى اللطيف يحكى فى إعجاب وتقديس ما يتناقله الناس عن أعماله ومغامراته التى أوصلته إلى مكانه المرموق واسمه المرهوب كان الحديث لطيفاً رقيقا، فيه الكثير من الأكاذيب والمبالغات الزائدة، بل فيه الكثير من الوقائع التى لم تحدث أصلا، ولكنه كان حديثاً شيقاً على أية حال يرضى صلاحاً ويعيد إليه ثقته بنفسه وقدراته وقال الفتى

- وهكذا ترى يا مقدم أنه لا حديث لنا معشر الصبيان سوى بطولة صلاح الكلبى وفروسيته وقدرته على أن يهزم الإنس والجان، وأن يرهب الأحياء والأموات على السواء ونقول لو شاء سيد الفرسان أن يكون مكان العزيز لفعل ولكنه لا يريد أن يجلس جلسة العجائز فوق العرش وإنما هو يريد حياة

النضال ويطرب للصراع والقتال

وزاد الفتى من تدفق البخار وقال وهو يضمخ لحية صلاح بالطيب

لقد انتهت مهمتى يا مقدم وسأتركك بالحمام وحين تنتهى منه استدعنى لأقوم بالتكبيس والتدليك ولكن ألا تحب أن أدعو الرجال فالحمام واسع والماء وفير والصابون كثير، وسيدعون لك أن تشركهم فى هذه النعمة

وكان قلب صلاح قد تفتح ونفسه قد هدأت فهمس

- ولكن من سيحرس الباب

فقال الفتى وهو يضع مناشف جديدة فوق مائدة نظيفة إلى جوار المغطس

- أنا يا مقدم، ومن يفكر فى الاقتراب من الحمام لو عرف أن البطل صلاح هنا

وابتسم صلاح الكلبى وهو يقول

- حسنا، اذهب وقل لهم يدخلون، ولكن لا تغادر أنت الباب حتى أطلبك

سعد عثمان حين سمع حديث الفتى الظريف ابن أخت الحمامى فقد كان صوت خرير الماء يأتيه من الباب المغلق فيتخدر جسمه كله ويحس بالرغبة الشديدة فى أن يدفن نفسه ومتاعبه فى وسط هذا الماء الدافىء وقال للرجال :

- هيا ندخل فقد أمر المقدم، أما أنت يا فتى فلا تغادر الباب أبداً، ونداء واحد منك كفيل بأن تجدنا كلنا إلى جوارك

وقال له الفتى وهو يناول كلا منهم منشفة نظيفة

- لا تخش شيئا يا مقدم عثمان، واخلعوا ملابسكم فى المتكأ الجوانى إلى جوار ملابس المقدم واستمتعوا ببخار الحمام ومائه الدافىء، وسأحضر لكم بعد حين العطر والطيب، والصابون ذا المسك والحناء الممزوجة بالطيب

وما أن خلع المقدمون ملابسهم ودخلوا إلى الحمام حتى أسرع الفتى يجمع الملابس والأسلحة فى صرة واحدة، ثم عمد إلى قنديلين زجاجيين فكسر زجاجهما ودقه وأخذ الزجاج المدقوق ودخل إلى الحمام ولم يلتفت إليه أحد وهو يدخل، ولم يلاحظ المقدمون حركاته السريعة وهو يرش بلاط الحمام كله بالزجاج المدقوق، وإن كان منهم من رآه فلم يشك أحد فى أمره وما أن انتهى من تغطية البلاط كله بقطع الزجاج الحادة حتى أسرع خارجاً وحمل صرة الملابس والأسلحة إلى خارج الحمام ووقف ينتظر وسرعان ما رأى حماراً يسير بحثاً عن زبون فصاح به

- يا معلم هل تؤجرنى حمارك حتى أوصل هذه الثياب إلى المغسل وأنت تنتظرنى هنا ولك عشرة دراهم

واقترب الحمار بحماره وهو يحمد الله على هذا الزبون المتسامح فى الأجر ويحمد هذا الصباح المبكر وقال له الفتى

وهو يضع الصرة فوق الحمار

اسمع يا معلم، إن فى هذا الحمام المقدم صلاح الكلبى ومعه جماعة من المقدمين، فلو قمت لى بخدمة لأجزل لك هو العطاء، كما أعطيك أنا دينارا عند عودتى بالحمار

فقال الحمار وهو يزداد إيماناً بأن سعده قاده هذا الصباح إلى هذا الحمام الذى يتدفق منه الرزق

أنا فى الخدمة أيها الغلام، ومن غير دراهم أو دينار، بل من أجل وجهك السمح هذا

فقال الغلام

- بعد نصف ساعة، ادخل من هذا الباب وقف عند الباب الداخلى وقل بأعلى صوتك، يا صلاح إن غلامك على الزيبق يهديك السلام ويطلب منك أن تحاسبه على ثانى دفعة من ثمن العجل وصاح الحمار فى دهشة

- ثمن العجل

فقال الفتى وهو يدفع الحمار أمامه يحمله الثقيل

- إنه سيفهم ويحسن لك الجزاء ولا تنس أننى سأعطيك ديناراً كاملا

وفرك الحمار كفيه وهو يرقب الفتى يختفى من أمامه هو والحمار وهمس لنفسه

- نزعق ننادى بأعلى صوت ما له الدينار هذا صباح السعد .. ننادى إلى المساء كمان

* * *

وما مرت النصف ساعة حتى كان الحمار ينادى بأعلى صوته بما لقنه له الغلام وما كاد صلاح يسمع النداء يتكرر حتى أحس بقبله ينقبض وصاح وهو يندفع من الماء مسرعاً

- على الزيبق حتى هنا على الزيبق أسرعوا يا رجال.. ولكنه ما كاد يخرج من الماء إلى البلاط حتى انزلق ووقع فوق ظهره وهو يشهق شهقة ما لبثت أن تحولت إلى صراخ إذ انغرس الزجاج المحطم فى جسده كله وحاول أن يعتدل فدخل الزجاج جنبه ومزق جلده بدأ دمه يسيل من كل مكان فصاح برجاله محذرا

- احذروا الزجاج يملأ البلاط كله وأسرعوا

وبينما كان الرجال يتدافعون فى حذر ويحاولون الاقتراب من مقدمهم وهم يضعون المناشف مكومة فوق الأرض لتحمى أقدامهم من الزجاج المتناثر، عاد صوت الحمار يملأ القاعة وهو ينادى

- يا مقدم صلاح، غلامك على الزيبق يهديك السلام ويطلب منك أن تحاسبه على ثانى دفعة من ثمن العجل

وكادت دموع القهر والغيظ تقفز من عينى المقدم صلاح وهو يقول

- إنه على الزيبق مرة أخرى آه لو طالته يدى

ثم التفت إلى رجاله وقال فى ألم

- احملونى إلى القاعة واكتموا الأمر وأسرعوا

ولكن صرخة عثمان جعلته يجفل ، ورفع رأسه ليراه داخلا وشاربه يهتز فى غضب ويقول

لقد سرقت الملابس كلها ، كل الملابس وكل الأسلحة اختفى الغلام

وان صلاح الكلبى وقد ازداد خنقه وغضبه وقال

إذن أسرع والتف بالمناشف واحضر لنا ملابس من القاعة وحاذر أن يعرف أحد شيئا مما حدث هنا ، أفهمت

وحين سمع الحمار اللغط والصياح ينبعثان من الحمام إثر ندائه شك أنه وقع ضحية احتيال ، ولكنه حين رأى عثمانا يندفع عاريا إلى المتكأ الجوانى ثم يعود صارخا بأن الملابس قد سرقت أدرك حقيقة الأمر فاشتد ذعره ورعبه ، وأسرع خارجا من الحمام وهو يقول

المسألة باظت ، لنهرب من هنا بجلودنا قبل أن تسلخ

ولكن ما كاد يخرج من باب الحمام حتى رأى حماره واقفاً أمام الباب وهو ينهق مسرورا برؤيته فأسرع يمتطيه وهو ينخسه صائحا

أسرع يا عزيز وعوض الله فى الدينار حكاية العجل يظهر أنها تمام حا

واندفع حماره يبرطع مسرعا وصيحات المقدمين تتبعه من داخل الحمام

١٠

شميعة اليهودى

طال غياب على، وازدادت حركات الحمامى قلقا، وكان منذ الصباح ما فتىء يروح ويجىء فى الحجرة كالحيوان المحبوس، ولولا نظرات سالم المهددة ودبوسه الثقيل لانقض على الباب وفتحه وانطلق هارباً ولكن عدوى القلق كانت قد بدأت تسرى إلى سالم، وبدأ يلوم نفسه على تركه لعلى يتمادى إلى هذا الحد فى مغامراته مع صلاح الكلبى إن علياً صغير وليس هو من رجال صلاح حقاً هو شجاع ذكى وماهر ولكنه صغير السن قليل التجربة وتنهد

سالم وهو يشير بدبوسه مهددا الحمامى الذى عاد يحاول الاقتراب من الباب وهو يطمئن نفسه بأن يهمس لها

- هو ابن حسن رأس الغول، وليس مثله من يؤخذ بسهولة

وعاد ينظر إلى الحمامى فى تهديد، فتحول هذا عن الباب وهو يتمتم فى غيظ وغضب   وفجأة فتح الباب ودخل على مهرولاً   وأحس سالم أن عبئا ثقيلا يجثم على كاهله قد انزاح، بينما وقف الحمامى يحملق فى الصبى الصغير الذى أخذ يقول له فى لهجة آمرة صارمة

- اسمع أيها الرجل، عند العصر اذهب شاكياً إلى قاعة الزعر، وقل لصلاح أنك أرسلت له ابن أختك ليخدمه فى الحمام، ولكنه لم يعد حتى العصر، وعندما تحاملت على نفسك رغم مرضك وذهبت تبحث عنه فى الحمام   وجدت الحمام قد سرق، وابن أختك مبنجا ومربوطا فى قاعة بعيدة مهملة وهو يكاد يموت من الذعر   وطالبه بتعويض جسيم. أفاهم أنت؟

وعاد للحمامى هدوؤه وانفثأ غضبه فها هو هذا الفتى المجهول يبرئ له ساحته أمام صلاح الكلبى، بل ويجعله مظلوماً لا ظالما وشاكيا لا مشكوا   وبعد فمن يدرى حقيقة الأمر إلا هذا الغلام الآمر وهذا الفارس العابس العجوز، صاحب الدبوس الضخم والنظرة المرعبة. وازدادت نفس الحمامى هدوءاً ورضى، وعلى يخرج من صدره صرة صغيرة ترن من داخلها النقود ورمى بها أمامه وهو يقول

- وهذا لك حتى لا تفتح فمك

وأردف سالم وهو يلوح بدبوسه

- أما إن فتحت فمك فسأسكتك إلى الأبد

وانصرف الفارس العجوز، والصبى ذو الصوت الآمر، ووقف الحمامى يهز الصرة فى يده لحظات، ثم أطرق برأسه وهو يقول

- آخر الأمر أنا الكسبان فما فى الصرة يساوى الحمام وما فيه

* * *

وقال سالم وهما يمضيان معا

- لقد خفت عليك هذه المرة يا على، وأرى أن نكتفى بما حدث حتى الآن فما كل مرة تسلم الجرة

فابتسم على وهو يقول

- عندما تعود إلى الحجرة التى فى البستان ستجد باقى مال صلاح الكلبى خذه ووزعه على العائلات المحتاجة التى أفقرها هذا الباغى بظلمه وتجبره، واجمع الملابس والسلاح معاً فسوف نبيعه ونوزع ثمنه هو الآخر على الفقراء أما أنا فماض إلى المطبخ فما أظن الأسطى رجب إلا مندهشاً من غيبتى عليه

وترك على سالما يخبط كفاً بكف بينما انطلق هو مسرعا إلي قاعة الزعر وهو لا يخشى افتضاح أمره فمن يراه الآن لا يمكن أن يربط بينه وبين الصبى الصغير حامل المناشف فى حمام السوق .

وكان الأسطى رجب غاضباً بالفعل، وقد استقبل علياً بسيل من التمتمات التى لا معنى لها، وحكى له فى كلمات متقطعة قصة العجل الذى شرب من البرسيم المسقى بالملح وهو يخبط كفا بكف، ثم تنهد فى نهاية حديثه وأعلن أنه سيسامح علياً إن وعد أن لا يغيب مرة أخرى ثم قال

اذهب إلى الكرار يا بنى ربنا يهديك، واحضر السمن والعدس من هناك فقد حرم المقدم صلاح اللحم على القاعة من ساعة حكاية العجل

ولم ينتظر على حتى يفرغ الأسطى رجب من تمتماته بل انطلق مسرعا إلى الكرار فقد كان يريد أن يقف على ما يدور فى القاعة، وما كاد يلصق عينيه بالطاقة حتى رأى صلاحاً وهو نائم فوق بطنه يتأوه فى صوت مسموع ويصرخ من الألم بسبب الزجاج الذى التصق بكل جزء من ظهره وحمد على للأسطى رجب أن أرسله إلى الكرار حين سمع صلاحاً يقول لعثمان

- إبحث لى عن طبيب يا عثمان، أكاد أموت يا ناس احضروا لى شميعة اليهودى

فقال عثمان

- ولكن يا مقدم شميعة لا يستقر فى مكان فهو ينتقل من حى إلى حى فلا يكاد يعثر عليه أحد

وصاح به صلاح فى عنف والآلام تشتد عليه :

- أحضره من أى مكان، انقب عليه الأرض أو اصعد إليه فى السماء   احضره والسلام

وحين انطلق عثمان مهرولاً، أسرع على يتسلل من الكرار محاذراً أن تقع عليه عينا الأسطى رجب ومضى يركض مسرعاً إلى البستان والفكرة التى نبتت فى رأسه وهو يستمع إلى صيحات صلاح الكلبى تختمر وتنضج

وقال سالم فى دهشة بعد أن انتهى على من حديثه

- شميعة اليهودى ؟

فقال على وهو ينقب فى صندوق الملابس ويخرج الأدهنة والشعر المستعار

- نعم يا سالم، اذهب فأحضره هو وأدواته وكتبه ومفتاح دكانه، واحمله معصوب العينين إلى هنا، وسأتنكر فى زيه وأحمل كتابه وألبس عويناته وآخذ حقيبته وأجلس فى دكانه

وقال سالم معترضا

- ولكن يا على

ولكن علياً أشار اليه فى ضجر وهو منهمك فى رسم التجاعيد على وجهه وقال

- احتفظ به أنت هنا حتى أعود اليك، ولا تخش شيئاً فأنا أعرف ما أفعل

* *

التقط عثمان أنفاسه اللاهثة حين وجد دكان شميعة

مفتوحا فاندفع داخلا وهو يصيح

يا شميعة يا شميعة

وجاء صوت اليهودى المتهالك متقطعا واهناً وهو يقول

مالك يا بنى ماذا تريد من شميعة ؟

قر وكلم المقدم صلاح الكلبى مقدم الدرك

ورفع شميعة وجهاً غضنته السنون وملأته لحية شيباء لا تخطىء العين فيها آثار الشحوم والدهون وبقايا الطعام، وأحس عثمان معائه تتلوى وهو يشم الرائحه الخبيثة التى تنبعث من هذا العجوز القذر ذى النظارات السميكة التى تتراقص فوق أنف طويل معقوف، ولكنه تحامل على نفسه، وكتم إحساسه بالامتعاض وهو يقول

- قم هات أدواتك فالمقدم يتألم

وتلكأ اليهودى وهو يلم كتابه ويعدل نظارته ويتحامل على نفسه ويقول

- المشوار إلى القاعة بعيد، وأنا يا بنى كبير ومتقدم في السن و ولم يتركه عثمان يكمل حديثه بل دفعه أمامه دفعاً، وظل يسوقه سوقا فى الطريق وهو يبعد وجهه عنه حتى لا تتسرب رائحة ثيابه الكريهة إلى أنفه وما أن وصلا القاعة حتى دفع الباب بيده وساق اليهودى أمامه وهو يقول

- هو يا مقدم، ولو أننى لست أدرى أى نفع فى هذا العجوز المتهالك ..

- إن أنفاسٍ هؤلاء الرجال تزيد فى ألمك يا مقدم، قل لهم
ولكن صلاحاً لم يكن يسمع له إنما كان يصرخ بأعلى صوته
وكأنما وصل صبره إلى نهايته

- أسرع يا شميعة، إن ظهرى يحترق، سأموت ويتسمم جسدى وتحرك شميعة كاللولب، فسرعان ما كشف عن ظهر المقدم وفتح حقيبته وأخرج ملقاطه ومد يده يخرج قطعة من الزجاج من لحم المقدم صلاح فصاح وشميعة يلتقط قطعة زجاج أخرى ثم يشدها بالملقاط فى قسوة

- اخرجوا، اخرجوا كلكم واتركونى فى حالى

وحين خرج الرجال واحدا إثر الاخر من القاعة وقف عثمان وهو يقول فى عناد

- سأبقى أنا هنا لن أخرج

وانهمك شميعة فى عمله كأنما لم يسمعه، ثم قال وهو يرفع الملقاط وبه قطعة زجاج ملوثة بالدم

- ولماذا تبقى أنت، اخرج واتركنا فى عملنا

تأوه صلاح فى ألم، ولكنه قال من بين أسنانه المضمومة فى عنف

- بل يبقى

وقال شميعة

- لا بأس، فليبق.. فلن يضر وجوده فى شىء ولكن فليساعدنى بدلاً من وقوفه هكذا كالطود..

وقال عثمان متلهفا وهو يرقب معالم الألم تزداد على وجه صلاح الذى امتلأ بالعرق

كيف، أخبرنى ماذا أفعل وسأنفذ ما تطلب فى الحال

- لابد من مراهم تخفف من ألم المقدم، أم تريده أن يتعذب كلما أخرجنا قطعة من الزجاج من ظهره

وارتفعت صرخة من صلاح وشميعة يعالج قطعة صغيرة من الزجاج لصقت باللحم، فقال عثمان

- أين هذه المراهم وسأحضرها فى الحال

ولم يلحظ عثمان الابتسامة التى ارتسمت على شفتى اليهودى وهو يخرج ورقة وقلما ويكتب أشياء بخط متداخل ويقول

- اذهب بهذا إلى أحد الاجزائية وقل له يركب هذا المرهم بنفسه ثم أحضره فى الحال

والتقط عثمان الورقة من يد اليهودى وأسرع يجرى خارجاً وصرخات صلاح تكاد تمزق قلبه تمزيقاً ينبغى أن يحصل على هذا المرهم بأسرع ما يمكن

وعندما ذهب المقدم عثمان وصفق الباب خلفه، وضع شميعة الملقاط وشمر عن ساعديه ثم وقف عند رأس صلاح دون حركة، فالتفت اليه صلاح وقال

- لماذا أنت ساكت يا شميعة، هل تنتظر عودته

- أنا لا أنتظره يا مقدم، وإنما أنتظر أن نصفى الحساب الذى

طال بيننا

ووجف قلب صلاح، وتحول رأسه يحدق فى وجه شميعة متفرساً وهو يقول فى صوت متردد

- أى حساب، أنت لم تفعل شيئاً تستحق عليه أجراً بعد

وجاءه الصوت الهازء البارد الذى يعرف، جاءه كاللطمة العنيفة تهز كيانه كله، وكان يقول

- حساب العجل يا مقدم

وصرخ صلاح وهو يندفع محاولا الوقوف وقد نسى آلام ظهره وجنبه

- على الزيبق ؟

وامتدت اليد الفولاذية تطبق عليه وتعيده إلى مكانه على الفراش فهمس فى تخاذل ورعب

- أنا فى عرضك

وعاد الصوت الهازئ الساخر يهمس فى نبرات هادئة

- وقعت يا مقدم فى يدى مرة أخرى، وسأجردك من كل ما فى القاعة من دنانير دفعة ثالثة من حساب العجل

وقبل أن يفتح صلاح فمه امتدت اليد القوية تقيده وتكممه فى قسوة، ثم ارتفعت الضحكة الهازئة تملأ قلب صلاح بوعيد مخيف قبل أن يصطفق الباب خلف شميعة اليهودى ..

١١

فى الحمام

لم يكف شميعة لحظة عن الشكوى والأنين وهو فى قيده الثقيل فى حجرة البستان، ولولا أن العملاق الذى يجلس إلى جوار الباب هدده بالضرب إن فتح فمه لأعول وصرخ، فمنذ الصباح وهو فى الجلسة المتعبة وقد حز القيد فى يديه وقدميه، ولم يكن يعرف أين هو ولماذا هو فى هذا المكان فقد حمل إليه حملا وهو معصوب العينين، وعندما رفعت العصابة عن عينينه وجد نفسه وحيداً مع هذا المارد

الذى يشبه جوليات فى طوله الفارع وكتفيه العريضين ونظرته التى تقتل من تتسلط عليه رعبا وهلعا   وصاح به سالم

كفى أنيناً أيها اليهودى اللعين وإلا أخمدت أنفاسك فلا يظهر لك صوت أبداً

وابتلع شميعة أناته وهو يرتجف، إلا أن عينيه اتسعتا رعباً حين فتح باب الحجرة ودخلها شميعة آخر، نعم شميعة بلحمه ودمه وذقنه ونظارته وكتبه وحقيبته، أما الكتب والأدوات والنظارة فهى له وهو يقسم على هذا بالأنبياء من بنى إسرائيل، أما هذا الشميعة فهو صورة طبق الأصل من الملامح التى تطالعه فى المرآة حين يعن له أن يتطلع اليها ليرى ما رسمه القدر على وجهه من أخاديد جديدة   وقال شميعة الجديد مخاطباً العملاق

- كل شيء على ما يرام يا سالم، اترك شميعة يخرج الآن

ثم التفت إلى شميعة يقول فى حزم يملؤه التهديد

- أما أنت يا شميعة فاذهب الآن فورا إلى بيت المقدم صلاح واصرخ بأعلى صوتك سرق دكانى وسرقت أدويتى وكتبى ولست أعرف هذا إلا منك يا صلاح

وتفرسته عينان فاحصتان لحظة ثم قال له شميعة الآخر بصوت بارد مخيف

- ولكن إياك أن تتحدث لإنسان بما حدث لك هنا أفهمت وهز شميعة رأسه وهو يقسم بكل الإيمان المغلظة

وبكتبه وأنبيائه بأنه فهم وأن شفتيه لن تنطقا حرفاً واحداً وكف شميعة عن أقسامه وأيمانه وهو يرقب ذلك الذى دخل فى صورته وهو يزيل عن وجهه اللحية والشعر المستعار ثم يمر بقطنة مبللة على وجهه فتختفى التجاعيد ويبدو الوجه صبوحاً مشرقاً وأفاق شميعة من ذهوله على صوت العملاق الصارم وهو يهز دبوسه الضخم ويصيح فيه

- هل ستظل هنا إلى الأبد أيها الخرف ، هيا قم واخرج

وتقدم منه يزيل عنه قيوده ويدفعه إلى الخارج وقد عاد إلى تعصيب عينيه وحين كفت اليد عن دفعه ثم رفعت العصابة عن عينيه وجد نفسه أمام الدكان ، فاندفع مسرعاً إلى داخله ، وسرعان ما تأكد أن كل شيء فى مكانه ، وأن شيئاً لم يفقد ، ثم اندفع صارخاً من الدكان متجها إلى قاعة الزعر وهو يصرخ

- سرقت يا مقدم صلاح دكانى يا مقدم صلاح ، وكتبى وأدواتى يا مقدم صلاح

ضرب الأسطى رجب كفا بكف وعلى يدخل عليه حاملا غرارة كبيرة فوق ظهره ، ويضعها فوق الأرض لاهثاً وتمتم الأسطى رجب وتعثر فى كلماته المتقطعة ثم قال

- أين كنت يا حسن ؟ لقد قلبت الكرار بحثا عنك

فالتقط أنفاسه وقال

- لقد بحثت فى الكرار عن العدس يا أسطى ولكنى لم

أجده، فأسرعت إلى السوق واشتريت لك غرارة كاملة حتى لا يتعطل طعام المقدمين

وربت الأسطى رجب على كتف الفتى وهو معجب من طيبة قلبه وتفانيه فى عمله وقال

كتر الله خيرك يا فتى   هكذا تكون الهمة   ولكننى متأكد أن العدس بالكرار

فقال على وهو ينفلت من أمامه نحو الكرار

- إذن سأبحث عنه من جديد يا أسطى، ربما وجدته

وقبل أن يرد الأسطى رجب كان على قد وصل إلى الكرار، وتقدم متلصصاً نحو الطاقة التى تطل على القاعة ففتحها بحذر وأخذ يرقب ويتسمع   وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يسمع عثماناً يقول لصلاح الذى يرتجف حنقاً وألماً

- ومن أين طلع هذا الجن الأزرق يا عالم   ؟

وجاءه صوت صلاح يقول فى نبرات كالعواء

- هذا الجن يا عثمان لم يهبط من السماء، ولم تنشق عنه الأرض وإنما جئت أنت به بنفسك

- أنا ؟

- طبعا أنت، كلما طلبت منك أحداً جئتنى بالزيبق، طلبت جارية فخرجت لتعود بالزيبق وطلبت حماماً فلم تجد إلا حماماً يقف عليه الزيبق، قلت هات شميعة اليهودى فعدت ومعك الزيبق ولو طلبت منك أن تأتى بعزيز مصر نفسه لجئت لى بالزيبق ..

وكانت ثورة صلاح قد وصلت إلى ذروتها، فهب من رقدته، كأنما ليبطش بعثمان الذى أخذ شاربه يهتز فى اضطراب بينما شحب وجهه وارتجفت شفتاه وما كان على يدرى ماذا سيحدث بينهما لولا أن قطع عليهما الحديث صوت يأتى من خارج القاعة وسط ضجة عظيمة، واستطاع على من مكمنه فى الكرار أن يتبين صوت شميعة اليهودى فابتسم وقد أدرك أن الخوف قد أرغم الطبيب الكهل على تنفيذ أوامره. وسمع صلاحٍ وعثمان صوت شميعة وهو يصرخ من خارج باب القاعة قائلاً

- لابد أن أقابل المقدم أموالى يا عالم دكانى يا خلق كتبى تراث أجدادى مالك راح يا شميعة، ضعت وضاعت أموالك يا شميعة

والتفت صلاح الكلبى إلى عثمان قائلاً

- أدخله وأدخل معه كل الرجال ولكن تأكد هذه المرة أنه شميعة بالفعل

ودخل شميعة مندفعاً وهو يصيح ويلوح بيديه ويخبط الأرض بقدميه، ونظارته تهتز فوق أرنبة أنفه ولحيته تتحرك مع حركة جسده وهو يتلوى وينثنى، واندفع عثمان نحوه ثم شد لحيته فى عنف، وكرر الشد أكثر من مرة وشميعة يصرخ فى ألم واحتجاج، ثم التفت عثمان إلى صلاح وقال

- يبدو أنه شميعة بالفعل يا مقدم

وجذب شميعة نفسه بعيدا عن مخالبه وأخذ يتحسس لحيته وهو يواصل صراخه وعويله بينما اعتدل صلاح في مرقده وقال له

إذن فأنت شميعة حقاً وصدقا

وصاح شميعة مقاطعا وهو يتلفت حوله وعيناه تدوران فى محجريهما بشكل مضحك

آه يا لحيتى ماذا تريدون منى أأسرق وأنت محافظ البلد ، فإذا جئت أشكو تشد لحيتى فى حضرتك أيضاً

فصاح به صلاح الكلبى

إذن أسرع وأخرج هذا الزجاج من ظهرى وجنبى ، أما دكانك وكتبك وكل ما ضاع منك فسأعطيك ثمنه والآن أسرع وإلا كسرت رقبتك

وانتبه على فى مكمنه على نداء الأسطى رجب من المطبخ ، فأسرع يحمل غرارة العدس التى كان قد خبأها فى ركن من المطبخ وأفرغ جزءا منها على الأرض ثم حمل الباقى وهرول مسرعاً إلى المطبخ . وما أن شاهده الأسطى رجب حتى أسرع نحوه صائحاً

- ما كل هذا الغياب يا على

فوضع على الغرارة على الأرض وهو يقول

لقد وجدتها يا أسطى وجدتها ، وطردت الفأر كان يأكل منها ، وكان الملعون يهرب كلما أوشكت أن أمسكه ،

ولكنه فى النهاية غاظنى وهرب
فقال الأسطى رجب وهو يتنهد
- لقد كنت واثقا أن العدس بالكرار دعك الآن من الفأر وهيا ساعدنى على غسل العدس لطبخه وإلا تأخرنا عن موعد عشاء المقدمين ولم يجد على مفراً من أن يشمر عن ساعديه وينهمك فى العمل رغم تلهفه على متابعة ما حدث فى القاعة من طاقة غرفة الكرار قال على الزيبق للأسطى رجب وقد غسل العدس ووضعه فى القدر الكبير
- هل أذهب لأحضر حطباً للكانون من الكرار يا أسطى..
فقال الأسطى رجب وهو منهمك فى تنقية كمية هائلة من الأرز
- أسرع يا حسن وإياك أن تتأخر، أو تلعب مع هذا الفأر الملعون وابتسم على من سذاجة الطباخ العجوز وأسرع إلى الكرار ليفتح الطاقة فى حذر، واستطاع أن يلمح صلاحاً عارى الظهر وشميعة منهمك فى جد فى إخراج قطع الزجاج بينما وقف عثمان وإلى جواره رجل يشكو ويبكى سرعان ما تبين فيه على الزيبق الحمامى الذى استولى على حمامه فى الصباح، وسمعه يقول
- غاب ابن أختى الذى أرسلته لخدمتك بعد أن أقعدنى المرض وطالت غيبته فقلت سيعود وكلما صاحت أمه، أين الولد، أقول لها انتظرى فسيعود بالمنح من المقدم صلاح، ولكن الوقت

طال حتى أصبحنا فى العصر ، وشكوى المرأة وصياحها زاد حتى سمعه الجيران ، فاستجمعت قوتى وسرت إلى الحمام فماذا وجدت ؟ وجدت الحمام خراباً والولد ملقى وهو مبنج فى قاعة مهجورة ، والحمام قاعاً صفصفا ، ليس فيه شىء وأنا الذى كنت أحسب البلد أماناً ما ذنبى أنا يا مقدم صلاح أأسرق ويهان الولد وأنت موجود ؟

فصاح به صلاح الكلبى ضجرا

- اخرج أيها الرجل من هنا وكفى صراخاً وسأعطيك قدر ما فقدت

وأسرع الحمامي يلهج بالشكر وهو ينحنى كلما خطا خطوة إلى الوراء متراجعاً إلى الباب وعثمان يدفعه حتى خرج ، بينما تنهد شميعة فى ارتياح وهو يقول

- هذه آخر قطعة من الزجاج ، وحين أخرجها يخرج من جسدك كل الأذى ثم شد قطعة الزجاج بالملقاط فى مهارة فتأوه المقدم صلاح فى ألم ، بينما جفف شميعة الجرح الدامى بقطنة مغموسة فى مطهر وهو يقول

- والآن أدهن جسمك بالمرهم فيسكن الألم ولكننى أخشى أن يكون جرح الزجاج مسموما ، ولذلك لا بد من حمام السوق غدا حتى يتطهر جسدك تماماً

وما أن انتهى من كلامه حتى صاح صلاح الكلبى وكأنما لدغه عقرب :

- حمام، مرة ثانية، هذا لا يمكن لا يمكن أبداً

فقال شميعة فى دهشة

- لماذا يا مقدم؟ إن الحمام ضرورى، ولولا أنه ضرورى ما أوصيتك به

وتقدم عثمان نحو المقدم صلاح وهو يقول

- لقد تعلمنا يا مقدم، ولن تجوز علينا مثل هذه الحيلة، وما كانت الأخرى تجوز لولا أننا كنا خليى الذهن ثم إننا نستطيع أن نختار حماماً حقيراً مثل حمام باب البحر لا يخطر ببال أحد أنك تستحم فيه، وتأكد أننا سنفتح أعيننا هذه المرة تماماً

واكتفى على بهذا القدر مما سمع وأسرع يحمل الحطب ويهرول إلى المطبخ يوقد الحطب تحت قدر العدس الكبير وهو يرسم خطة جديدة يتغلب بها على حذر صلاح ورجاله

كانت فرحة حمامي باب البحر بخبر تشريف المقدم صلاح الكلبى لحمامه لا توصف فما كان يحلم أن يزور حمامه واحد من زعر المقدم فما بالك بالمقدم نفسه فما كان يقصد هذا الحمام سوى فقراء الناس وأصحاب الحرف من الأسطوات المستورى الحال، وما كان هو يجابه أعباء الحياة إلا بالستر وحده

ولذلك أسرع ينظف الحمام ويجهزه، وأخذ يطلق البخور فى أرجائه ويعطره كما أخذ يخرج من مخزونه أغلى الصابون، وأنظف المناشف وكان لا يزال منهمكاً فى الجرى هنا وهناك

حين وصل المقدم صلاح الكلبى يفسح له عثمان الطريق ويتبعه عشرون من رجاله مدججين بالسلاح كأنما هم مستعدون لمعركة حربية لا لزيارة حمام   وحاول الحمامى أن يكتم اضطرابه وهو يهرول للقاء الوافد العظيم، ولكن المقدم صلاح نظر إليه شذراً وقال لتابعه

- ألم تجد سوى هذا المكان الخرب

فرد عثمان وقلب الحمامى يغوص إلى قدميه

- لقد تعمدنا البحث عن أحقر حمام فى المدينة، حتى لا يمكن لمخلوق أن يشك أننا نقصد اليه

ودار المقدم صلاح بعينيه فى المكان متفحصا ثم أخذ يتفرس فى الحمامى وهو يقول

- وهل أنت واثق أن هذا الرجل هو الحمامى بنفسه ؟

فقال عثمان

- إنه هو   لا تخش من جانبه شيئا

فقال صلاح وهو يلوح بيده ويتجه الى داخل الحمام

- ليظل بالخارج ولتخدمنى أنت بنفسك، ويقتصر عمله هو على إحضار ما يطلب منه فقط

وتنفس الحمامى الصعداء عندما حول صلاح عنه نظراته الثاقبة، وانطلق كاللولب يحضر ما يطلبون، الصابون والمناشف، والطيب   وكان يستمع وهو واقف خلف الباب إلى خرير الماء ويمصمص شفتيه فى حسرة، فلو كان هو

بالداخل، لاستطاع أن يجعل صلاحاً الكلبى يشهد له بالإتقان في صنعته والتفوق في مهنته، فليس مثله من يليف ولا من يكبس، ولا من يطيب ويعطر، ولكنه الحظ الذى يخونه دائماً

وأفاق على وجه عثمان بشاربه الكث يطل من فرجة الباب وهو يصيح به

- الحناء يا رجل للحية المقدم وأسرع

واستطار الحمامى فرحاً، فلديه كمية من حناء اليمن ليس لها مثيل في أفخم حمامات القاهرة وأعظمها، والآن سيشهد له المقدم بالبراعة وانطلق يجرى صوب حجرته يفتح الصيوان حيث يحتفظ بحنائه الفاخرة، ولكنه سرعان ما وقف فاغراً فاه

فقد كان الصيوان خالياً، وكانت الحناء قد اختفت ولم يدر ماذا يفعل، أعاد البحث في كل مكان في الصيوان ولكن دون جدوى وكان لا يزال يتخبط في حيرته حين اقتحم عليه المقدم عثمان الحجرة وهو يصيح به

- هل أصبت بالصمم يا رجل، لقد ظللت أنادى عليك حتى بح صوتى، أين الحناء

فقال الحمامى وهو يضرب كفاً بكف

- ضاعت، اختفت كانت هنا ولكننى لا أجدها

فقال عثمان في غضب

- بل قل أنت نسيت أن تشتريها أيها الحمامى القذر ألا يوجد هنا من يبيع الحناء ؟

فالتقط الحمامى أنفاسه اللاهثة وهو يقول

- عند بابى، أمام الحمام، دكان المعلم جابر أحسن من يبيع الحناء

فلكزه عثمان وهو يقول

- وماذا تنتظر، هيا بنا نشترى منه أحسن ما عنده

ولكنهما لم يجدا المعلم جابر، وإنما كانت فى المحل امرأة سوداء عجوز، التفت فى ملاءة قاتمة اللون وراحت بيد معروقة هزيلة تعطيهم الحناء وهى تقول من بين أسنانها الهتماء

- حناء من بلاد اليمن، ممزوجة بالمسك والعنبر، طلبة الملوك والمقدمين

ورمى لها عثمان بالدراهم وهو يسرع إلى الحمام حتى لا يثير غضب المقدم صلاح بتأخره عنه بينما وقف الحمامى يسأل المرأة مدهوشا

- إننى لم أرك هنا من قبل، من تكونين وأين المعلم جابر ؟

فقالت العجوز وهى تعيد له بعض الدراهم التى أعطاها لها عثمان

- مريض يا بنى المعلم جابر مريض، وأنا والدته خذ هذه نصيبك من البيعة يابنى فتح الله عليك

وضم الحمامى كفه على الدراهم وانطلق يدعو لابنها بالشفاء ولها بطول العمر، ثم اتجه إلى الحمام وهو يعجب من تصاريف القدر الذى ساق له رزقا من حيث لا يحتسب، ولكنه

ما كاد يصل الى الحمام حتى سمع صراخاً مخيفاً ينبعث من الداخل، فاندفع يجرى ويدفع باب الحمام مسرعاً ليقف كالمذهول، فأمامه كان المقدم صلاح الكلبى يلطم وقد ضاعت لحيته كلها، وتساقط شعرها فوق بلاط الحمام بينما كان يولول

- لحيتى يا عثمان، ما كدت أضع الحناء عليها حتى تساقطت، لحيتى ضاعت

وكان عثمان يصرخ

- لحية المقدم يا ناس   الحناء أذابت شعر اللحية كما يذوب الملح فى الماء

وأدرك الحمامى أنه لن ينجو لو وقف مكانه فترك الحمام كله وأخذ يجرى بملء قوته وهو لا يلوى على شىء

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

١٢

دليلة المحتالة

كان على الزيبق يزيل تنكره بيد مدربة ماهرة وهو يقول لسالم:

- لا أظن حمامى باب البحر سيكف عن جريه حتى يصبح خارج القاهرة كلها، لو رأيت وجهه وهو ينطلق مذعوراً لظننت أنه رأى جنياً فى الحمام

فابتسم سالم وهو يرقب علياً فى إعجاب وقال

- لا شك أن منظر صلاح الكلبى وهو يلطم على لحيته المتساقطة يثير الذعر أكثر من مائة جنى يا على

وصمت لحظات وهو يتأمل علياً يزيل بقطنة مبللة الخطوط البيضاء التى كانت تملأ حاجيبه ثم قال

- لقد برعت يا على فى التنكر حتى فقتنى، بل لعلك فقت كل من أعرف ممن برعوا فى هذا الفن واشتهروا به

فقال على وهو يتجه إلى إناء ملىء بالماء يغسل فى مائه وجهه ويديه ويزيل عنهما الصبغة السوداء

- لقد سرقت الحناء من صيوان الحمامى حتى يضطر إلى شراء غيرها، ثم أسرعت إلى صاحب الدكان فكممته وشددت وثاقه وأخفيته داخل الدكان، وجلست فى ملابس المرأة العجوز حتى لا أثير ريبة عثمان فى وقد نجحت الحيلة تماماً

فضحك سالم وهو يقول

- وطارت لحية صلاح الكلبى

فرفع على الزيبق رأسه وهو يقول وفى عينيه نظرة باردة

- وطارت معها سمعته، سأعطيك حفنة من الدراهم توزعها على الصبيان فى كل الحارات وعليهم أن يتغنوا بلحية صلاح التى ضاعت منه فى الحمام إننى أريد فضيحته اليوم كاملة.

فاتسعت حدقتا سالم وهو يقول

- أما يكفى ما جرى له إن ما تريده الآن سيجعل منه أضحوكة القاهرة كلها

فقال على وهو يضع بين يدى سالم صرة ضخمة من الدراهم:

- نعم يا سالم   هذا ما أريد   سأجعل صلاحاً يتمنى أن لم تشرق شمس ذلك اليوم الذى سرق فيه منى العجل   والآن انطلق ولا تضيع الوقت

* * *

ولكن المسألة لم تقتصر على فضيحة صلاح بين رجاله، ولا على صياح الصبيان فى الحوارى والأزقة بل لقد وصلت المسألة إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير   إذ استدعى عزيز مصر صلاحاً إلى حضرته بالديوان   وذهب صلاح واجف القلب ملثم الوجه، وظل العزيز يرقبه بنظرات اهتز لها قلب صلاح الذى لا يلين، ثم قال له فى صوت آمر

- ارفع اللثام يا صلاح

وتردد صلاح لحظات   ولكنه لم يجد بداً من رفع اللثام وتأمل العزيز وجهه وقد زالت عنه اللحية وامتلأ بالبثور والقروح وهو يقول

- إلى هذا الحد وصل بك الأمر وأنت مقدم الدرك

وصمت لحظات ثم عاد يقول فى نبرات أشد عنفاً

- إن كان هذا العايق يفعل بك أنت هذه الفعال فكيف يفعل بباقى الناس ؟

ووجد صلاح صوته أخيراً فقال متخاذلاً

- يا مولانا   أنا لا أعرف كيف يسبقنى إلى كل مكان، ويظهر لى فى كل صورة

فازداد غضب العزيز وحنقه وهو يقول

إذا كنت قد عجزت عن الوقوف أمامه فقل لنا، ونحن نعطيه منديل الأمان ونوليه مكانك، فلست أدرى كيف يكون الحال لو جاءت دليلة إلى هنا ووجدت صبياً يمكر بك إنها إذن تفعل بالبلد وبنا ما تشاء

فقال صلاح وقد أحس بيد تعصر فؤاده عصراً

دليلة

فعاد العزيز يقول وهو يشير إليه بيده صارفا إياه من حضرته:

- نعم دليلة، وأنا أتوقع وصولها من بغداد بين يوم وآخر، بين لحظة وأخرى انصرف ولا تعد إلا بهذا العايق أو

وترك كلامه دون إكمال ولكن صلاحا ما كان بحاجة إلى من يكمل له الجملة الناقصة، لقد فهم وعرف، وجرجر أقدامه المتخاذلة وهو يسير مطرقا مغادرا الديون إلى القاعة وهو لا يكاد يرى مما حوله شيئاً وكلمات العزيز تطن فى رأسه كالدوامة التى تريد أن تجرفه إلى هاوية بلا قرار

كانت نسمات الخريف تعبق الجو بروائح يمتزج فيها عطر أزهار بكرت بالتفتح مع أتربة تتصاعد من أقدام السابلة ومزيج من العطارة والأفاويه تتسلل من الحوانيت الصغيرة المظلمة على جانبى الطريق بينما ازدحم الطريق نفسه بجموع من الصبية

تتفاوت أعمارهم وتعددت ألوان ملابسهم وإن كانت كلها تتفق فى تلوثها بمزيج من التراب والبقع وبين تدافع الحمير والعربات التى يدفعها أصحابها بالأيدى كان الصبية يصيحون فى وقع منغم

- وصلاح ساب دقنه.

وتردد مجموعة أخري من الصبية على نفس النغم

- يا أولاد يا أولاد
- شوفوا قلة عقله
- يا أولاد يا أولاد

بينما صحب صبى صغير هذا الصياح المنغم بدقات منتظمة من طبلته وتوقفت اثنتان متسربلتان بالثياب فما يبين جنسهما وسط الثياب الفضفاضة واللثام يغطى الوجه عن السير وأخذتا ترقبان الصبية وهم يعودون إلى الصياح المنغم قائلين

- يا أولاد حارتنا
- بطه، بطه
- ودقن صلاح
- أكلتها القطة

ويبتسم كل من فى الطريق وأحدهم يهمس وعيناه تلمعان جذلا

- لعب أطفال

بينما يقول الآخر وهو يصرخ فى الأولاد

اذهبوا من هنا لعنكم الله، هل يسخر أحد من المقدم صلاح الكلبى نفسه ؟

وفى خبث يضيف

- وحتى لو أزال العايق الجديد ذقنه   هذا لا يجوز يا أولاد لا يجوز

ويعود الأولاد إلى الصياح والغناء، ويعود أولاد البلد إلى تندراتهم المستنكرة المظهر، الخبيثة المخبر، المتشفية فى سخرية لاذعة، وفكاهة   وقالت أطول الاثنتين لصاحبتها

- لقد غدا صلاح الكلبى سخرية الصبية فى الحوارى والأزقة

فابتسمت الثانية عن ثغر فاتن، فأضاءت ابتسامتها وجهاً جميلا متناسق التقاطيع لصبية كاعب حلوة الملامح ساحرة العينين، وقالت

- أنه غليظ يا أمى، والناس لا يحبونه   ويبدو لى أنهم يتشفون فى مصيبته

فقالت الأخرى وكانت فارعة الطول لامعة العينين، تشف شفتاها المزمومتان عن قسوة، وتكشف نظراتها الثاقبة عن ذكاء حاد

- إنها معركة يشارك الناس فيها بعواطفهم   ولن أكون أنا دليلة إن لم يكن هذا العايق قد فاق صلاحاً فى المكر والحيلة ..

فابتسمت الصبية وهى تقول

- ولن أكون أنا زينب إن لم يكن هذا الصراع يستهوى فيك روح التحدى والمغامرة

فقالت دليلة

- إن من يجعل من صلاح الكلبى ضحكة الصبيان فى الحوارى خصم لا يستهان به   ولكننى أود أن أرقب ما يجرى دون أن أكشف وجودى لأحد

فأجفلت زينب وهى تقول

- ولكن لابد أن تعلنى مقدمك للعزيز ، أما كفى أن ضاع هذا اليوم كله فى التلكؤ والتجول من شارع لشارع ومن حارة لحارة . .

فابتسمت دليلة وهى تقول

- ليس مثلى من يدخل معركة لا يعرف أبعادها ، لا بد أن أدرس وأعرف قبل أن أعلن وجودى فلست أحب أن يمكر بى أحد   وسنعود الآن إلى المنزل الذى نستأجره فى بير جوان وهناك أتنكر على هيئة واحد من العياق العراقيين وأذهب بنفسى لأستطلع الأمر فى قاعة الزعر . . ، وأرقب من قرب سير الحوادث ، فإذا ما حانت اللحظة المناسبة أعلنت وجودى   هيا يا زينب

ومضت دليلة المحتالة أخطر من عرفت أرض المسلمين من العياق وأصحاب الحيلة ومعها ابنتها زينب تشقان طريقهما وسط جموع القاهرة المزدحمة وصياح يأتيهما من كل حارة :

- يا أولاد حارتنا

- بطة، بطة

- ودقن صلاح

- أكلتها القطة

فيزداد التعبير الصارم على وجه دليلة صرامة وقسوة، بينما تزداد الابتسامة على ثغر زينب اتساعا وإشراقاً

قال عثمان وهو يهز رأسه فى تأكيد

- هذا الحمام كان شؤما من أوله

فصاح به المقدم صلاح وهو يجيل نظره فى الرجال الذين اجتمعوا حوله فى القاعة

- بل أنت الشؤم، وأنتم جميعا شؤم، دب فيكم الوهن واسترحتم إلى حياة الكسل حتى أصبح مثل هذا الصبى يعبث بنا كما يشاء، وحتى أصبحت أنا أضحوكة أهل القاهرة الذين يتلمسون السبل للسخرية منى أما العزيز فهو كالزمان لا يعرف إلا القوى

فاندفع عثمان يقول متحمسا

- وأنت القوى يا مقدم، وما هذا الولد إلا أزمة تمر كما مرت غيرها من الأزمات

فعاد صلاح الكلبى يصيح فى حنق

- أزمة أو لا أزمة، هذا الولد ينبغى أن يختفى من الحياة

كلها ، ولابد أن تقلبوا القاهرة كلها بحثاً عنه

فقال صوت أجش فيه نبرة غريبة لا تخطئها أذن

- أنت يا مقدم لا تحاربه بالسلاح فالتفت صلاح الكلبى إلى مصدر الصوت ليجد عايقاً فى ملابس أهل العراق وقد أخفت لحيته الكثة وجهه بينما غطى شارب كث شفته فطمس ملامح وجهه وتفرس المقدم صلاح الكلبى فى المتحدث لحظة ثم قال

- من أنت أيها الرجل ، أنا لم أرك من قبل ؟

فتقدم الرجل من مكان صلاح الكلبى وهو يقول

- أنا عايق من العراق جئت من عند دليلة لأخبركم بقرب وصولها

وانتفض صلاح الكلبى حين سمع اسم دليلة ، ثم اعتدل فى جلسته وهو يقول

- دليلة نعم دليلة يا فرحتها فينا حين تأتى لتجد هذا الصبى يلعب بنا هذه الألاعيب ولكن متى ستحضر دليلة يا أخا العراق حتى نرحب بها الترحيب اللائق ؟

فقال العايق العراقى

- ستكون هنا بعد أيام ولكننى مازلت عند رأيى يا مقدم من أنك لا تحارب هذا العايق الجديد بالسلاح الواجب

فقال صلاح الكلبى وهو ينحنى إلى الأمام

- وما هو هذا السلاح يا عراقى ؟

فقال العايق فى تؤدة

- لكى تستدل عليه لابد من خيط تسير وراءه لتهتدى إليه، أما أن يخرج الرجال للبحث عمن يجهلون فلن يصلوا إلى شيء.

- هذا صحيح يا عراقى ولكن أين الخيط ؟

- ألم يسرق منك من الملابس والسلاح الشيء الكثير ؟

فهز صلاح الكلبى رأسه مؤمنا، بينما استأنف العايق العراقى حديثه قائلا

- لا بد له أن يبيع هذه الملابس فلو انطلق رجالك فى زى تجار وطافوا على الباعة الجائلين يفتشون ما يحملون من بضائع لاهتدوا قطعاً إلى بعض ما سرق وهى نفسها تقودك إلى السارق فلمعت عينا المقدم صلاح الكلبى وهو يقول

- نعم الرأى يا عراقى

وربت على كتف العايق مبتسما وهو يقول

- نعم، نعم الرأى، بك وبأمثالك أصابت دليلة شهرتها

ثم جال فى رجاله بعين ساخرة النظرة وهو يقول

- أما رجالى أنا فلا نفع فيهم ولا خير يرتجى منهم سأنزل بنفسى إلى الأسواق وسوف نرى

ومن حجرة الكرار تسلل شبح فى حذر وهدوء ليغادر المطبخ منطلقاً إلى حجرة بالبستان يعد فيها أمره وهو يهمس لنفسه

- حقا إن هذا العراقى أخبث من على الأرض

١٣

حريم السنجق أحمد

كانت (الست رمزة) هذا الصباح تعانى من نوبات الضيق التى ما تفتأ تنتابها بين الحين والحين. و (الست رمزة) حين تصاب بهذه النوبات تحيل حياة الدار كلها إلى جحيم، وقد بدأت هذا الصباح بالسنجق أحمد نفسه فجعلت صباحه أغبراً

وسمعته البنات وهو يهدر ساباً لاعناً الصباح العكر الذى اصطبحه بوجه الست (رمزة) ثم رأينه وهن منكمشات يغادر الدار هادراً دون أن يلقى إليهن بتحية الصباح، وطرطوره يتراقص فوق رأسه الضخم، وكرشه يترجرج أمامه وهو يصفق

باب الدار خلفه في عنف، ثم يمتطي صهوة جواده دون أن يلقى بالا إلى صهيل التحية الذى قابله به الجواد بل يلكز الحيوان الوفي لينطلق به مسرعاً كأنما يهرب من الست رمزة وصيحات الست رمزة ومزاجها العكر هذا الصباح

وما أن اصطفق الباب خلف السنجق أحمد حتى بدأت الحياة تدب في البيت، ولكن على استحياء شديد حذرا من صيحات الست (رمزة) وكلامها القارص الذى لا يفرق بين صغير وكبير وهمست (وداد) في أذن (آمنة) وهما تدخلان المطبخ.

- لو وجدنا شيئا يشغلها، أو بائعا تتشاجر معه، أو عبداً يخطىء تصب عليه غضبها لأمكن لنا أن نستريح من هذا الشر الذى يتحفز بكل واحدة منا

فقالت (آمنة) وهى تمصمص بشفتيها وتهز ضفيرتها فوق ظهرها

- نحن تسليتها الوحيدة فالباعة قد عرفوا ما يصيبهم من بلاء فتجنبوا الدار، أما العبيد فلن يستطيع شيء أن يغريهم بالتعرض لها، وأراهنك أنهم جميعاً خرجوا وراء السنجق بحجة مصاحبته حتى الديوان

فتنهدت وداد وضربت كفاً بكف وهى تقول

- لقد كتب علينا هذا الهم، وعلينا أن نحتمل وأمرنا لله

ولكنها ما كادت تنتهى من جملتها حتى أسرعت آمنه تضع

إصبعها على فمها وهى تهمس

- اسمعى

ولم تسمع (وداد) شيئاً أول الأمر، ولكنها سرعان ما استطاعت تمييز صوت يأتى من أول الحارة وينادى

- أجمل التحف والهدايا، للحور العين والصبايا هذا شاريت يا بنات يحمل أجمل الطيوب والزينات

فهمست وكأنها لا تصدق

- بائع بائع يهودى جائل ضل طريقه إلى دارنا

وتبادلت الفتاتان النظر ثم أسرعتا تتسابقان إلى النافذة، فرفعت (وداد) المشربية وصاحت (آمنة) بالبائع أن يدخل الدار، وتزاحمت الفتيات على صياحهما، وما أن أدركن أن بائعاً بالباب حتى علاهن جميعا البشر وهن يتسابقن ضاحكات يفتحن الباب للبائع اليهودى بخرجه الضخم وقد نسين كل حذر من الست (رمزة) وغضبة الست (رمزة)

وأخذ على الزيبق يخرج من الخرج أحمالاً من الملابس المزركشة، والطرح الحريرية الثمنية فتتخاطفها أيدى البنات وهن يتغامزن على لحيته الرفيعة الطويلة وملابسه القذرة ووجهه المغضن ولكنه لم يكن ملتفتاً إلى تغامزهن فما كان هذا يعنى له إلا أنه أجاد التنكر وأتقنه وبرع فى التخفى وتقمص شخصية تاجر يهودى جائل. إنما الأمر الذى كان يشغله هو البحث عن شيء ثمين، ذى قيمة كبيرة لو سرقه لفت

غيابه الأنظار واستحق ثورة الست (رمزة) وغضبها وابتسم علي الزيبق وهو يلمح مفرشاً كبيراً مطرزاً بالفضة ومحلى بنقوش زاهية وأدرك أنه وقع على بغيته المنشودة

وفى نفس الوقت ارتفعت صيحة الست (رمزة) فكفت البنات عن الضحك ورمين ما بأيديهن مسرعات، وقالت (آمنة)

هيا يا بنات لنسرع إليها ونخبرها بهذا التاجر

ثم غمزت بعينيها للبنات اللاتى يسرعن إلى الطابق الأعلى ووداد تقول للتاجر اليهودى

انتظر لحظة يا خواجا فستشترى منك الست الكبيرة

ولم تملك إلا أن تنظر له بإشفاق وهى تسرع وراء البنات فما هى إلا دقائق ويصبح فريسة حائرة بين أنياب الست (رمزة) التى ستلهو به، وتصب عليه جام مزاجها الأسود هذا الصباح.

ولكن ما كادت البنات يختفين فى انحناءة الدرج حتى كان على الزيبق يجمع حاجياته بسرعة ويعيدها إلى الخرج ووسطها المفرش المفضض المزين بالنقوش الزاهية وكمن خلف الباب الخارجى لحظات، وسرعان ما سمع صوت السيدة رمزة وهى تنزل الدرج وسط حاشيتها من البنات العاملات فى المنزل من قريباتها الفقيرات وكأنها قائد يتصدر جيشه لمعركة حافلة، وتوقفت أصوات وقع الأقدام على الدرج، وانبعث صوت الست (رمزة) الحاد الغاضب قائلة

- أين هذا اليهودى الملعون ؟

فقد كانت القاعة خالية تماماً بينما كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، وهمست وداد لآمنة

- لعله سمع بأمر الست رمزة وما تفعله مع الباعة فهرب وصاحت بها الست رمزة

- ماذا تقولين يا ملعونة ألست أنت التى فتحت له الباب؟

وكالفأر الذى وقع فى مصيدة لا فكاك منها، مضت وداد ترتجف وهى تحاول الاختفاء وراء آمنة وتقول بصوت مرتعش مذعور

لقد كان هنا وكان معه الكثير من الملابس والطرح، وقد رأته البنات

والتفتت إلى البنات مستنجدة وهى تقول فى ضراعة

- أليس كذلك يا بنات تكلمى يا آمنة

ولم تستطع آمنة أن ترد فقد صرخت الست (رمزة) صرخة حادة وهى تخبط على صدرها

- المفرش أين المفرش المطرز بالفضة ؟

وتعالت الصيحات وساد الهرج بينما همست وداد فى أذن آمنة

- سرقنا اليهودى الملعون، وضاع المفرش

فقالت آمنة والذعر يتجلى فى نظراتها

كـاد على الزيبق يصطدم بسالم وهو يخرج مسرعاً من الحارة، وتلقاه سالم بين يديه وهو يقول فى صوت هامس

لقد وجدته، وهو يرتدى ثياب التجار ويجول قريباً من هنا في السوق، تركته عند دكان الشيخ حامد العطار، لا يجد بائعاً جائلاً إلا أوقفه ومضى يتظاهر بالمساومة وهو يقلب خرجه كله، ولا يتركه إلا بعد أن يرى كل ما معه

- أمتأكد أنت ؟؟

- بالطبع، إننى أستطيع أن أعرف صلاحاً الكلبى مهما أتقن تنكره

فقال على وهو يرفع الخرج على كتفه

- توار هنا، فسأحتاج إليك بعد قليل

واستوقفه سالم وهو يهم بالسير وقال له فى نبرات حانية

- لا تغرق فى تمثيل دور اليهودى حتى لا يشك فى أمرك

وابتسم على فى وجه سالم القلق ثم اندفع يسير وهو يتظاهر بالعرج ويرفع صوتا رفيعا مشروخا بنداء منغم رتيب

- أجمل التحف والهدايا لحور العين والصبايا هذا شاريت يا بنات يحمل أجمل الطيوب والزينات

وجال خلال السوق وهو يتفحص جموع الناس بعين كالصقر إلى أن وقع نظره على صلاح الكلبى، وسرعان ما عرفه رغم

تنكره، فمشيته المتكبرة وطريقته فى رفع رأسه والبثور التى ملأت جلد وجهه بعد زوال لحيته كشفت أمره لعينى على الفاحصة وتقدم على نحوه وهو ينغم فى ندائه، ويرفع صوته ويزيد مشيته عرجا وأحس على بوقع عينى صلاح عليه، وشاهده بطرف عينه وهو يشق جموع الناس فى الطريق متجهاً نحوه، فأبطأ مسيره حتى أحس به يحاذيه فعاد يرفع عقيرته بالنداء من جديد بذلك الصوت الرفيع المشروخ واستوقفه صلاح الكلبى قائلا

- ماذا تحمل معك أيها اليهودى ؟

فالتفت على إليه وهو يقول

- مرحبا بسيد التجار أحمل معى كل التحف والهدايا، ملابس للنساء، وعطور من الهند، وأسلحة وذخائر تنفع أكابر الفرسان ولمعت عينا صلاح عندما سمع حديث الأسلحة، فاعترض طريق على وهو يقول

- أرنى بضاعتك يا يهودى، فأنا تاجر سواح. لو أعجبنى ما معك لاشتريته كله

وابتسم على ابتسامة الرضا ووضع خرجه على الأرض وهو يفرك يديه ابتهاجاً، ثم فتح الخرج وهو يقول

- هذا نهار مبارك وستفرح أم شمعون، فلها زمن تريد فيه أن تأكل كتكوتاً وسنشترى لها الكتكوت اليوم تفرج يا سيد التجار تفرج

ولكنه كف عن لغوه وهذره، حين امتدت يد صلاح الكلبى إلى الملابس والسلاح وهو يصيح

هذا سلاحى وهذه ملابسى   يا ملعون

ومضى يلطم علياً بقسوة وعلى يقع من كل ضربة وهو يتظاهر بالعجز عن الفهم ومعرفة سبب صراخ التاجر الذى لا ينتهى ولطماته القاسية التى تنهال عليه   وتجمع من فى السوق وهم يهدئون من ثائرة صلاح وقال أحدهم

- ما لك به يا تاجر   إن الرجل لم يقل لك شيئاً ولم يفعل معك شيئاً

وتصايح الآخرون وقد هزتهم دموع العجز فى عينى على، وصرخاته الحادة الباكية، وتداعيه تحت وقع لطمات صلاح

وأحس صلاح أن الناس حوله يتحلقون وهم فى غضب متزايد، فأمسك قطع الثياب والأسلحة وهو يقول

- هذه أمتعة مسروقة

فصرخ على ولطم على وجهه وهو يقول فى صوت كالنواح:

- مسروقة   يا وقعتك السوداء يا شاريت   يا نهاية شقاك يا شاريت

ثم اندفع إلى يد صلاح يقبلها وهو يقول له بين دموعه المنهمرة

- اكسب فى ثواباً يا تاجر   فقد اشتريت هذه الملابس والأسلحة لتوى من بيت كبير هنا عند نهاية الحارة، وقد

وجدت أكداساً منها هناك وقد عرضوا على أن أشترى الباقى بثمن بخس وكنت فى الحقيقة أريد أن أبيعك ما معى ثم أعود لأشترى باقى ما عندهم

وجال صلاح الكلبى ببصره فى الجميع الحاشد وقال بصوت آمر

- أنت مظلوم يا خواجة تعال معى وسأعوضك عن كل ما سببته لك من ألم، فقد اختلط الأمر على تعال سأشترى كل ما معك

وارتفعت صيحات الاستحسان من المتجمهرين، وأخذوا يثنون على التاجر الشهم، بينما أسرع صلاح يمسك بيد على ويجره جراً إلى مكان منعزل ثم أوقفه أمامه وهو يقول

- والآن دلنى على هذا المنزل أيها اليهودى واعلم أننى صلاح الكلبى مقدم الدرك

وصاح على نائحاً من جديد

- صلاح الكلبى مرة واحدة يا وقعتك السوداء يا شاريت رحت فى داهية يا شاريت

- اخرس كل ما أريده منك هو أن تدلنى على هذا المنزل فصمت على مرة واحدة وهو يقول

- أدلك وتشترى منى ما معى

فتأمله صلاح لحظات ثم قال وهو يخرج من جيبه عدة دنانير

لقد نسيت أنك يهودى، خذ هذا ودلنى على المنزل

وأخذ على يعد الدنانير ويسمع رنينها وقد انصرف عن صلاح انصرافاً تاماً فهزه هذا فى ضيق وصاح

أجرك وأخذته، هيا دلنى على البيت

فصر على النقود على مهل ودسها فى ملابسه وهو يقول

- طبعاً أدلك ولكن كيف ستدخل عليهم، لو عرفوا أنك صلاح الكلبى فلن يفتحوا بل يهربون المسروقات وعندما تحضر رجالك لن تجد شيئاً، وإذا قلت لهم إنك تاجر شكوا فيك

ثم ابتسم فى شراهة وهو يفرك كفيه فى جشع ويقول

- هل أدلك على طريقة تدخل بها إلى الدار وتشاهد الملابس والأسلحة التى فيه دون أن يشك فيك أحد ؟

فقال صلاح

- قل

وابتسم على ولم يتحدث، بل إشار بيده إشارة ذات مغزى.

فتنهد صلاح وهو يخرج دينارا جديداً يدسه فى يده ويقول

- هل يكفى هذا

وأخذ على يقضم الدينار بين أسنانه، ثم قال

- خذ خرجى هذا والبس ملابسى وناد بندائى فيظنون أننى عدت إليهم ويفتحون الباب

وهمس صلاح من بين أسنانه

- إنكم معشر اليهود لملاعين، اخلع ملابسك وأعطنى

خرجك ، وانتظرنى هنا حتى أعود ، إياك أن تتحرك من مكانك . .

فقال على وهو يخلع ملابسه

- أتحرك وأترك الخرج والملابس لك بل أنا هنا فى الانتظار ولو غبت سنة

* * *

وما كاد صلاح الكلبى يختفى داخل الحارة وهو يرتدى ملابس اليهودى ، حتى أسرع على إلى حيث وقف سالم وصاح به

- أسرع إلى ديوان السنجق أحمد وقل له إن حريمه قد أمسكن لصاً ، وأن الصياح يملأ البيت والحارة كلها ، ولا تنس أن توصيه أن يحضر رجاله مسلحين بالنبابيت

- وأنت ؟

- عندما أطمئن على أن صلاحاً قد وقع فى المصيدة سأسرع إلى المطبخ فقد اشتقت للأسطى رجب وكرار الأسطى رجب

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

١٤

الفأر وشواربه

كانت صيحات الست (رمزة) ترج البيت كله رجاً، وتضاءلت البنات وكل منهن تود لو اختفت فلا تقع عليها عين الست ولا قذائف الست التي ترمي بها كل من تصادفه أمامها وقالت (وداد) لآمنة وهي ترتجف

- هذا نهار لن يفوت

فهمست آمنة

- هي شورتك تاجر تصب عليه جام غضبها، فانقلب الحال غماً، وأصبحت المصيبة اثنتين

وهمست وداد

– من كان يظن أنه لص   حرامى يا عالم   ولا يجد سوى هذا البيت

وأسكتتها آمنة بإشارة من يدها وهى تقول

– أتسمعين ما أسمع يا وداد

وجاءها صوت اليهودى فى ندائه الرتيب فصاحت

– إنه هو   إنه هو

وصرخت الست رمزة فى صوتها الحاد

– وصوتك يعلو أيضا يا ملعونة، سأفرى لحمك فرياً تعالى هنا

فقالت وداد وهى تندفع إلى النافذة

– إنه اليهودى يا ست يعود مرة أخرى

وسكتت البنات كما سكتت الست (رمزة) التى لمعت عيناها وهى تقول

– تحايلن عليه حتى يدخل يا بنات، لعله يظن أننا لم نكتشف سرقته، فعاد يعاود خطف ما تصل إليه يداه

وأسرعت آمنه تفتح الباب وهى تقول

– ادخل يا خواجا ادخل، لقد بحثنا عنك فلم نجدك   تعال

فدخل صلاح الكلبى ووضع الخرج عن كتفه وهو يجول ببصره فى القاعة ويقول

– لقد عدت من أجل الباقى

فهمست آمنة

- ويقولها الوقح، اللص يريد الباقى

وهمست وداد

- ألا ترينه أعرض قليلاً من قبل ؟

- أعرض أم أقصر، هيا نبحث عن المفرش

وقبل أن يدرك صلاح ما حدث، كانت الفتاتان قد انقضتا على الخرج تفتحانه وتقلبان محتوياته قلبا وسرعان ما كانت آمنة تخرج المفرش فى يدها وتلوح به وتقول

- المفرش يا ست، المفرش فى الخرج

وصاحت الست رمزة صيحة الحرب وهى تنحنى وتلتقط قبقابها الخشبى

- القباقيب يا بنات

ولم تكن البنات فى حاجة الى هذه الصيحة وسرعان ما وجد صلاحٍ نفسه وسط مجموعة من النسوة الغاضبات ينهلن عليه ضرباً بقباقيبهن وقد أغلقن الباب دونه والطريق

* *

حين تخلص على من تنكره وأسرع إلى الطاقة فى الكرار، كان صلاح الكلبى يتوجع وقد ملأت الكدمات جسده ووجهه وعثمان يقول

- سلامتك يا مقدم

بينما كان العايق العراقى صاحب النظرات الثاقبة يهدئ من

ثائرة صلاح وهو يقول

لا بأس عليك يا مقدم ولكن كيف حدث لك كل هذا ؟

فقال صلاح وسط تأوهاته وأناته وهو يتحسس جنبه ورأسه وذراعه

إنها مشورتك انتهت بهذه العلقة، نزلت على النساء بالقباقيب كالسيل المنهمر، ولم أكن أعرف من أين تأتى كل هذه القباقيب، ولم تجد ضرباتى وركلاتى فى إبعادهن عنى، وما كدن يتعبن حتى انفتح الباب ودخل السنجق أحمد مع رجاله وهات يا ضرب بالنبابيت آه يا جنبى ذراعى يا عالم

وعاد عثمان يقول فى مواساة

- سلامة ذراعك يا مقدم

فقال صلاح ونظرات القهر تملأ عينيه

- لولا أن السنجق أحمد عرفنى وسط الضرب والإهانة لكنت اليوم ميتا لا محالة

فهتف المقدم العراقى

- تماماً يا مقدم هذا بالضبط ما يجب أن تفعله

فبهت صلاح الكلبى واعتدل جالساً وهو يقول فى حنق وغضب

- ماذا تعنى هل تريد لى الموت

- تماماً يا مقدم فكر معى فى الأمر بروية، لو أشعت خبر موتك لصدقه هذا العايق وخصوصا بعد الذى حدث فى منزل

السنجق أحمد، وساعتها سيظهر مطمئناً فنعرفه ونقبض عليه..

وصاح عثمان وشارباه يهتزان

- فكرة والله

فصاح صلاح وقد ازدادت سورة غضبه

- ما هذه الأفكار التى تقصف العمر   أهذا كلام ؟

فاقترب منه العايق العراقى وقال فى صبر وتؤدة

- بل افهمنى يا مقدم   أما كنت وشيكاً أن تقبض على هذا العايق بفضل مشورتى، لولا أنه عرفك وضحك عليك   ؟

فهز صلاح الكلبى رأسه مومئاً وهو يقول فى حسرة

كان أمامى لعنة الله عليه، أمسكته بيدى هذه وضربته وبكى فجمع الناس حولنا

ثم اشتد صوته حدة تملؤها المرارة وهو يقول

- ضحك على الملعون، وأذاقنى طعم القباقيب والنبابيت آه يا جنبى   وتريدون منى أن أموت بالحياة

فعاد العايق العراقى يقول فى صوت هادىء ونبرات بطيئة متأنية

- بل نريد لك الحياة يا مقدم، فإنه متى اطمأن العايق وظهر، أمسكناه وأوردناه مورد التلف وسقيناه كأس العطب

وعاد عثمان يقول وقد تحمس لخطة العراقى الذى يتحدث حديث الواثق بنفسه :

- نعم الرأى والحيلة وسنشيع الأمر بين الناس، ونرقب كل من يتوافدون على الدار فقال المقدم العراقى

- بل لابد أن تتقنوا الحيلة هذه المرة، فأنتم أمام عدو ماكر ولو شك لحظة واحدة فى صدق الحكاية لأتلف عليكم الحيلة وقلبها ضدكم

فتخاذل صلاح أمام حماس عثمان وثقة العراقى بنفسه وقال

- صدقت يا مقدم، ولكن كيف تتم التدابير ؟

وبدا أن الأمر متروك لهذا العراقى ذى النظرة المتسلطة والصوت الآمر، فتلفت حوله ليرقب الأبصار متطلعة إليه تنتظر حديثه، وابتسم ثم قال

- أقول لكم أولاً لا تخبروا أحدا بجلية الأمر إلا من سمع التدبير هنا فى القاعة، وهؤلاء لا يفارقون القاعة من الآن وحتى يتم الأمر كما نرسمه، وينبغى أن يصدق الجميع الأمر حتى زوجة المقدم صلاح ثم تتفقون مع الحانوتى وتحضرون مغسلاً يكون أبلها حتى لا يكشف الأمر، ثم نسير بالجنازة وفيها المقدم صلاح داخل الخشبة، وننزله إلى القبر حقيقة، وبعد انصراف الناس نخرجه بحيث لا يراه أحد فصاح صلاح نائحاً

- وأدخل القبر بقدمى وأنا حى ؟

فقال عثمان وهو يهز رأسه مؤكدا كلامه :

- حتى ينجح التدبير يا مقدم

فعاد صلاح ينوح قائلاً

- هذه المرة لن يخرجنى اللعين من القبر حياً

فأومأ العايق العراقى بيده مشمئزاً وقال فى لوم وتقريع

- حقاً يا مقدم إن لهذا العايق الحق فى الاستخفاف بك، فلست على ما يظنك الناس من جسارة وإقدام ولست أدرى بعد الذى أراه منك الآن، كيف اكتسبت شهرتك ومركزك

وأحس صلاح الكلبى بالكلام كالسهام المسمومة تغرز فى جسده فصاح وهو يقفز من مكانه واقفاً

- بل أنا لها أيها العراقى ولو أن هذا الملعون قد أطار النوم من عينى

فابتسم العايق العراقى وهو يقول

- إنه يسبقك بالحركة دائماً يا مقدم، وقد آن الأوان لتكون أنت السابق

* * *

وهمس على لنفسه وهو فى مكمنه أمام الطاقة فى الكرار

- إن هذا العايق العراقى لأخبث من رأيت وإن أمره ليريبنى ولم يكمل على نجواه لنفسه إذ أحس بيد تنهال فجأة فوق كتفه بخبطة قوية وصوت الأسطى رجب يقول فى غضب :

- ماذا تفعل هنا يا ولد ؟

وأدرك على أنه قد ضبط متلبساً، وأن صيحة واحدة من الأسطى رجب كفيلة بأن تقدمه لقمة سائغة لعدوه، فأخذ يصطنع الاضطراب واللعثمة وهو يقول متراجعاً عن الكوة والأسطى رجب يتحرك وراءه

أبداً إننى يا أسطى. كنت أبحث عن العدس يا أسطى. ونظر إليه الأسطى رجب وهو يقطب حاجبيه ويشير بيده ويقول

- وهل العدس فى الكوة يا ملعون بل كنت تتسمع على المقدم والرجال فى القاعة

وصمت لحظة وكأنما رسبت الفكرة فى ذهنه فاندفع يقول

- بل لعلك عين عليه من عدوه

وأسرع على يقفز حوله ويشرح بيديه وهو يقول

- يا أسطى رجب، والله أبدا لقد كنت أبحث عن العدس حين عثرت على الفأر

- أى فأر يا ولد

- الفأر الذى أكل العدس

- الفأر أكل العدس ما هذا الكلام الفارغ ؟

وقرر على أن يستمر فى هذا الحديث الذى لا معنى له حتى يشغل ذهن الأسطى رجب ويتحين الفرصة للفرار فقد أدرك أنه خسر الكوة إلى الأبد ولكنه لم يكن يريد أن يخسر حريته أو

حياته نفسها فأخذ يتصايح وهو يقول متحركاً فى كل مكان والأسطى رجب يتبعه بكرشه المتهدل

- لقد جرى أمامى، فجريت خلفه واختبأ فى هذا الركن فهجمت عليه ثم جرى إلى هذا الرف فأمسكت بهذه الطاسة الثقيلة فى يدى لأضربه بها

وامتدت يد على فأمسك بطاسة ثقيلة وحركها فى يده كالهراوة واستمر يقول

- ثم جرى إلى الكوة هذه الكوة

وأشار فجأة إلى الكوة وهو يقول فى لهفة

- أنظر ها هو يقف فى الكوة يلعب شواربه

وفغر الأسطى رجب فاه وقد وقف محتاراً وسط هذه المجموعة من الحركات الغريبة والحديث الأشد غرابة وقال

- يقف فى الكوة ويلعب شواربه •

- والله يا معلم ألا تراه إنه فى الكوة الفأر فى الكوة يلعب لك شواربه

واندفع الأسطى رجب نحو الكوة وهو يقول

- أين هذا الفأر ؟

ثم انحنى برأسه لينظر من خلال الكوة، وسرعان ما ارتفعت يد على بالطاسة ثم نزلت فى ضربة قوية فوق رأس الأسطى رجب فأطارت عمامته، وتأوه مرة واحدة وتهاوى ليسقط، فأسرع على يتلقاه بين ذراعيه ليضعه فوق الأرض فى هدوء وهو يهمس :

كنت تريد أن تفضحنى يا أسطى أهذه أصول ؟

وبيد مدربة حاذقة كمم على الأسطى رجب وشد وثاقه شداً محكماً وهو يهمس

- لابد من هذا يا أسطى حتى لا يعرف أحد أننى سمعت ما دبروه الآن

ثم وقف ينظر إلى الأسطى رجب المكوم فوق الأرض حزمة من اللحم والشحم، وابتسم وهو يقول

- والآن وداعاً يا أسطى رجب وسلم لى على الفأر الذى يلعب شواربه

١٥

الميت الحى

قال سالم وعلى يحكى ما سمعه فى قاعة الزعر

- إن هذه الفكرة تشبه أفكار دليلة. ولولا أنها في بغداد لقلت إنها هى بنفسها هذا العايق العراقى الذى تتحدث عنه

- إن الفكرة جيدة ولكنها تعطينى الفرصة لتسوية جديدة لحساب العجل

فرفع سالم يده محذراً وهو يقول

- إن قبول صلاح لهذه الفكرة معناه أنه قد وصل إلى آخر مراحل اليأس، واليائس لا

يحجم عن شيء ولذلك أنصحك يا على أن تفوت عليه غرضه وتتركه بحيث يصبح بهذه الحيلة أضحوكة مصر كلها

- لا ، بل لا بد أن أريه أننى لا أخاف منه ومن رجاله إن الشراك التى يحيكونها تدفعنى دفعاً إلى تحديها والسخرية منها

ثم اتجه نحو الصندوق فى آخر الحجرة ففتحه وأخرج صرة ضخمة من الدنانير قدمها إلى سالم وهو يقول

- هذه الدنانير عليك أن توزعها على كل من يحترفون غسل الموتى فى البلد وأعط كل واحد عشرة دنانير حتى لا ينزل إلى ساحة المغسلين منهم أحد

فقال سالم وهو يقطب ما بين حاجبيه

- ألا تريدهم أن يجدوا فعلا لميتهم المزعوم مغسلاً ؟

فقال على وهو يغمز بعينه

- بل سيجدون مغسلا عبيطاً أبلهاً يوافق خطتهم تماماً ولن يجدوا غيره

فضحك سالم وهو يقذف بصرة الدنانير إلى الهواء ويلتقطها فى خفة وقال

- وسيكون هذا المغسل بالطبع هو على الزيبق

* * *

لم يكف صلاح الكلبى لحظة عن إبداء ضيقه بهذه الخطة

وانقباضه منها ولكنه أمام نظرات العايق العراقى الساخرة وتعليقاته اللاذعة كان يستكين صاغراً وهو يقول

- الأمر لله نموت يا اخوانا حاضر نموت

ولكن ما أن ارتفع الصراخ من ناحية بيته واستطاع أن يتبين صوت زوجته بين الصارخات حتى زاد انقباض قلبه، واشتدت معالم القلق فى حركاته المضطربة العصبية، وقال العراقى محاولاً تهدئته

- لقد بدأت الخطة، وأعتقد أنها ستنجح، فأصوات الصراخ حقيقية لا تدع شكاً لأحد

فقال صلاح وهو يضرب كفاً بكف

- أسمع بكاء الناس على بأذنى هل بعد هذه المصيبة مصيبة، لا يا جماعة إن قلبى منقبض وكأن صدرى به علة أنا غير مرتاح إلى هذا أبداً

وتناهى صوت عثمان من خارج القاعة فأسرع المقدم العراقى إلى صلاح يقوده إلى الفراش وهو يقول مواسياً

- الصبر يا مقدم ولابد لبلوغ الشهد من إبر النحل

وها هو عثمان قد أقبل ومعه المغسل، فهيا إلى الفراش وإياك والحركة.. إن هذا الجزء من الخطة يتوقف عليك وحدك، فاضبط أعصابك، وابذل كل جهدك أن لا يكشف المغسل أمرك.

وما أن استلقى صلاح على الفراش وأغمض عينيه حتى دخل عثمان ووراءه رجل عجوز شعث اللحية تبدو البلاهة واضحة فى

ميل فكه ونظرات عينيه الزائغة وحركاته العفوية المضحكة، وقال عثمان وهو يغمز بعينه للمقدم العراقى

- لم أجد غيره فى ساحة المغسلين

وجعل المقدم العراقى يتفرس فى المغسل الأبله وهو يجول وسط الحجرة دون هدف وقال

- ما اسمك يا أسطى ؟

واضطر المقدم أن يعيد سؤاله مرة ثانية قبل أن ينظر إليه المغسل وهو يقول فى دهشة

- أنا ؟!

- نعم أنت

- أنا عبد الله جاد الله عطا الله

وضج المقدم العراقى فى الضحك من الطريقة الغريبة التى نطق بها المغسل هذا الاسم المعقد، بينما رفع المغسل يده إلى رأسه بالتحية وهو يقول

- محسوبك

ثم جعل ينقل بصره بين من فى الحجرة وهو يقول

- وأين الميت

فقال عثمان وهو يخفى ضحكته بصعوبة

- ألا تراه على السرير أمامك

وقبل أن يتحول المغسل الأبله إلى الفراش كان يلوح بيديه ويصيح متظاهراً بالبكاء ويلطم على وجهه ويقول :

- هذا الكريم   يا رحمة الله عليه   يا خسارة. إنا لله وإنا إليه راجعون

فعرت الدهشة عثمان واقترب وهو يقول

- ما لك يا أسطى أتعرفه ؟

فعاد المغسل يلطم ويبكى ويتحسر وهو يقوم بحركات تزيد مظهره بلاهة وغباء وأخذ يقول

- إنه محسن كريم   كان يعطينى من خيراته   واسمه بالأمارة الحاج مبروك   كيف لا أعرفه   سبحان الباقى

فغمز المقدم العراقى لعثمان بعينه وقال له

- هذه حيل المهنة   ولكنه لا يتقنها

ثم صاح فى المغسل الأبله الذى كان سادراً فى بكائه وعويله

- هيا يا أسطى، غسل الميت   وكن رقيقاً   «فاهم»

- طبعاً فاهم   «فاهم تمام»   أين الماء والكانون

ثم شمر عن ساعديه وهو يتجه إلى الكانون يشعل تحته النار ليضع فوقه إناء الماء وهو يتمتم أثناء حركته البطيئة فى القاعة

- هو الحى   إنا لله وإنا إليه راجعون   يا دايم

وكان المقدم العراقى يتابع حركاته بنظرات كنظرات الصقر، وسرعان ما اقتنع أنه رغم بلاهة الرجل البادية فهو يتقن عمله ويعرف واجبه   فما أن ارتفع البخار من إناء الماء الذى أصبح يغلى حتى تقدم المغسل فعرى صلاح بمهارة وسرعة، ثم

أخذ يبسمل ويحوقل وهو يمر بالليفة والصابون برفق فوق صدره ويديه، وهو يجس الماء بيده ليضيف إليه ماء بارداً كلما أحس أن حرارته زائدة ثم التفت إليهم وهو يقول

- حرام عليكم يا جماعة تأخروا قليلاً فللميت حركة

وعلى الرغم من أن عثماناً كان يستمتع بهذه المهزلة، إلا أن الجدية التي كان الأبله يقوم بها بعمله جعلته يتراجع وقد أحس برهبة الموت وجلاله وقال العراقي وهو يسير إلى نهاية الحجرة

- حسناً يا أسطى، فقط عجل فلا وقت لدينا

وعاد المغسل الأبله يبسمل ويحوقل وهو يزيد النار اشتعالاً تحت إناء الماء. وما أن تأكد من ابتعاد الجميع عنه حتى أسرع يملأ الكوز بالماء المغلى ويرمى به بعنف فوق رقبة صلاح، الذى كاد يقفز من هول الألم، ولكنه تجلد وتماسك، واحتمل الألم وهو يعتصر عينيه اعتصاراً، وعاد المغسل الأبله يرفع صوته بالبسملة والترحمات على الفقيد ثم صب الماء المغلى من جديد فوق ذراعى صلاح الذى أوشك أن يصرخ مستنجداً وهو يسب هذا الحمار الذى يرمى الناس بالماء المغلى وسمعه وهو يهمس

- الماء ساخن لا بأس إن طعمه على الجلد لذيذ خذ هذا أيضاً فوق بطنك إن جلدك يصبح أنظف وأجمل وهو يحمر هكذا واقترب عثمان وهو يقول فى استرابة

- ماذا تقول يا أسطى ؟

فشوح له الأبله بيده وقال وهو ينهمك فى تحريك الليفة فى يده

- اقرأ القرآن يا ابنى أثناء الغسل، ابتعد حتى لا يتضرر الميت   ابتعد يا ابنى

وعاد عثمان يتحرك نحو المقدم العراقى وهو يقول

- أسرع   لقد طال الأمر، ولو ظللت تقوم بعملك بهذه السرعة ما انتهينا أبداً

فعاد المغسل الأبله يقول وهو يملأ الكوز من الماء المغلى

- حالاً يا ابنى حالاً   الله حى

ثم قذف الماء المغلى فوق وجه صلاح الذى هب ليقفز من مكانه ولكن يداً كالحديد سمرته فى مكانه وأحس بذبابة خنجر فوق بطنه، وصوت يعرفه تمام المعرفة يقول فى همس

- أعرفتنى الآن يا صلاح   أنا على الزيبق   ولو فتحت فمك، أدخلت خنجرى فى بطنك أتريد أن تموت حقاً يا صلاح صبراً لحظة حتى أذيقك طعم هذا الماء بين فخذيك فتلعن اليوم الذى استمعت فيه إلى هذا العايق العراقى وخططه

وكان صلاح قد تسمر فى مكانه، كان يعرف أن النجدة قريبة منه، وأنه لو صاح لما استطاع الزيبق الهرب، ولكنه كان يحس بذبابة الخنجر فوق بطنه تكاد تمزق جلده العارى وكان يعرف أن هذا الملعون الهازئ لن يتردد فى إغماد الخنجر حتى المقبض فى بطنه   ولكنه شعر بالخنجر يبتعد عن بطنه

ففتح عينيه على حذر ليرى ابتسامة الزيبق الساخرة تطالعه وعينيه الهازئتين تسخران منه   وقبل أن يتحرك من مكانه أحس بالماء المغلى يصب فوق فخذيه فصرخ وقفز من مكانه مذعوراً وهو يصيح متلعثماً

- الحقونى   حرقنى الملعون   حرقنى الزيبق

وصاح المغسل فى ذعر ورمى من يده الكوز وقفز يجرى وهو يفتح باب القاعة ويخرج إلى الزعر المتجمعين خارجها

- يا داهية دقى   كنا نغسل أمواتا، فصرنا نغسل أحياء أغيثونى يا عالم   الميت يصرخ   الجن تلبس فى جسد الميت

وسرعان ما أدرك الزعر أن شيئاً قد حدث فى القاعة فاندفعوا إلى الداخل وهم يتصايحون

- صحا الميت فى يد المغسل

- المقدم صلاح حى لم يمت

بينما كان صلاح يعوى كالملدوغ فوق الفراش

- إنه الزيبق   أمسكوه   أمسكوه

وأسرع العايق العراقى يجرى وهو يضع يده على سيفه ويصيح

- أمسكوا المغسل أمسكوه

ولكنه ما كان يستطيع أن يشق طريقه وسط الجموع الزعر المتدافعة إلى الداخل، وعاد يصيح

- الحقوه

فقال له أحد الزعر وهو يدفع به إلى الداخل دفعاً

- من ؟ !

- المغسل

- مسكين، لقد أصابه الذعر بمس فى عقله، وأخذ يجرى فى الشوارع كالمجانين

فقال الثانى وهو يدفع من أمامه ليسرع بالدخول

- لا بد أن الصدمة زعزعت عقله فقد كان من الأصل أبلهاً عبيطاً واستسلم المقدم العراقى للزحف الذى يدفعه إلى الداخل ومضى يضرب كفا بكف وهو يقول فى حنق

- بل أنتم العبط والبلهاء ها هو يهرب منكم ثانية وأنتم تسدون الطريق أمام من يطارده

وضاعت كلماته وسط صيحات التهنئة التى تعالت من الزعر مختلطة بتأوهات صلاح الكلبى الذى صرخ عندما رأى العايق العراقى يعود يائساً إلى القاعة

- أنا لا أعرف هذه المصيبة الجديدة إلا منك، فأنت صاحب هذه المشورة اللعينة

- ومن أين لى أن أعرف أن بين رجالك خونة

- خونة هل هذا هو مبررك لكل ما أصابنى خونة أنا بين رجالى خونة

- وهل هناك تفسير سوى هذا كيف عرف هذا الشيطان

بما دبرنا كأنه كان حاضراً معنا

وهنا ارتفع صياح جديد واندفع عثمان داخلاً وهو يدفع أمامه الأسطى رجب الذى كانت رأسه عارية وملابسه مهدلة وتمتماته المتعثرة تضيع فى زحمة الأصوات ، وقال عثمان

- ذهبت إلى المطبخ لأحضر زيتاً أدهن به حروق المقدم ، فوجدت الأسطى رجب مقيداً مكمما فى الكرار

فصاح صلاح فى دهشة

- مقيداً فى الكرار ؟ اقترب يا أسطى رجب ، ما القصة ؟

ووقف الأسطى رجب حائراً وكرشه يهتز والعيون المسلطة عليه تزيده اضطراباً ولعثمة ، ولكنه استطاع أن يجد صوته أخيراً فقال

- حسن الملعون ، الصبى الذى كان يعمل معى فى المطبخ وجدته يتلصص ويسترق السمع من الكوة الموجودة فى المطبخ ولما أردت أن أمسكه ضحك على وقال الفأر أكل العدس وهرب من الكوة ولعب له شواربه ثم ضربنى على رأسى بالطاسة وكتفنى وهرب

وصاح المقدم العراقى وهو يندفع إلى الأسطى رجب فيمسك ذراعه فى قسوة

- أرأيت إنه الزيبق ومن هذه الكوة كان يستمع إلى كل ما ندبر

وحين صاح الأسطى رجب ألما من ضغطة المقدم العراقى على

ذراعه صاح به صلاح

- وتدخل الزيبق إلى الكرار يا أسطى رجب

ثم ازداد انفعاله وهو يصيح كالملتاث

- الفأر يلعب شواربه عال رجب يأتى بالزيبق إلى الكرار، وعثمان يحضر الزيبق مغسلاً أنتم لا تصلحون أنتم لستم رجالاً فقال العايق العراقى وهو يترك الأسطى رجب الذى تهاوى إلى الأرض مستمراً فى تمتماته المذعورة

- ما هذا يا مقدم صلاح، فالذنب كله ليس ذنب الرجال وحدهم فصاح به صلاح وهو يضع عباءة على جسده ويقفز من فوق الفراش

- وأنت أيضاً، أنسيت أن كل ما حدث لى هو من سوء تدبيرك

- سوء تدبيرى أم سوء تنفيذك ؟

- لم يعد ينطلى على مثل هذا الكلام

ثم اتجه إلى العايق العراقى وواجهه فى تحد وقال فى صوت ملىء بالشك

- أنا أريد أن أعرف من أنت ؟

وفى هدوء واجه المقدم العراقى عاصفة المقدم صلاح وقال

- لم يؤن الأوان بعد

- بل لن تغادر هذه القاعة قبل أن أعرف حقيقتك يا عثمان .. أغلقوا منافذ الردهة

فتقدم العايق العراقى رافعاً يده إلى أعلى مشيراً إلى عثمان بالتوقف وهو يقول

- الأمر لا يحتاج إلى كل هذا يا مقدم صلاح أتريد أن تعرف من أنا حسناً هذه هى اللحية

وبعيون تكاد تخرج من محاجرها شاهد صلاح المقدم العراقى ينزع لحيته فصاح

- لحية مستعارة آه هذا هو ما ظننت

وبهدوء شديد مضى العراقى يزيل تنكره وهو يقول

- وهذا هو الشارب، والشعر المستعار والآن أتعرف من أنا

فبهت صلاح وجعل يتأمل فى وجه العراقى وهو يتراجع كأنما رأى شبحاً وهتف

- دليلة هل هذا معقول ولكن قالوا إنك مازلت فى العراق.

فقالت دليلة وهى تزيل باقى تنكرها

- منذ دخلت القاهرة وأنا أسمع عما يفعله بك هذا العايق الجديد، فشئت أن أتريث فى الكشف عن قدومى حتى أعرف جلية الأمر

- ولكن العزيز سيغضب لأنك لم تذهبى إليه فور وصولك

فقالت دليلة وهى تجيل النظر فى الوجوه المتطلعة إليها

- إنه لن يغضب إذا قدمت له رأس هذا العايق الجديد الذي

نال من هيبتك وبالتالى من هيبة العزيز على طبق، هدية وصولى إلى القاهرة   فصاح صلاح وهو يلوح بيده فى استهتار بحديثها المتعالى

- ما أسهل الكلام   لقد رأيت بعينيك ما فعل بى هذا الشيطان

- ومن يكون هذه النكرة   أنسيت، أنا دليلة

- ولكنه أفسد عليك بالفعل تدبيرين من تدابيرك التى أشرت بها

- هذا صحيح، لقد كان يمرح حراً لأن أحداً لا يعرفه، أما الآن فأنا أعرفه

- تعرفينه   كيف ؟

- ألم يقف معى طوال الفترة التى كان يتظاهر فيها بأنه يغسلك   ؟

فقال صلاح

- هذا صحيح   ولكنه كان متنكراً

وقال عثمان

- وكلنا رأيناه أكثر من مرة   ولكنه كان فى كل مرة يبدو فى صورة جديدة

فابتسمت دليلة وهى تقول

- أما على دليلة فالأمر يختلف لأن لى عيناً تكشف كل خبىء، وبصرا يحفظ الوجوه مهما تخفت وتنكرت .

وتركت صلاح الكلبى واقفاً وقد لف جسده فى العباءة وعثمان ينظر إليها فى بلاهة بينما الأسطى رجب فوق الأرض يأتى بإشارات مضحكة بائسة والوجوه تتطلع إلى دليلة ذات الاسم المخيف، وأغلقت الباب وراءها وذهبت

١٦

على وزينب

قالت زينب لأمها بعد أن استمعت إلى ما حدث فى قاعة الزعر

- حقاً إنه لجرىء القلب ذكى الفؤاد يقف إلى جوارك وهو هادئ لا يهتز له عصب، ويعذب صلاحاً الكلبى أمام عيونكم جميعاً دون أن يخشى بأسكم

وأخذت زينب تضحك، بينما قطبت دليلة حاجبيها وهى تقول:

- لقد كان المغفل يئن والخنجر فى بطنه دون أن يجرؤ على الصياح، ولو فتح فمه

بكلمة واحدة لكان قد أراحنا الآن من هذا المغرور

فقالت زينب وهى تبتسم

إن هذا الفتى لا يخلو من دعابة محببة وكم أود أن أراه

فقالت دليلة وهى تلوح بيدها مهددة

- سترينه وهو متعلق إلى حبل المشنقة

- ولكنه يا أمى فعل بصلاح الكلبى الأفاعيل

- ومن يكون صلاح الكلبى إلى جوار دليلة ؟

فزوت زينب ما بين حاجبيها الدقيقين، ولمعت عيناها الواستعين وهى تقول

- قلبى يحدثنى أنه ليس كمن قابلت حتى الآن من الأعداء.

- طبعاً، هو ليس كمن قابلت فإن فراستى لا تخطىء، ولست أشك فى أنه فتى صغير السن، ربما لا يزيد عنك عاماً أو عامين.

فهزت زينب رأسها الحلو وهى تقول فى رقة ولين

- أليس حراما عليك يا أمى أن تدمرى شبابه ؟

- ومتى عرفت دليلة معنى الحرام والحلال ؟ لقد هزأ بى هذا الملعون مرتين، حين دبرت لصلاح خطتين لاعتقاله فأحبطهما، وبذلك جعل الخصومة قائمة بينى وبينه

وضربت دليلة قبضتها بكفها وعيناها تلمعان وهى تقول فى بطء وإصرار

- والويل له

وكانت زينب تعرف هذه النظرات حين تلمع فى عينى أمها جيداً إنها نظرات الشر شيء يخيفها فى أمها، شيء يجعل بينهما مسافة لا يمكن أن تعبرها زينب، ولكنها تعودت على هذه النظرات، فيها القوة والذكاء، وفيها التصميم المخيف الذى تعنو له جباه الرجال كم رجل انطوى وهان حين قررت دليلة أن يهون، كم رجل أخاف الناس وهابه كل العياق، وحين قررت دليلة غدا نسياً منسياً، لا شيء، قصة تروى، وصدى يتردد ثم يروح ويطويه النسيان. كم تخاف زينب هذه النظرات وكم تحبها وتنهدت فاهتز نهداها ثم قالت فى صوت كالهمس

– قلبى منقبض يا أماه ولست أدرى لماذا ؟

واندفعت أمها فى حماس وهى لا تكاد تحس بما يعتمل فى صدر ابنتها من مشاعر

– نحن نتفوق عليه فى كل شيء، فهو يحذر صلاحاً ورجاله ولكن لا يأخذ حذره منا لأنه لا يعرفنا، ونحن نعرفه ونعرف عنه أنه شاب صغير وأنه شهم نعم هو شهم، وهذه الصفة ستتيح لنا أن نناله من أقرب السبل

فقالت زينب فى دهشة

– شهم ومن أين عرفت بأمر هذه الشهامة ؟

– ألا يحكون عنه أنه يأخذ من صلاح ليعطى الفقراء والمحتاجين، ومن نالهم من بطش صلاح وظلم العسف والجور . .

إذن فهو شهم رقيق القلب

فردت زينب وهى كالحالمة

- شاب صغير بمثل هذا الذكاء وبمثل هذه الشجاعة والصلابة وشهم أيوجد مثل هذا الإنسان حقاً يا أماه ؟

ولكن أمها كانت بعيدة عنها ، كانت تكمل الخطة التى بدأت خيوطها تتجمع فى رأسها ، فقالت

- لو رأى فتاة حسناء جميلة رقيقة مثلك تستغيث من رجل فظ غليظ فماذا يفعل ؟

فابتسمت زينب وهى تسوى بيدها خصلة نافرة من شعرها ، وقالت كالحالمة

- يخف إلى نجدتها بطبيعة الحال

ولكنها أجفلت فجأة وقد بدأت تدرك ما فى رأس أمها من أفكار وقالت فى تؤدة

- ولكن من الرجل الفظ الغليظ

فقالت دليلة وهى تبتسم فى خبث

- أنا وسألقن صلاحاً ما يفعل ، وسيقع الفأر فى المصيدة

ورفعت زينب يدها فى احتجاج وهى تهتف

- ولكن أنا أنا لا أحب أن أشارك فى هذه الخطة

فزادت ابتسامة دليلة اتساعاً وهى تقول

- بل ستعاونين يا زينب فأنا فى حاجة إليك

وأحست بنظرات أمها تحرق صدرها ، تملأ قلبها كله ، كانت

تعلم أنها لا تستطيع أن ترد لها رغبة أو أن تقف أمام حاجة تريدها منها   وسمعت صوت أمها يقول فى حزم

– لا بد أن أنتصر يا زينب ، أم تريدين القاهرة أن تضحك علينا كما ضحكت على صلاح الكلبى ؟

وخفق قلبها فى عنف ويدها تهبط إلى جنبها فى يأس وكانت تعلم أنها ستنفذ ما تريده دليلة   ستكون الشاة التى تقود الأسد إلى الفخ   ولم تستطع أن تمنع دمعة تسللت إلى عينها   وهى تهز رأسها موافقة لأمها   وقالت وهى تغالب إحساساً غريباً بالضعف يملأ قلبها

– حسناً   متى نبدأ   ؟

* * *

قال على الزيبق لسالم وهما فى الحجرة التى اتخذها على مقراً مؤقتاً له فى بستان بيت أمه

– لقد كانت الطاقة فى كرار الأسطى رجب تطلعنى على كل شىء ، أما الآن فأنا أحس أننى أتخبط فى الظلام

فقال سالم

– لست أشك الآن أن العايق العراقى هو دليلة نفسها ، وأنصح لك أن تكف عن كل شىء حتى تغادر القاهرة

فقال على فى عناد

– دليلة أو لا دليلة   إن معركتى مع صلاح الكلبى قد وصلت إلى ذروتها ، وبعد كل الذى فعلته به لا يمكننى الآن أن

أتراجع   وإن تعذر على أن أعرف الأخبار من كرار الأسطى رجب فسأجول فى الأسواق متنكرا وتحت ثيابى سيف، لأعرف ماذا يدبر صلاح وهذا العايق العراقى الجديد

فرفع سالم يديه مستسلماً وهو يقول

لا تقل إننى لم أحذرك   لو صدق ظنى وكان هذا العايق هو دليلة فلن تظل طليقا مدة تسمح لك بأن تدرك ما يحدث حولك.

ظل على الزيبق ينتقل من مكان إلى مكان يتسمع أحاديث الناس ويرقب الزعر المنبثين فى كل مكان باستخفاف وجرأة والواقع أن ما سمعه من أحاديث الناس زاده استهتاراً بصلاح ورجاله ففى كل مكان كانت السخرية المقنعة والنكات المرة تنطلق من أفواه الناس همساً وعلانية كلما خلا الطريق من الزعر   ومن هذه الهمسات الساخرة أدرك على الزيبق أنه قد هزم غريمه هزيمة ساحقة وألبسه عارا ما عليه من مزيد واستدار يشق طريقه نحو البستان وقد هدأت نفسه وملأه زهو حقيقى، حين التقت عيناه بعينيها   كانت عينان واسعتان تنطقان بأشياء كثيرة، إلا أن الذى استلفت عليًّا لم يكن جمال العينين فحسب، وإنما تلك النظرة المذعورة الخائفة التى تجلت فيهما   وسرعان ما أدرك أنها مطاردة   كانت تسير بسرعة مهرولة وخلفها يشق فارس طويل جموع الناس فى خشونة

وعنف وهو لا يحول عينيه الغاضبتين عنها وسرعان ما أدركها الفارس فأمسك بكتفها، وارتفعت صيحتها الحادة تشق ضجة السوق فتصمت الضجة وتموت ويسمع الجميع صوت الفارس الأجش وهو يقول لها فى عنف

- إمشى معى ولا تفتحى فمك لن يستطيع مخلوق أن يخلصك من قبضتى هيا سيرى وأسرعى

وجذبها فى عنف فتمايلت وكادت تقع على الأرض ولكنها تشبثت بالأرض وهى تصيح

- اتركنى أيها الوحش النجدة النجدة

وتلفتت فى ذعر حولها وهى تواصل صياحها

- ألا يخلصنى أحد من هذا الوحش المتجبر ؟

وهمس واحد إلى جوار على فى نبرات صوته خوف متردد

- لعله زوجها

ورد عليه آخر وهو يشيح بوجهه متظاهراً أنه لا يرى مما يحدث أمامه شيئاً

- أو لعله أبوها ما لنا يا عم. ألا ترى السيف فى جنبه والشرر يتراقص فى عينيه

وكان الفارس قد تمكن من التغلب على مقاومة الفتاة فمضى يجرها جراً وهى تواصل استرحامها للناس دون جدوى، فقد كان منطق السيف المعلق فى جنب الفارس أقوى من دافع صراخها، وأصر على على أسنانه وهو يهمس لنفسه :

- آه يا أنذال الرجال أليس فيكم نخوة ؟

ورغم كل ما كان يأخذ به نفسه من أسباب الحذر، وجد نفسه مندفعاً تجاه الفتاة وقد أخذت الدماء تجرى حارة فى عروقه، والغضب العارم يجتاح نفسه وما أن لمحته الفتاة حتى عادت تحاول التشبث بالأرض بإصرار وهى تشير نحوه وتصيح

- أنا فى جيرتك يا فتى بحق دينك خلصنى من هذا الجبار وكان على الزيبق قد أصبح أمامهما فصاح فى الفارس وهو يمد يده ليمسك مقبض سيفه من تحت ثيابه

- خل سبيل هذه الصبية وابتعد عنها

فدفع الفارس الصبية بعيداً ثم واجه عليا والغضب يلمع فى عينيه وصاح به

- بل ابتعد أنت يا صغير واذهب لعل أمك تبحث عنك

وبدا الصوت لعلى أليفاً كما بدا له أن شكل الفارس ليس غريباً عنه، ولكنه لم يتريث لحظة أمام كلمات الفارس المستفزة فلطمه بجمع يده على وجهه لطمة أرسلت به متكوراً إلى الأرض، ثم استل حسامه من غمده تحت الثياب ووقف ينتظر وقام الفارس فى بطء وهو يتحسس مكان اللطمة ويجيل عينيه فى الجمهور الصامت المحتشد الذى أخذ يرقب ما يجرى أمامه فى سكون كامل ثم استل حسامه بدوره وتقدم نحو على وهو يقول:

- أتتعرض لمثلى يا فتى .. إذن لقد حانت ساعة منيتك

وقال على والسيفان يلتحمان فيسمع للقائهما صليل مخيف

- ما دمت تريد الموت فمرحباً بك فى دنيا عزرائيل

وشهقت الفتاة والفارس يوجه إلى على ضربة ماهرة، تجنبها على بسهولة وعاد السيفان يلتحمان من جديد ووجد على فى خصمه فارساً ماهراً عليماً بضروب القتال ماهراً فى تجنب الحيل والتخلص من الشراك إلا أنه كان يعرف أن دخوله فى معركة خطر عليه فكل الأرصاد قد بثت للبحث عنه والعثور عليه ووقوفه هكذا فى وسط الطريق يبارز غريباً مجهولاً هو الحمق بعينه بل هو الإعلان عن وجوده لأعدائه، فتراجع وهو يصد ضربات غريمه فى مهارة ثم لجأ إلى حيلة علمها له سالم فكشف صدره وهو يتظاهر بالوقوع، وما أن اندفع الفارس ليشق الصدر المكشوف بسيفه حتى تحول على وأطاح بسيف غريمه فى حركة ماهرة

وشهقت الفتاة شهقة خيل لعلى أنها تحمل معنى الذعر، بينما صدرت من الجماهير أصوات الدهشة والإعجاب، ووقف الفارس ينظر إلى سيفه الملقى فوق الأرض فى حيرة وقال على وهو يسترد أنفاسه اللاهثة

- التقط سيفك أيها المغرور

وتراجع الفارس بظهره إلى الوراء وبصره معلق على سيف

على الزيبق وفى عينيه نظرة مستريبة وجلة ثم انحنى يلتقط سيفه، وقبل أن يدرك أحد ماذا سيفعل، انطلق يجرى بملء قوته

وكاد على أن يهرع وراءه لولا أن أحس بيد الفتاة الناعمة توضع على كتفه فى رقة وهى تقول

ارجع يا فتى، فكفى أنه هرب من أمامك ولا تنجس سيفك بدم كلب مثله

وقال واحد من الواقفين

- أرأيت، لقد هرب من أمامه

وقال آخر فى انبهار

- لا شلت يدك يا فتى

بينما قال على للفتاة وهو يعجب من لهجة الابتهال فى حديثها

- إن القتل لمثله حلال

فعادت الفتاة تمسك بذراعه وهى تقول

- أعرف، ولكن هل تريد أن تتركنى فى وسط الطريق؟ لقد صرت لا آمن على نفسى إلا إلى جوارك فأكمل جميلك وسر معى لتحمينى حتى بيتى

وتردد على الزيبق لحظات وقال واحد من المتزاحمين

- إنها حلوة والله إنها حلوة

وقال آخر

- إن لمثلها يقتتل الرجال لنيل الحظوة لديها .

وقالت الفتاة فى صوت كله ضراعة

- أيرضيك أن أسير وحدى وسط هذه الذئاب . ؟ هيا معى وحياتى هيا

ولم يطل تردد على الزيبق ، فأمسك بذراع الفتاة ومضى يشق لها طريقاً وسط الجموع ، إلى أن خرج بها من الشارع المزدحم فابتسمت الفتاة فى وجهه وهى تقول فى دلال مشيرة بيدها إلى طريق خال

- بيتى من هنا . .

ثم سارت أمامه بقدها الأهيف يميس كالغزالة الشاردة ، وعلى يتبعها وقد استبد به القلق

١٧

الصندوق

ظل على يسير وراء الفتاة من شارع إلى شارع ومن حارة إلى حارة وقد نسى حذره وحرصه، بل نسى صلاحاً الكلبى ورجاله وجواسيسه، ولم يعد يلقى بالاً إلا إلى هذه الفتاة التى تتخطر فى سيرها كأنها نسيم ربيع شذى، وكانت تلتفت إليه بين الحين والآخر لترسل له بسمة حانية تبعث فى قلبه دفئاً غريباً وتملأه بوجيب لم يحسه من قبل   ووقفت الفتاة أخيراً أمام بيت كبير وهى تقول بصوت رقيق عذب :

هذا بيتنا

فمد على يده وهو يتنهد منتزعاً نفسه من أحلام يقظته وقال

إذن أستودعك الله   فالآن أنصرف

ومدت يدها تمسك بيده الممدودة وضغطت عليها برفق ثم همست فى دلال

حتى أفتح الباب

وظل على واقفاً يتابع حركاتها وهى تخرج مفتاحاً ثقيلا تفتح به الباب الضخم الذى كان لصوت فتحه صرير ثقيل مزق السكون الذى يملأ الحارة كلها ، ووقفت الفتاة فى الفرجة المفتوحة وهى تقول

- هلا دخلت

وفى غباء همس على من بين شفتين جافتين

- أنصرف أنا

وأمسكت به الفتاة فى رفق وهى تهمس

- لا يمكن أن أدعك تنصرف قبل أن أعبر لك عن شكرى لشهامتك ورجولتك

واستطاع على فى صعوبة أن يجد صوته الهارب فقال

- لا شكر على واجب   ما كنت أستطيع أن أتركك فى يد هذا المجرم   أنصرف أنا

- لا لن تنصرف   هل تكسر بخاطرى   ولو شربة ماء

وتكسر جفناها والتوت شفتاها فى غضب مفتعل ووجد

على نفسه ينساق للمستها وهو يقول

- إذا كانت شربة ماء فلا بأس

وقادته الفتاة إلى فناء واسع وأغلقت الباب خلفهما وهى تقول :

- آه هذا عظيم منك كم أنت لطيف يا فتى اتبعنى

ووجد على نفسه فى قاعة جيدة الأثاث لها مشربيات تطل على الحارة، وقد علقت على الجدران أسلحة عتيقة وصور لفرسان أسطوريين واستراحت أعصابه للجو الهادئ الرطب ولصوت الفتاة التى تضاحكت وهى تنحنى أمامه فى معاتبة وتقول فى دلال

- ها أنا أمتك المقرة بفضلك بين يديك، فاطلب ما تشاء. وأمر تجد فى الحال

فابتسم على لأول مرة منذ بدأت قصته مع الفتاة فى السوق المزدحم، وقال فى هدوء وهو يتأمل وجهها الجميل

- يا فتاة أنا لا أريد شيئاً لقد اطمأننت عليك وها أنت آمنة فى دارك وأنصرف أنا

- لقد وعدت أن تأخذ شربة ماء

وتأمل إصبعها الدقيق وهى تشير إليه به معاتبة فعاد يبتسم وهو يقول

- لا بأس شربة ماء وأنصرف

وسارت أمامه رشيقة متأودة، مليئة بالحياة والدلال والرقة . .

وعلى مائدة فى زاوية القاعة قام إبريق ضخم صبت منه الماء فى كوب ، ثم عادت إليه تحمله وهى تبتسم

ولكن شيئاً سمعته جعلها تقف متسمرة فى مكانها ، وأرهف على سمعه ، وسرعان ما أدرك أن هناك ضجة تقترب من باب المنزل   وتعالت الضجة ثم وقفت تماماً أمام البيت ، وسمعا صوت الفارس الأجش الذى هرب أمام سيف على يصيح من خارج الدار

- هذا بيتها يا مولاى

وانتبه على صوت الكوب يقع من يد الفتاة فينكسر وينكب ماؤه على البساط بينما رفعت الفتاة يدها إلى فمها تكتم صرخة كادت تخرج من بين شفتيها ، وفى عينيها ارتسم الذعر واضحاً جلياً

وتلفت على حوله فى قلق   كان لا يعرف مخارج البيت ومداخله وإن عرف هل يرضى أن يترك الفتاة تواجه هذا الخطر الجديد ويهرب هو   واقترب منها وقال فى همس

- ما هذا ؟؟

ورفعت إليه عينين مذعورتين وهى تقول

- لا أدرى   هيا ننظر من المشربية

وتبعها على ووقف إلى جوارها ينظر من خلال فتحات المشربية ، وغاص قلبه وانقبض صدره ، بينما أحس بالفتاة إلى جواره تهتز فى عنف وهى تهمس

- هذا هو الوالى ومعه خمسون من الزعر المسلحين

فمد على يده فوق كتفها المهتز فى رعب كأنما يحاول أن يبث فى قلبها سكينة لا يجدها، وهمس

- وهذا هو الفارس الغليظ الذى كان يضايقك فى السوق

وارتفع صوت الفارس وهو يشير بيده إلى المنزل ويقول

- إن هذا البيت يا سيدى الوالى لصبية عاهرة يقصدها فساق البلد، وصاحبها معها الآن فى البيت

واشتد اهتزاز كتف الصبية فهمس على فى حنق

- الويل له   هذا الكذاب الملعون

بينما جاءهما صوت الوالى يقول فى لهجة آمرة

- لا تسب الناس أيها الفارس. فأنا أعهد أن أهل هذا البيت أحرار. أما إن كنت صادقاً فأنا أشنق المرأة وصاحبها على باب البلد وإن كنت كاذباً تكون أنت المشنوق

وأحس على بالقلق والاضطراب يعتريان نفسه فهمس للفتاة

- ألا يوجد مخرج لهذا البيت ؟

فقالت فى صوت مضطرب

- لا يوجد إلا الباب، وهم واقفون أمامه

وارتفع صوت الفارس مرة أخرى وهو يقول

- نعم الكلام يا سيدى الوالى، فلنطرق الباب ولنفتش البيت..

وتعالى صوت الطرقات على الباب بينما اشتدت الضجة وارتفع الصياح. ووثب على إلى وسط القاعة وقد امتشق حسامه ومضى يتلفت حوله بسرعه محاولاً أن يحدد أصلح الأماكن للقاء هذا الجمع الحاشد وقد وطن نفسه على القتال حتى الموت، واقتربت منه الفتاة مذعورة وهى تقول فى هلع

- ما العمل ؟ لو وجدوك لشنقونى

فقال على وهو لا يستطيع أن يحول نظره عن وجهها الرقيق

- لا بأس، اتركيهم وأنا لهم لقد حميتك مرة وسأحميك مرة ثانية

فتشبثت بذراعه والتصقت به فملأ العطر الذى يفوح من شعرها صدره وقالت وهى ترتجف بين ذراعيه

- هل تظن أنك قادر على مواجهتهم جميعا سيقتلونك حتما فهمس وقد أسكره شذى أنفاسها اللاهثة

- لا بأس ليس أحب إلى من أن أموت دفاعاً عنك

فازدادت به التصاقا وازداد جسدها ارتجافا وهى تقول

- وأنا ألست سأواجه الشنق حتما اقتلنى بسيفك لو أردت ولكن لا تدعهم يشنقونى

واضطرب على ووقف حائرا لا يدرى ما يفعل، بينما ازدادت الطرقات شدة وازدادت الضجة عنفا، وهمست الفتاة فجأة وهى تنفلت من بين ذراعى على وتمسك بيده قائلة :

- هذا الصندوق   هذا الصندوق

وتبع على إشارتها إلى صندوق كبير فى آخر القاعة وقال

- ما له ؟

وازداد صوتها ضراعة وهى تبكى وتمسك بطرف ثوبه

- اختف فيه   فلن يبحث أحد عنك هنا، ومتى فتشوا البيت ولم يجدوا أحداً انصرفوا ونجونا

وامتعضت نفس على من الفكرة فجذب يده منها وهو يقول :

- ليس هذا حلا

- بل هو الحل، إن فيه نجاتى، فلا تفضحنى وسأغلق عليك الصندوق بالمفتاح   أسرع بربك أسرع

ووجد على نفسه من جديد منساقاً إلى لمستها وهى تفتح الصندوق الضخم وتدفعه فيه دفعاً، ثم تغلق عليه الصندوق بالمفتاح، بينما سمع صوتها واضحاً جلياً وهى تسرع نحو الباب قائلة

- حالاً   حالاً   أنا قادمة.. من الذى يزعج الناس هكذا ؟

ومن مكمنه فى الصندوق سمع على الباب يفتح وجمعاً كبيراً يتدفق إلى القاعة، وكانت الأصوات تصله جلية واضحة فما كان خشب الصندوق الرقيق يحجب عن سمعه المرهف شيئاً مما يدور فى القاعة، وصاح الوالى بصوت أحس على أنه يعرفه تمام المعرفة وإن لم يستطع أن يذكر صاحبه :

- فتشوا البيت كله حجرة حجرة، لا تتركوا مكاناً إلا نظرتم فيه

وارتفعت أصوات الأقدام وهى تغادر القاعة، بينما أخذت تتناهى إلى سمع على أصوات عديدة من كل أرجاء المنزل تدل على أن الزعر يقلبون عاليه سافله وأحس على بالعرق البارد يملأ جبهته ورقبته ومد يده بحثاً عن سيفه فلم يجده، وأدرك أنه تركه فى يد الفتاة وهى تدفعه إلى الصندوق فعض على شفتيه حنقاً وقهراً ما الذى جعله يوافق هذه الفتاة على الهروب فى مثل هذا المكان وكان يستطيع أن يبيع حياته غالية وأن يموت ممسكاً سيفه وقطع عليه تأملاته الخانقة أصوات أقدام الزعر الثقيلة وهم يعودون إلى القاعة، وقال صوت أجش

- فتشنا المكان كله يا سيدى الوالى، ولا أحد فى البيت

وارتفع صوت الفارس الغليظ يقول

- ولكنك لم تفتش هذا الصندوق يا سيدى الوالى

ووجف قلب على وحبس أنفاسه فى توفز وقد تقبضت يداه فى عنف ومرت لحظات بطيئة ثقيلة مرة، سمع بعدها صوت الوالى يقول فى تشف غريب

- أمسكوه قيدوه أمسكوه جيداً

وأمام على كان كل شىء يدور، كانت الأيدى تدفعه، الأقدام تركله، القبضات تنهال عليه، الحبال تشد جسده، تحيط برسغيه، تضغط على صدره ثم توقف كل شىء وبدا أمامه وجه ملثم تطل منه عينان ما كرتان تلمعان ببريق رهيب،

وسمع صوت الوالى يقول

- وقعت أخيراً يا زيبق أتدرى من أنا ؟

وتمالك على جأشه ونظر فى العينين الحاقدتين فى هدوء وقال :

- الوالى

- لا سأرفع اللثام لتعرف انظر

وامتدت يد الوالى ترفع اللثام، وأمامه كان وجه كريه ملىء بالبثور والحروق، وجه يعرفه على تماماً فقال وهو يحس يدا تعتصر قلبه عصراً

- صلاح الكلبى

وارتفعت يد صلاح الكلبى لتلطمه فى عنف وهو يقول فى كراهية جارفة

- نعم يا كلب العياق صلاح الكلبى الذى تجاسرت عليه وهزأت منه صلاح الذى مزقت ظهره وحلقت لحيته وسلقت جلده صلاح الذى سيأخذ منك الآن ثمن العجل حياتك نفسها آن الأوان لكى أنتقم منك

وما كان على يسمع حديثه الداوى وصوته الذى أوشك أن يصبح صراخاً، فقد كان بصره عالقاً بالفتاة التى من أجلها سيدفع الآن حياته رخيصة كانت تقف بريئة جميلة رقيقة إلى جوار الفارس المقيت الذى كانت تحاول أن تهرب منه فى السوق ولم تكن مذعورة ولا خائفة بل كانت تقف وقفة

المطمئن الذى لا يخشى شيئا وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ولم تستطع أن تواجه عينيه فأطرقت وأدرك علي والغصة تملأ حلقه أنه كان ضحية الغدر، فأشار برأسه إليها وقال فى صوت بذل مجهوداً خارقا ليبدو هادئا

- ولكن هذه من تكون

ولم يجبه صلاح، وإنما تقدم منه الفارس وقال فى صوت غريب لا يشبه الصوت الذى سمعه منه منذ قليل وهو يصيح عند الباب

- هذه ابنتى يا شاطر

واقترب منه الفارس وقال بصوته الغريب الذى خيل لعلى أنه أقرب إلى أصوات النساء

- ألا تعرف من أنا

وفجأة عرف على الفارس فعض على شفته وهو يقول

- أذكرك الآن، أنت العايق العراقى

ومد الفارس يده فرفع اللحية والشارب، ولدهشة على ظهر من خلفه وجه امرأة ناضجة تنطق ملامحها بالقسوة والشر وإن لم تخل من الملاحة، وأحس أن هناك شبهاً غريبا بين هذا الوجه ووجه آخر يعرفه، وسمع صاحبة الوجه تقول وهى تبتسم ابتسامة بغيضة

- بل أنا دليلة يا فتى وزينب التى خدعتك ابنتى، وأنت كما ترى لست إلا ألعوبة صغيرة فى يدها أعرفت قدرك. ؟

ثم قالت فى صوت بغيض

- أنظر وتذكر هذا الوجه جيداً وأنت على حبل المشنقة

وشهقت الفتاة وهى تقول فى لهفة

- المشنقة ولكن يا أماه

فدفعتها أمها وهى تقول

- اسكتى أنت فليس هذا شأنك خذه يا صلاح

ودفعه صلاح الكلبى فى قسوة وهو يقول لرجاله

- أركبوه على ظهر حمار، ودوروا به فى الأسواق ونادوا عليه فى الحوارى والأزقة ثم خذوه إلى الرميلة وقرة ميدان وهناك اشنقوه فى وسط الميدان وعلقوا على صدره رقعة اكتبوا عليها هذا على الزيبق الذى لا يعرف أباه أمسكه صلاح الكلبى وأنفذ فيه قضاه فليعتبر بمصيره كل من يراه هذا مصير كل من يخالف صلاح ويعصاه

وامتزجت ضحكات صلاح بصيحات الرجال وهم يدفعون علياً فى عنف أمامهم. وسمع والأيدى تتقاذفه صوت زينب يصيح فى لهفة

- على على

وحين عاد ينظر إليها كانت تبكى وتصرخ، وأمها تضمها فى قسوة وتشل حركتها تماما بينما انفتح باب الدار وأحس على بنفسه يدفع دفعاً وسط جمع من الزعر الغاضبين ينهالون عليه مع كل خطوة يخطوها ركلاً وضرباً وسباباً وسخرية .

١٨

حبل المشنقة

لم تكف زينب عن البكاء لحظة منذ غادر على القاعة وسط الرجال، وظنت دليلة أن الأمر لا يعدو أن يكون صدمة سببها حكم الموت الذى صدر على الفتى لا يلبث أن يزول ولكن بكاء الفتاة كان يزداد عنفاً ومرارة فاقتربت منها وهى تقول مربتة على كتفها

- ألا تكفين عن البكاء يا زينب ؟

فقالت زينب وسط نحيبها :

لن أنسى نظرته إلي يا أمي أبدا

فاندفع صلاح الكلبى يقول

نظرات كلب يعقر ، فأر وقع فى المصيدة ، ماذا كنت تظنين نظراته ستكون وهو يساق إلى المشنقة ؟

ولم تلق زينب إليه بالاً بل قالت بين شهقاتها وزفراتها

- ما كنت أظن اللعب ينقلب إلى جد أبداً

وضحك صلاح وهو يفرك كفيه فى اغتباط ويقول

- اللعب   هل التعدى على مقام المقدمين لعب

ثم كف عن ضحكه فجأة ونظر إليها فى حدة وهو يقول فى استرابة

- إياك أن تكونى قد عشقت الفتى   فالأفاق فعلا كالقمر تعشقه البنات

وأحست دليلة أن صلاحا يثقل على ابنتها فتقدمت منه وهى تقول

كفى يا مقدم   إن زينب ابنتى وأنا أعرفها   وليست هذه أول مغامرة تخوضها

فصاح صلاح والريبة لا تفارق نظراته

- وهذه الدموع

- إنها رقيقة القلب يا مقدم ، والفتى بالفعل صغير

فقالت زينب وهى تجهش من جديد بالبكاء

- لقد تسببت فى موته   ولولاى ما لقى مصيره جزاء

شهامته ومروءته

فصاح صلاح وهو يضرب فخذه بكفه الغليظة

- قلت لك البنت أحبته

فصاحت دليلة وقد بلغ ضيقها من صلاح أشده

- وأنا قلت كفى يا مقدم

ثم التفتت إلى ابنتها وهى تقول فى حزم

- وأنت يا زينب كفى هذه العبرات، واغسلى وجهك وأعدى ثيابك فسنزور الآن العزيز، ونستطيع أن نقول له دليلة هنا   وحيث تكونِ دليلة لا يرتفع صوت إلا صوتها

وكانت تنظر إلى صلاح نظرات حادة ذات مغزى لم يخف على صلاح الذى انكمش وهو يفسح لها الطريق تقود ابنتها إلى الحجرة الداخلية

كان الناس فى الشوارع مزدحمين كأنهم فى مولد أو يشهدون طلعة المحمل   بينما يتقدم موكب عجيب وسط الطريق يثير فى قوم الشفقة، ويثير فى آخرين السخرية   كان الموكب يتقدمه حامل الطبلة يدق دقات رتيبة يعرفها أهل القاهرة جيداً ويعرفون أنها تعلن أن هناك من يساق إلى مصرعه

وخلف حامل الطبلة حمار أجرب أعرج يسير فى بطء وبلادة وفوقه جلس فتى صغير مشدود الوثائق ثابت النظرات رابط الجأش ترتسم على شفتيه ابتسامة ساخرة ووراءه يسير المنادى

وهو يصيح على وقع دقات الطبلة

- هذا على الزيبق الذى لا يعرف أباه   أمسكه صلاح الكلبى وأنفذ فيه قضاه   فليعتبر بمصيره كل من يراه

وقال واحد من الواقفين على جانبى الطريق

شاب كالقمر خسارة يا جدعان

فقال آخر وهو يرمق بحذر عثمانا الذى يسير خلف المنادى وأمام مجموعة من الزعر المسلحين

- ظن نفسه من رجال صلاح   إن صلاحاً يا عم مر المذاق

فعاد الأول يقول وهو يرتجف تحت نظرات عثمان الثاقبة

- يستأهل فليس كل الطير ما يؤكل لحمه

وحين ابتعد الموكب عاد الثانى يهمس وهو يهز رأسه فى إشفاق

- يا خسارته فى الشنق

بينما يعود صوت المنادى على دقات الطبلة الرتيبة يردد

- عاقبة البغى سوء، ونهاية الشقاوة أتراح   ومن ظن نفسه مثل المقدم صلاح   فقد يتم أولاده وناحت عليه النواح

وتدق الطبلة وتدق، والناس تنظر من كل مكان، كلهم عيون، فى عين بغض لا يدرى سببه فما يذكر أنه أساء إلى أحد من كل هؤلاء   وفى عين رثاء يكرهه فما عرض نفسه للمخاطر والأهوال ليحظى برثاء عجوز هالك، أو امرأة خرقاء وفى عين حنق يحبه، فهو الذى يجعل لكل ما فعل معنى،

فحين يولد الحنق فى قلوب الرجال تحقق التضحية معناها، وبولد من الحنق ألف واحد مثله وألف سهم يوجه إلى قلب صلاح، إن لم يصبه واحد فسيصيبه غيره

وخيل لعلى أنه لمح وجه سالم بين الجموع ولكنه حين عاد يحدق النظر فى الاتجاه الذى ظن أنه رآه فيه، لم تطالعه إلا وجوه بليدة جامدة كأنها نقش فوق سجاد، أو كأنها قطع سحاب فى يوم تصارع الشمس فيه لتظهر فيتقطع السحاب ويدور حول نفسه حاملاً صوراً لا معنى لها صوراً جامدة باهتة لا توحى إلا بالضياع والعدم

ونهق الحمار واهتز، فاهتز لاهتزازه على وهو مربوط كالحزمة فوقه، وازدادت ابتسامته اتساعاً كما ازدادت مرارة وهو يهمس لنفسه وعينان واسعتان تلوحان له وسط المشاهد المتداخلة المتشابكة التى تمر أمامه ببطء

- أوقعتك البنت بعينيها يا على

حلوة لفتتها، حلوة خطرتها، حلوة همستها، والشذى ينبعث من شعرها يسكر القلب ويخدر العقل، فتسير إلى الصندوق مغمض العينين هدية دسمة لصلاح الكلبى وحقده وتشفيه، ولكن لو ابتسمت ثانية يا على، لو التصقت بك بجسدها المرتعش، لو ملأ عطر شعرها صدرك لسرت إلى الصندوق راضياً من جديد مع ابتسامة ثغرها يضيء فجر، وفى سواد شعرها يرقد ليل وأنت ضعت فلا فجراً ترى فى

الغد، ولا ليل اليوم يضمك ويهدهد جسدك من اليوم الجسد للدود، يضمه التراب ويحتويه ويمتصه، وأنت ما أنت ؟

ضحكة عابثة فى فم الزمان أطلقها ثم نسى ما أضحكه وتظل هى تخطر فوق القلوب عشرات القلوب تنبض بالحياة وحب الحياة

وأوشك أن يقسم أنه رأى وجه سالم ولكن نظراته الحائرة عجزت عن رؤية الوجه الوحيد الحبيب بين وجوه الرجال وفى النساء ؟ وعاد إلى إطراقته من جديد، ليس إلا أمه العين الحانية، واليد الآسية والقلب الحنون ستتعذب تبكى أبدا هو لم ير أمه تبكى ليست تحب الضعف، وليست تلوكه كالعجائز وهل هى كالعجائز إنها فى عمر النضج، لم يقترب من وجهها ملمح واحد من ملامح تقدم العمر فتية نشيطة، قوية كالحب والحنان والأمل

هل ستعرف زينب يوما هل ستكرهها ؟ بين وجهيهما شبه غريب، فى لمحة العين ولفتة الرأس قلبه وحده جمعهما أما هما فلن تلتقيا

والطبلة تدق والمنادى صوته بح من كثرة الصراخ، والناس يزدادون ويكثرون حى يسير إلى الموت، وكلهم يسيرون وفى الغد تخلو من وقع أقدامهم الأرض ويسير فى نفس الطريق أناس آخرون، وربما خرجوا يتفرجون على حى يذهب إلى الموت مثله . ويدور العالم ويدور الأحياء يقتلون الأحياء،

والأموات يرقبون الأموات فى زحفهم نحو القيود .

ووقف الموكب العجيب عند مشارف الميدان الواسع ، وأدرك على من لفحات الهواء الباردة التى هبت تضرب وجهه وعنقه أنهم فى الرميلة الفسيحة الواسعة وتلفت حوله فى وسط الميدان خشبة منصوبة يتدلى منها حبل وارتجف وحولها حراس مسلحون يثرثرون كأن الأمر لا يعنيهم ، وماذا فى أن واحداً يموت ؟ وفى الميدان عيون تنطق ببريق يعرفه ، بريق الحنق والغضب ، هذه وجوه ألفها وجوه أهل الرميلة وقرة ميدان يعيشون على خطر ، وينامون على خطر ، وهم يعرفون الموت ولا يهابونه ولكن أن يساق رجل إلى حتفه مكتف اليدين صاغر الإرادة مسلوب القوة - أن يدور الناس حوله يشاهدون ساعة ضيعته ، ساعة عاره بين الناس ، ساعة فناء معنى الوجود فيه ، هذا لا يرضونه فالرجل رجل يموت لأن سيفاً اخترق صدره وهو يدافع عن نفسه ، أو لأن مرضاً أوقف قلبه وهو يقاوم بعزمه وطب الناس يموت لأن الله أراده أن يموت ولكن أيموت الإنسان كالسائمة العجل يا على أنت سقته وراءك ، أنت كتفت أقدامه بيديك ، أنت رقدت فوق رقبته ونحرته بالسكين وتحول إلى كومة من لحم فى قدر ملىء بماء يغلى وفى رقبته جرس يخبط فى وقع رتيب والمنادى يصيح ووراءه الصبيان

- من ده بكره

- بقرشين

وفى الصباح يكون لحمه فى كل فم، ويكون عظمه وليمة كل كلب أما العجل فضاع وكذا ضعت يا على

وسكت صوت الطبلة، وسكت الميدان، والسحابات تجمعت أطل منها وجه كئيب غريب لا أنف له وأنزلته أيد كثيرة إلى الأرض، والأرض تغوص، تغوص أقدام ثقيلة تشق وجه الأرض اللينة ورفعته أيد قوية إلى الخشبة المنصوبة والتوت السحابة فأصبحت أنفاً بلا وجه ثم أذناً بلا أنف ولا وجه ثم عيناً تحدق وتحدق والتف حبل حول رقبته، ومن بعيد من بعيد جدا جاءت همهمة ودمدمة ودار حوله ماء البحر يملأ أذنيه ثم عاد دق الطبلة من جديد قوياً عالياً وسكت، وقال المنادى

- حانت الساعة وجاء وقت صاحب المناعة صلاح الكلبى مقدم درك بر مصر، يخلص البلاد من شرور على الذى فاق فى الشقاوة كل حصر

وجفت شفتا على وغابت عيناه وهمس لنفسه

- انتهى المطاف يا على ابتسم يا بنى فمثلك يموت وعلى شفتيه بسمة

وتقوست شفتاه وأحس بالحبل ثقيلا حول عنقه، وسمع صوتاً يقول

- شد الحبل يا جلاد

وهمس وقد أغمض عينيه

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إنا لله وإنا إليه راجعون

وعند عينيه المغمضتين اختلطت صورتان، وجهان وجه فيه حنان ودفء ووجه فيه حلاوة وعبث وانتظر

١٩

فاطمة فى الميدان

حين سمع على صوت ركض الجواد وهو مغمض العينين لم يأبه له، وحين سمع همهمات الناس وهى تعلو صراخاً وضجة لم يأبه بها ولكن الحبل لم يطبق على عنقه والجلاد لم يحرك يديه وعاد على يتلو الشهادتين وهو يحاول أن يحرك شفتيه الجافتين ولكن ركض الجواد يتوقف وصوت غريب آمر يضيح

- ارفع يديك يا جلاد، فقد جاءك فارس العصر وغفير أهل مصر أحمد بن البنى

وأحس على بالحبل يتهاوى فوق عنقه

ففتح عينيه وهو يسمع صيحة عثمان

- قطعت الحبل يا فارس، ويلك إليه يا رجال

ثم صرخ عثمان صرخة عالية، وضربة من مقبض حسام فارس ملثم ترسله إلى الأرض فاقد الوعى، بينما امتدت يد الفارس تحمل علياً كأنه طفل صغير وتردفه خلف الفارس على الجواد الذى دار بصاحبه دورات سريعة تجنبه الطعنات المصوبة إليه من جمع الذعر المتدافع فى ذعر وهلع، وسيف الفارس يصيب مع كل دورة من دورات جواده واحداً منهم فيرديه..

وانطلق الجواد بحمله الثقيل يشق طريقه ومن بالميدان يفسحون له الطريق ثم يسدونه بأجسامهم على الزعر الذين اضطربت صفوفهم وأخذوا يجرون هنا وهناك دون أن يدرى أحد منهم إلى أين فر الفارس بفريستهم التى اختطفها من أمام حبل المشنقة

وهتف واحد ممن وقفوا بالميدان

- أرأيت، قطع الحبل، وخطفه وطار

فقال الآخر وهو يهز رأسه متعجبا

- رأيته يا أخى ترى من هو أحمد بن البنى ؟

فقال الأول فى لهجة قاطعة

- هو ولى من أولياء الله الصالحين

فقال الثانى فى دهشة

- ولكن علياً لص فكيف يحرسه أولياء الله الصالحون ؟

فعاد الأول يقول فى لهجة اليقين

– هو إذن مارد من مردة الجان

* * *

لم يكن على قد أفاق من ذهوله حين دلف به الفارس إلى شارع يعرفه تماماً، وسرعان ما أدرك حين اتجه الفارس نحو حارة واسعة أنه يمضى به إلى بيته، وقبل أن يتمالك على روعه أحس بنفسه يلقى أمام المنزل بينما اختفى الفارس والفرس عند آخر المنحنى، وسمع صوت سالم يقول له فى لهفة

– ادخل يا على بسرعة حمداً لله على سلامتك

وكان باب المنزل مفتوحاً، وأمامه وقف سالم يعينه على الحركة ويكاد يحمله حملاً إلى داخل المنزل، ثم تركه فوق أحد المقاعد وعاد مسرعاً يغلق الباب وتلفت على حوله وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة نفس المرايا، نفس المقاعد، نفس الحشايا التى شهدت طفولته، واحتضنت أيامها المرحة الحلوة التى كان يعبث فيها بشيخ الكتاب وتجار خان الخليلى وصبية الشارع كله والمائدة المحطمة التى كسرها بسيفه الخشبى يوماً وهو يلعب لعبة الزعر وشعر على بيدى سالم المدربتين وهما تمزقان قيوده فيتساقط الحبل ممزقاً فوق الأرض إلى جوار المقعد

ولم يستطع على أول الأمر أن يحرك ساعديه فقد فقدا القدرة على الحركة من طول ما ظلا مقيدين، ووقف سالم وراءه يدلك ساعديه برفق وهو يقول

- لقد حذرتك ولكنك لم تسمع تحذيرى دليلة غير صلاح الكلبى

واستطاع على أن يجد صوته بصعوبة فقال ولمس حبل المشنقة فوق رقبته والطعم المر الذى أحسه فى فمه يعود ليملأه

كنت أظن أننى انتهيت

فقال سالم وهو يدلك كفيه، ثم ينحنى فيدلك ساقيه فى قوة

- لقد كانت نجاتك معجزة حقيقية

وفجأة هب على واقفاً وهو يتلفت حوله ويسأل

- هذا الفارس إنه يعرف البيت أين هو ؟

- يدخل الحصان إلى الإصطبل ثم يعود حتى لا يعرف أحد أنك هربت إلى هنا إن رأوا جواده خارج باب المنزل

- ولكن من هو من هو أحمد بن البنى

فاعتدل سالم وقال وهو يبتسم فى وجه على القلق

- أتريد حقا أن تعرف من هو

- نعم أريد أن أشكره وأرد له الجميل

فازدادت ابتسامة سالم اتساعا، بينما تعالت أصوات أقدام تقترب من القاعة ومهماز يضرب الأرض مع وقع الأقدام وظهر بالباب الفارس الملثم وما زالت آثار الدماء تلطخ عباءته وثيابه، وقال سالم

- هذا هو الفارس يا على فاسأله

وتقـدم على خطوة نحـو الفـارس وهو يقـول فى صـوت مضطرب :

- لا أعـرف أيهـا الفـارس من أنت ؟ ولا لماذا أنقـذتنى ؟ ولكننى مدين لك بحياتى فعاد صوت الفارس الآمر الغريب الذى سمعه وهو مغمض العينين وحبل المشنقة يعبث برقبته يدوى فى أذنه وهو يقول

لو كان لى يا على ولد سواك ، لتركتك فى قبضة أعدائك لأنك عصيتنى

واضطرب قلب على وازدادت خـفـقـاته سـرعـة ، وأحس بالدموع تكاد تطفر من عينيه وهو يهمس فى صوت مبحوح

- هذا الصوت إننى أعرفه

وعاد الصـوت يقول وقد زالت حدة الأمر وامتلأ بحنان دافىء

- سأرفع اللثام يا على

حقا ، كانت هى لم يكذبه قلبه ، لم تكذبه أذناه هى أمه واندفع يبكى ويضحك وهو يرمى بنفسه فوق الصدر الحنون الذى يعرفه ويود أن يرمى ثقل أحزانه كلها عليه وبين نشيجه وضحكه يهمس فى انفعال

- أمى أمى مـا أغـرب هذا مـا أروعـه أنت دون العالم كله أنت

وترقرقت دمعة فى عين فاطمة وهى تربت على كتفه فى

حنان وحب، وقال الصوت الحنون الدافىء طالما هدهد طفولته ورعى صباه، قال وقد تخلص من تلك اللهجة الخشنة الآمرة التى اصطنعتها فى الرميلة، واصطنعتها وهى تخاطبه منذ لحظات

- نعم أنا يا على أنا من كنت تضحك عليها وتقول إنك تتلقى العلم فى الأزهر بينما أنت تملأ الدنيا فساداً وعبثاً

فجفف على عبراته واعتدل فى وقفته وهو يقول

- ما كنت أظلم يا أمى كنت أقتص من الظالمين وأعطى المحتاجين

ثم التفت نحو سالم وهو يقول

- أخبرها يا سالم

فتنهدت أمه وهى تأخذ بيده إلى مقعد طويل وثير فتجلسه عليه وهى تقول

- لقد حكى لى سالم على كل شىء جاءنى مذعوراً وهو يقول إن الهزل قد انقلب إلى جد

وتقدم سالم ليقول فى لهجة المعتذر

- ما كنت أستطيع أن أظل مخفيا عنها حقيقة الأمر وأنت تساق أمامى إلى المشنقة لقد ظللت أتبعك فترة طويلة متلمسا طريقة لإنقاذك ولكننى أدركت أن مثل هذا الأمر لا أقدر عليه أنا

فهمس على وهو يتذكر وجه سالم الغائم الذى طالعه وسط

الوجوه وهو مكتف فوق الحمار

- لقد رأيتك أو ظننت أننى رأيتك فما كنت أعى شيئاً

وهتفت فاطمة فى حنان وألم

- لقد قاسيت كثيراً يابنى ولكن لا بأس فالرجال لا تخلقهم سوى التجارب المرة

وعاد سالم يقول

- وجئت إليها مسرعاً وحكيت الحكاية كلها

ثم ابتسم وهو يشير إلى ثياب فاطمة

- فخرج أحمد بن البنى إلى حيز الوجود لينقذك يا على

فأجال على بصره بثياب أمه الملطخة بالدماء وقال

- أحمد بن البنى ولكن من أحمد بن البنى

فعاد سالم يقول بينما تضرج وجه فاطمة احمرارا

كان أحمد بن البنى يا على اسما يرهبه كل الناس فى مصر كان فارساً لا يشق له غبار، كم قتل وكم هزم وكم جندل إلى أن تعرض يوماً لأبيك وأراد أن يصرعه وهو منهمك فى مبارزة مجموعة من الفرسان فتقدمت منه أمك فاطمة وتصدت لقتاله وقتلته ومن يومها وهى تحتفظ بثيابه وسلاحه، ترتديها عند الحاجة إليها وتتسمى باسمه فى الميدان.

فهمس على فى دهشة

- أبى

فتنهدت أمه فى أسى وهى تقول

- ما مات من خلف ليته كان حيا ليرى شجاعتك ويسمع بأفعالك إذن لافتخر بك

وازدادت نظرات على دهشة وقال فى ذهول

- ولكن أبى لا يعرف كيف يمسك بيده سيفاً ثم هو حى يرزق فضحك سالم حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال

- أنت تعنى سيدى القاضى نور الدين

فهتفت فاطمة

- لقد آن الآوان لكى تعرف يا على، فما عدت صغيراً وما كنت أخفى الأمر عنك من أجله قد وقع، والتقى طريقك بطريق صلاح الكلبى فلا فائدة إذن من إخفاء الحقيقة عنك

وهب على واقفا وهو يقول فى دهشة

- أية حقيقة

فأمسكت أمه بيده وهى تقول فى حنان

- إن القاضى نور الدين هو أبى أنا يا على، أما أبوك أنت فهو الفارس الذى لم يقهر، والعايق الذى دان له الجميع بالولاء حسن رأس الغول

فقال على مردداً وما زال الذهول يتملكه

- حسن رأس الغول، لقد سمعت هذا الاسم من قبل كثيرا وكنت أحس أن الناس ترهب صاحبه وتجله

فعادت فاطمة تقول

- لقد كان شريكا لصلاح الدين الكلبى على مقدمية درك مصر إلى أن

وصمتت فاطمة وقد خنقتها عبرات خفية تحاول أن تمنعها بإرادة قوية جبارة، فقال سالم مكملا

- إلى أن غدر به صلاح الكلبى ودس عليه من قدم له السم

فصاح على

- تعنى قتله

فأطرقت أمه مؤمنة وهى تمر بيدها على وجنتيها كأنما تجفف دموعاً لم تكن هناك

- نعم يا على

وعاد على الزيبق يصيح فى انفعال

كيف كان ذلك ؟

فرفعت فاطمة رأسها إليه ونظرت إليه بعينين حانيتين وهى تقول

- أنت متعب يا على وجائع وأنا مضطربة من أحداث هذا النهار القاسى اذهب يابنى إلى الحمام، وحين تعود ستجدنى قد أعددت لك طعامك، وعلى الطعام سأحكى لك كل شيء لتعرف ما طال إخفاؤه عنك

وكان على يعرف أمه جيداً فأدرك أن إلحاحه لن يفيد شيئاً، كما أن إحساساً حاداً بالتعب والإرهاق كان يغزو جسمه كله .. كان يحس أنه قد جرى وجرى طويلا في صحراء حارقة

لا ظل فيها حتى تحرقت قدماه وتمزقت عضلاته وأنه وصل إلى واحة الأمان حيث ينبغى أن يستريح يستريح تماماً

وأطرق على برأسه وترك سالما يقوده إلى الحمام فى صمت، وقد أحس أن دموعا غزيرة تنثال من عينيه، فتركها تجرى فوق وجهه دون أن يحس لها فى نفسه خجلا

٢٠

السم فى العسل

كان الطعام ساخناً شهياً وكانت فاطمة فى ثيابها المعتادة التى درج على أن يراها فيها، وفى عينيها لا شيء إلا الحب والحنان وكان الحمام قد غسل عن أعصابه كل توترها، فاندفع علي يأكل فى شهية وهو يبتسم بين الحين والآخر حين تلتقى عيناه بعينى أمه التى تراقبه فى حب، أو بعينى سالم الذى أخذ يأكل فى صمت، بينما تطل من عينيه العجوزتين نظرة ولاء صامتة أبلغ من كل حديث

وكان علي قد أوشك أن يصل إلى حد

الشبع حين بدأت أمه حديثها ، بصوتها الهادىء المتزن وإن شابته هزة انفعال خفيفة كانت تعود إلى السيطرة عليها كلما أفلتت منها   قالت فاطمة

حدث هذا منذ زمان طويل يا على   وكانت لنا دار غير هذه الدار   دار فخمة كبيرة يؤمها الناس ويجتمع فيها الأتباع والأعوان من كل مكان   وكان لدارنا راتب ثابت من العزيز ، يدفعه لنا كل عام ومعه العديد من الهدايا من طرائف العراق والشام   ورضى أبوك أن يتقاسم مع صلاح الكلبى درك مصر ، يمنعان عنها اللصوص ويحميانها من كل عدو   ولكن صاحب الدرك الحقيقى كان أباك   كان اسمه يرهب الناس من بغداد إلى الشام لقلب القاهرة   وغار منه صلاح غيرة أكلت قلبه الأسود وزادته سوادا علي سواد

وصمتت لحظات وعينا ولدها لا تفارقان وجهها ثم تنهدت وعادت تقول

- ولكن أباك يا على كان على شجاعته وذكائه سليم الطوية طيب القلب   إن أخلص لأحد ودا ظن أنه مثله يخلص له الود ، لا يعرف الغدر ولا يتصف إلا بالشهامة   وما كان يظن أن صلاحا سيغدر به ويمكر   ولذلك تقبل منه الهدية بقلب مفتوح وذهن خال من الحذر وتوجس الشر والغدر

ووضع على التفاحة التى كانت فى يده فوق الطبق وقال وهو ينحنى فى اهتمام

- الهدية ؟

فعادت أمه تقول وهى تبتسم فى مرارة

- نعم يا بنى جارية جميلة صبية لا ندرى من أين استجلبها ولا متى علمها فنون الحديث والغناء وزخرف القول كانت فتنة فى زينتها، فتنة فى حديثها، فتنة فى حركتها، فتقبلتها أنا وأبوك بالشكر وعرفان الجميل ولم نكن ندرى أنها تضمر الشر والقتل والغدر كانت منذ دخلت بيتنا تبذل كل جهد لكى تكون إلى جواره حفظت عاداته كلها، كيف يحب قهوته، ومتى يريد السكون أن يعم البيت كله حين ينظر إليها كانت تذوب رقة، وحين يشير إليها كانت تفهم أى التوابل يحب فى طعامه، وأى العطور أفضل لثيابه حتى ملكت لبه واستحوذت على قلبه وما كان هذا يضايقنى فقد كانت تحمل عنى أعباء كثيرة وتريحنى من كل ما يضجرنى ويسبب لى القلق.

وعادت فاطمة تصمت وقد شردت عيناها كأنما ترى شيئا بعيداً غائماً لا يراه إلا هى، وتنهدت وهى تبتسم فى مرارة ثم قالت

كنت وقتها صغيرة بلهاء، فلم أدرك حيلتها، وإنما حسبت أنها ستسعد أباك وتوفر له ما لا أستطيع أنا أن أوفره، فتركتها تتمكن منه حتى أسلم لها قياده وذات ليلة

وصمتت لحظات ثم عادت تقول

- ذات ليلة دست له السم فمات   حين دخلت عليه وهو ملقى فوق الفراش رابنى الأمر، وحين وضعت يدى على شعره تساقط، فعرفت أنه السم   وملأ قلبى يقين غامر أنها هى

فقال على فى حنق وحزن وهو يستمع إلى مأساة أبيه الغريبة

- هى التى قتلته

وحدقت فيه فاطمة لحظات ثم هزت رأسها وهى تقول

- لقد اعترفت   دخلت عليها والسيف فى يد والسوط فى يد وحقد العالم كله فى قلبى، وانهارت   قالت كل شىء ظلت تصرخ وكأن بها لوثة   إنه سيدى صلاح الكلبى   إنه سيدى صلاح الكلبى إن وجهها يا بنى لا يفارق ناظرى أبداً وهى تضحك وتبكى وتصرخ قائلة   قال سيتزوجنى، هو صلاح الكلبى نفسه سيتزوجنى   قال دسى السم له فيموت وأتزوجك   سأطلق امرأتى من أجلك لتصبح لنا مصر كلها وحدنا   أنا وأنت   اقتلى حسن   اقتلى رأس الغول   دسى له السم   لا تخافى   فأنا مقدم الدرك   سيتزوجنى

وكانت تصرخ بأعلى صوتها حين هوى سيفى فاجتث رقبتها

وسكتت فاطمة   وساد القاعة صمت ثقيل، وأحس على أنه يسمع دقات قلبه وتردد أنفاسه وتبدت أمامه صورة الجارية وقد طار رأسها عن جسدها   فهمس ذاهلا

- ثم

فقال سالم مشاركاً فى الحكاية لأول مرة

- دفنتها بيدى فى حديقة الدار

كان صوته أجشاً رهيباً وكانت عيناه تلمعان وكأنه دفنها لتوه بينما عادت فاطمة تقول

- وتركنا الدار فى الليل، لم أجمع سوى ما استطعت أن أحمله معى من ملابسى وجواهرى وأموالى وأسلحة أبيك وأدواته أما الباقى فقد تركته، وقصدت أول الأمر إلى الفيوم حيث كان أبى قاضى المدينة، ولكننا أدركنا أن صلاحاً سيتجه بحثه إليه، فترك أبى عمله وعدنا إلى هنا حيث استأجر لنا سالم هذه الدار، وافتتح أبى محلا فى خان الخليلى. يخفى فى التجارة حقيقة أمره وأمرى وأمرك، فقد كنت طفلا صغيرا لا تعرف شيئاً، كنت وديعة غالية تركها لى حسن قطعة منه، تذكرنى دائما بالبطل الذى كانه

وهبت واقفة وهى ترد عبرات تملأ مقلتيها، وقالت فى صوت حاولت أن تكسبه شيئاً من المرح

- أما جواهرى والمال فقد ساعدتنا على الحياة فى رغد حتى الآن أما حاجيات أبيك فهى ملكك لم يرها إنسان ولم يمسها غريب حتى اليوم أما الآن فقد حان الوقت لتنفض عنها الغبار وليحمل الابن سلاح أبيه تعال معى يا على

ونهض على من مكانه وقد سره أن تتاح له فرصة الحركة بعد هذه القصة الرهيبة التى سمعها، وتبع أمه من قاعة إلى قاعة

وصور الحكاية تتجسد أمامه، ومع تتابعها في ذهنه تزداد المرارة في قلبه ويزداد إحساسه بالحقد على صلاح الكلبي   ووقفت أمه أخيرا أمام باب حجرة صغيرة لا يذكر على أنه دخلها من قبل قط، وأخرجت مفتاحاً قديما صدئا وأدارته في باب الحجرة ثم دخلت ووراءها علي وسالم

وكانت رائحة التراب تملأ الحجرة كما كان من الواضح أنها لم تر نور الشمس من زمن   وسار سالم إلى المشربية ففتحها وتسلل النور إلى الحجرة الصغيرة، واستطاع علي أن يرى ما في الحجرة الصغيرة كلها بنظرة واحدة شاملة واستلفت نظره سيف ضخم طويل، فاتجه إليه بينما قالت أمه

- هذا سيف أبيك الذي كان يعرف اسمه كل فرسان العصر إنه قطاع الجادل

وهز علي السيف في غمده ثم امتشقه في حذر، فلمع حده على ضوء الشمس المتسرب من المشربية. وأخذ علي يهز السيف في يده وهو يحس من السلاح الثقيل استجابة وإلفاً بينما أخذت أمه تشير إلى ما في الحجرة وهي تقول

- هذا دبوس أبيك   وهذا مفرده الذي كان يتسلق به الجدران مهما شهقت وعلت، وكان يسميه سلم التساليك وهذه حرابه، وهذا قوسه

كان علي يرقب ما تشير إليه أمه من أسلحة وأدوات في حنان وحب، وهو يحاول أن يتخيل الفارس الذي كان

يستعملها فتستجيب له، ويهتز لاسمه كل الفرسان خوفا واحتراماً وتوقيراً ثم اتجهت فاطمة إلى ناحية أخرى من الحجرة وهى تقول مشيرة إلى صندوق ضخم

- وهنا أدوات تنكره والثياب العديدة التى تمثل كل مهنة وجنس، وأسلحة العياقة من نفط وبنج

وابتسمت وهى تقول

- أعرف أن سالما علمك الكثير، ولكنك من الآن ستتعلم على يدى أنا أما سالم فهو من اليوم سيكون ألزم لك من ظلك، وكما كان التابع المخلص والصديق الوفى لأبيك فهو منذ اليوم تابعك وصديقك وارتفعت يد سالم القوية تربت فى رفق وحنان على كتفى على. وعادت فاطمة تتنهد وهى تقول

- لا أحد يستطيع حقا أن يعاند القدر، ما كنت أود أن أدعك تسير فى نفس الطريق، ولكن من الذى يستطيع أن يغير ما تريده المشيئة

فقال على وهو يعيد قطاع الجادل إلى قرابه ويضعه مكانه فى احترام عميق

- إن صلاحاً يستحق الموت وسيموت وأنا أقسم أمام هذا السيف على الانتقام لصاحبه ممن غدر به

فلمعت عينا فاطمة حباً وحناناً وتنهدت وهى تقول

كنت أخشى أن يطلع صلاح الكلبى على أمرك فتكون نهايتك على يديه كما كانت نهاية أبيك، وقد صحت مخاوفى

فلو لم يسرع سالم إلى فى الوقت المناسب لقتل صلاح الولد كما قتل أباه

فقال على

– لم يكن هذا من تدبيره يا أمى   إنما هى حيلة دليلة

فصاحت فاطمة وكأنما رأت شبحا مخيفاً

– دليلة   ما الذى أتى بها إلى مصر ؟

ثم أطرقت برأسها وهى تقول

– ألا يكفى أن الأب قد ترك لها بغداد كلها ، فتأتى إلى هنا لتتعقب الابن

فقال على وهو ينظر أمامه نظرة شارد لا تثبت على شىء

– لقد قالت لى ، لا تنس هذا الوجه وأنت على حبل المشنقة وأنا لن أنساه أبدا

ثم خافت من صوته حتى كاد يصبح همساً وهو يقول

كما أننى لن أنسى وجهاً آخر أبدا   لقد انطبع فى قلبى ولن يزول

– وجه من يا بنى

– وجه ابنتها زينب

فمدت فاطمة يدها تمسك بكتف ابنها وتنظر فى عينيه وهى تقول فى حدة

– أهو العشق يا على   ما زينب إلا حية خرجت من بطن ثعبان شرس

فتنهد على وهز كتفه كأنما يبعد ذكرى تمضه وقال

- لا يا أمى ليس فى حياتى مكان للعشق بل إن قلبى الآن لا يملؤه إلا الحقد لقد كنت من قبل أعبث بصلاح وأنا أكرهه لبطشه وجوره وظلمه أما الآن ففى حلقى مرارة المشنقة وفى قلبى ذكرى أبى لقد مضى زمان العبث وليس هناك مكان إلا للحقد حقد مرير ولده ثأر مرير ثأر المشنقة التى أذاقنى طعمها، وثأر أبى الذى غدر به وقتله، وثأر أمي التى شردها وسلبها الأمن والطمأنينة ومسحت فاطمة دمعة ترقرقت ولم تستطع كتمانها ثم ضمت عليا إلى صدرها وقبلته، وما لبثت أن دفنت رأسها فى صدره ومضت تبكى فى حرقة تبكى دون خجل ربما لأول مرة منذ زمن بعيد

٢١

معركة فى الظلام

أخذ المقدم صلاح الكلبى يذرع القاعة فى حنق وغضب، وقد وقف عثمان معصوب الرأس مطرقها بينما وقف باقى الرجال يتابعون حركة المقدم صلاح فى صمت ووجوم وعاد صلاح الكلبى يقف أمامهم وهو يهدر صائحاً

- إذن فقد فر هل أنتم رجال ؟ أنتم لا شىء أكان ينبغى أن أشنقه بنفسى لأتأكد من موته ؟

ثم يعود مرة أخرى إلى سيره السريع بين جدران القاعة التى جعلها غضبه العارم رغم

احتشادها بالرجال صامتة صمت القبور وحرك عثمان قدميه في قلق ثم قال في صوت وجل متردد

لقد تأكد لنا الآن أنه ابن حسن رأس الغول، فالفارس الذى أنقذه تسمى باسم أحمد بن البنى

وعاد صلاح الكلبى إلى التوقف، وأطال النظر في وجه عثمان ثم قال

- أحمد بن البنى مات من زمن

فازداد صوت عثمان ثباتا وهو يقول

- ولكن التى قتلته هى فاطمة زوجة المقدم حسن ومن يومها وهى تتزيا بملابسه وتتسمى باسمه

وارتسمت علامات الإدراك على وجه صلاح الذى سرعان ما شحب لونه وقال في صوت كالفحيح

- حسن رأس الغول يخرج من قبره ليطالب بثأره

ثم أطرق برأسه وهو يقول

- إذن فهذا هو السر إنه يحاول تدميرى إنه يريد ثأر أبيه

فقال عثمان وهو يتقدم خطوة

سنقضى عليه يا مقدم، فالآن قد عرفناه وتأكدنا من هو وما شكله

فرفع صلاح رأسه وهو يقول

- صدقت في هذا يا عثمان الآن قد عرفناه ولكننا أيضا قد عرفنا أنه يريد حياتى فلن يهدأ بعد أن سقته إلى

المشنقة إلا إذا قتلنى فسرت همهمة بين الرجال وقال أحدهم:

- شلت يده يا مقدم أمثله من يقدر على مثلك ؟

وصاح آخر وقد بدأوا يحسون فى الحديث فرصة لتغيير جو القاعة الخانق

- ومن هو على هذا ابن رأس الغول أو ابن الجن نفسه أتنسى يا مقدم أنك أنت صلاح الكلبى ؟

وتشجع عثمان فمر على شاربه وهو يقول

- ومن شنقه مرة، يشنقه مرات

وسرت عدوى الحماس من الرجال إلى صلاح الكلبى نفسه الذى بدأت أساريره تنفرج وبدا شبح ابتسامة على وجهه وهو يقول

- صدقت يا عثمان من شنقه مرة يشنقه مرات

ثم بدا الجد فى عينيه وهو يجول بنظره فى رجاله ويقول

- ليتنكر أكبر عدد منكم فى كل زى، وابحثوا عنه، ومن يجده يسرع إلى القاعة هنا وسنظل نحمل سلاحنا ليل نهار إلى أن نعثر عليه فنخرج إليه لننتهى من أمره

*

كان الظلام قد أرخى سدوله منذ فترة على المدينة الكبيرة، فامتلأت طرقاتها بالظلال والأشباح، ولولا فوانيس أطلت برأسها من أمام بعض المنازل لضم الظلام الدامس المدينة كلها،

ومع هذا فما كانت هذه الفوانيس تنير من الطريق شيئاً فما هى إلا دائرة من الضوء تحيط بالفانوس، ثم يعود الظلام فيغمر باقى الطريق وقال سالم وهو يمسك بذراع على يطلب منه الوقوف

- لحظة يا على حتى يمر هذا التاجر بموكبه فإن المصباح الذى يحمله تابعه أمامه وأمام رفاقه قوى الضوء

ووقف على وقفة المتذمر وهو يقول

- ما اعتدت يا سالم أن أخشى الضوء كل هذه الخشية لقد كنت أسير فى شوارع القاهرة وحواريها حرا طليقاً لا أهاب أحدا

فتنهد سالم وهو يقول

- هذا زمان ولى ومضى يا على أما الآن فقد عرفك صلاح ورجاله وأؤكد لك أن ملامح وجهك مطبوعة فى ذاكرتهم جميعا ولن يراك أحد منهم إلا عرفك

فهز على كتفيه استخفافا وهو يقول

كم هى لعبة غريبة هذه التى نلعبها، هم يبحثون عنى وأنا أبحث عن صلاح

ومر التاجر بموكبه الصغير وتابعه الذى يحمل المصباح وعاد الظلام يسيطر على الطريق مرة ثانية فلمس على كتف سالم، واندفع يسير مسرعا وسالم فى أثره وهو يقول

- هل تظن أنك ستجده وحده إنك إن عثرت عليه

فسيكون فى كوكبة من رجاله، وتكون فرصته هو لا فرصتنا نحن

فقال على وهو يسرع فى خطواته

- سنكمن له فى بركة الأفيال فهذا هو طريق عودته إلى داره من يدرى، ربما وجدنا فرصة نصفى معه فيها الحساب

* * *

كان الرجل يلهث وهو يندفع إلى وسط القاعة حيث جلس صلاح وإلى جواره عثمان، وقال الرجل فى سرعة

- إنه هناك يا مقدم، لقد رأيته بعينى

فهب صلاح واقفاً وهو يقول

- من هل رأيت على الزيبق أين ؟

فقال الرجل وهو يلتقط أنفاسه فى صعوبة

- فى بركة الأفيال، وهو واقف هناك منذ فترة ومعه فارس طويل القامة أشيب اللحية

فهب عثمان واقفاً بدوره وهو يقول

- هذا سالم تابع حسن رأس الغول

وضاقت عينا صلاح الكلبى وهو يسأل الرجل فى ريبة

- ألم يرك يا رجل ؟

فهز الرجل كتفيه وهو يقول

- وماذا إن كان رآنى، حمار يقود حماره فى الطريق، حقاً إنه يتفرس فى كل من يمر به من الناس، ولكن الضوء ضعيف وهو

لا يعرفنى

فابتسم صلاح الكلبى وهو يتحسس مقبض سيفه

إنه ينتظرنى في بركة الأفيال، فهى طريقى إلى العودة ولعله يأمل أن أعود وحيدا فيجد فرصة فى مهاجمتى

وازدادت ابتسامته اتساعا وهو يقول

- وسيجدنى وحيدا هذه المرة

ثم ضحك ضحكة عالية وهو يقول

- وحيدا جداً

قال سالم

- لقد طالت وقفتنا يا على، وبدأ هواء الليل يصبح بارداً، ولعله مر قبل أن نحضر إلى هنا، فهيا بنا نعود، وما لا نحصله اليوم نصيده غدا

فقال على فى عناد وإصرار

- بل إن قلبى يحدثنى أننى سألقاه هذه الليلة

فتنهد سالم فى استسلام وهو يقول

- أما أنا فقلبى لا يحدثنى الليلة بخير

وقطع سالم حديثه فجأة وهو يحس بيد على تضغط علي ذراعه فى عنف، وسمعه يقول هامسا فى توفز

- صه

وحول سالم بصره إلى حيث ينظر على   ومن آخر الطريق

كان عثمان يسير معصوب الرأس وهو يحمل فى يده مصباحاً ينير به الطريق ووراءه يسير صلاح الكلبى منتفخ الأوداج لا يلتفت يمنة ولا يسرة همس على وضغطه يزداد على ذراع سالم

- إنه وحده

وفى اللحظة التالية لم يحس به سالم إلى جواره، بل رآه يندفع نحو صلاح وهو يصيح وقد امتشق حسامه

- مكانك يا صلاح، جاءك على الزيبق الذى أرسلت به إلى المشنقة فى ثأره وثأر أبيه حسن رأس الغول

واستطاع صلاح الكلبى أن يتراجع مسرعاً ويمتشق حسامه بدوره، والتقى الحسامان فى صليل رهيب رج السكون النائم على قارعة الطريق ولم ينتظر سالم طويلا بل أسرع بدوره يستل حسامه من غمده ويهجم على عثمان فيطيح المصباح من يده بضربة واحدة ثم يوجه إليه طعنة قاتلة تفاداها عثمان بصعوبة ثم أسرع يخرج سيفه ليرد عن نفسه هجمات سالم المريعة

كان صلاح الكلبى من رجال السيف المعدودين وكان ثقيل الجسم قوى البدن، ولهذا فقد التقى بغريمه وهو لا يحمل له فى نفسه إلا الاستخفاف والازدراء وكان يحسب أنه سيستطيع القضاء على هذا الفتى اليافع فى جولة أو جولتين ولكنه سرعان ما أحس أن الفتى لا يقل عنه مهارة فى اللعب

بالسيف، وأنه يفوقه بسرعته وخفة وزنه وحركته التى لا يكاد يتابعها البصر، فبدأ يدافع عن نفسه فى حذر وقد تلاشت بسمة الثقة من فوق شفتيه   بينما علي يهاجمه فى عنف وقد فاض قلبه بحقد مرير وبدت فى عينيه نظرة ثابتة رهيبة، وكان على يعرف فى أعماقه أنه يود هذه المرة أن يقتل ليطفىء ظمأ حارقاً فى قلبه

أما سالم فقد كان يبارز عثمانا بلا مبالاة، فما كان يود قتله، ولو شاء لقتله من أول لحظة ولكنه كان فقط يشغله عن الاشتراك فى المعركة إلى جوار مقدمه   ولكن سالماً لم يكن مطمئنا إلى ما يحدث، لقد تم كل شىء كما رسم على وقدر، فجاءه صلاح دون أتباع وبلا حذر وليس هذا من طبع صلاح كما أن صلاحا ثبت ولم يهرب وكأنه مطمئن إلى أن الفتى لن ينال منه

لهذا كان سالم هو أول من شاهد الرجال وهم يهجمون إثر إشارة من صلاح الكلبى حين أحس أن عليا سد عليه كل المنافذ وأنهكه وأوشك أن يقضى عليه   وصاح سالم محذراً علياً، وركل عثمانا فى بطنه فكوره على الأرض، واندفع بكل قوة يتعرض للزعر المهاجمين

سمع على صيحة سالم فالتفت وراءه ليراه يقف وحده أمام عشرات الزعر يقاتلهم قتال اليائس، وعض على شفتيه فى حنق، ولكنه لمح صلاحاً ينتهز فرصة التفاتته ليوجه إليه طعنة

غادرة قاتلة، فأسرع ينحرف بعيداً وهو يضرب سيف صلاح ضربة قوية أطاحته من يد مقدم الدرك الذى وقف ذاهلا لحظة استطاع على فيها أن يستعيد توازنه وما أن اعتدل على حتى رأى صلاحاً يجرى بكل قوته ليحتمى برجاله المهاجمين

وأسرع على جوار سالم الذى كان يبارز الزعر فى مهارة فائقة وجسارة لا مثيل لها وضرب على بقبضته أحد المهاجمين ثم تلقى ضربات السيوف بسيفه قطاع المجادل وهو يهمس لسالم

- هل أنت بخير ؟

فقال سالم من بين شفتيه فى صوت ينضح بالألم وهو لا يزال يقاتل فى استبسال

- لقد جرحت فى أكثر من موضع، وأكاد أقع

وما كاد ينتهى من كلماته حتى تهاوى إلى الأرض وقد أصابته طعنة جديدة وانبثق الدم من صدره

وصاح رجال صلاح الكلبى وهم يرون سالما يقع واندفعوا نحو على ليقضوا عليه كما قضوا على رفيقه

وأخذ على يصد الضربات فى يأس وقد أحس بالنهاية تدنو من جديد

وصاح صلاح الكلبى فى رجاله وهو يعود إلى المعركة بعد أن استعار سيفاً جديداً

- اهجموا عليه من كل جانب، وليتسلل بعضهم ليهاجمه من الخلف ..

وانحنى على فجأة فرفع سالماً من الأرض وقفز إلى جوار حائط   ووضع صديقه على الأرض فى سرعة ثم لف عباءته حول ذراعه اليسرى ومضى يتلقى عليها الطعنات بينما كان يقاتل بسيفه فى يمناه قتال اليائس المستميت

واندفع صلاح يشق طريقه إلى الصف الأمامى ليكون هو صاحب الطعنة القاضية التى تنهى هذا الفتى المستميت المستبسل، حين تناهي إليه صوت جوادين يقتربان بسرعة، ثم سمع حفيفاً إلى جوار أذنه وسقط أحد رجاله صارخا

والتفت صلاح ليرى فارسين ملثمين يندفعان نحو مكان القتال وهما يرميان بالسهام فى مهارة، فما يخيب سهم رغم الظلام الذى لا تقطعه إلا ذبالات حائرة من مصابيح متناثرة فى أنحاء الميدان، وسقط رجل آخر إلى جواره وسمع عثماناً يصيح

- إنها السهام   هذه ضربات أحمد بن البنى   إنها فاطمة.

وصاح صلاح فى حنق

- أى فاطمة يا أبله إنهما اثنان

وسقط واحد جديد من الزعر صارخا، فاندفع عثمان يجرى ووراءه الرجال وهو يصبح

- إنها فاطمة   فاطمة يا مقدم

ورأى صلاح غريمه يتهاوى إلى الأرض إعياء فعاد يندفع

ليجهز عليه لولا أن طن سهم إلى جوار أذنه فالتفت ليرى نفسه وحيداً وسط الساحة وقد هرب كل رجاله، والفارسان قد أوشكا أن يصلا إليه، فاندفع يجرى وهو يسب ويلعن جبن رجاله وتخاذلهم

* *

وسمع على وسط الطنين الذى ملأ رأسه صوتاً حنونا يقول

- هل أنت بخير يا على ؟

فهمس على وهو يبتسم فى مرارة

- إنه سالم يا أماه

وامتدت يد قوية ترفعه إلى جواد، بينما سمع أمه تقول

خذه يا منصور، وسأردف سالماً على جوادى أنا

ولم يعد على يسمع أو يرى شيئاً

٢٢

عم عباس

حين فتح علي عينيه وجد نفسه في فراشه وقد ملأت أشعة الشمس الدافئة الحجرة بينما جلس رجل غريب إلى جوار النافذة وفي يده سيف ثقيل ينظفه بعناية بخرقة بيضاء وكانت ملامح الرجل تشي بالقوة والبأس بينما شعر علي أن فيه شيئاً أليفاً إليه لا يدرى كنهه

ورفع الرجل رأسه فالتقت عيناه بعيني علي، فابتسم ابتسامة عريضة وهو يقول في صوت هادئ

هل استيقظت أخيراً أيها الفتى المشاغب ؟

وابتسم على لابتسامته ، وذكرى المعركة الرهيبة التي خاضها في ظلام بركة الأفيال تعود إليه ، فهب من رقدته وهو يقول

– وسالم   أين سالم ؟

ووقف الغريب بقامة عملاقة وجسد قوى   واقترب من على وهو يقول

– اهدأ يا فتى   وعد إلى فراشك فأنت في حاجة إلى الراحة

ولكن عليا أخذ يجول بعينيه في الوجه الجامد الغريب وهو يقول في إلحاح

– سالم   ماذا حدث له

وفتح باب الحجرة ودخلت أمه وهي تقول في مرح

– إن سالماً بخير وقد ضمد له خالك منصور جراحه ، وأظن أنه سيعيش فإن له جسداً قويا تعود على أمثال هذه المداعبات . .

وردد على الطرف بين أمه والغريب وهو يسأل

– خالي منصور

فابتسمت فاطمة وهي تقول في مرح

– نعم يا على فهذا خالك منصور ، كان مع أخيه رحمه الله في البلاد الأوروبية ، ومن حسن الحظ أنه عاد أمس وجلست أحكي له عنك

فابتسم منصور وهو يتأمل عليا ويقاطعها قائلا :

كنت أظن من حديثك أنه من الصبيان . . ولكن . ها هو على ابن فاطمة ، أنه رجل كامل ، ومن يراه بالأمس يعرف أنه من أسياد الرجال

وكانت عينا منصور تلمعان فى حب وإعزاز ، بينما ضحكت فاطمة واستأنفت حديثها قائلة

- إن الأم يا منصور لا ترى ابنها أبداً إلا صبياً صغيراً

وعرف على سر الإلف الذى أحسه فى الرجل الغريب فهو يحمل شبهاً كبيراً لأمه كان يظهر حين يبتسم وحين تنطق عيناه بالحب ، وسمع أمه تكمل حديثها قائلة

- وطال حديثنا وأنت لم تعد حتى بدأ القلق ينتابنى وحدثنى قلب الأم أنك فى خطر ، فخرجت مرتدية ثياب أحمد بن البنى ومعى خالك فوق جوادين نبحث عنك

فتنهد على وهو يقول

- ولولاك يا أماه لكنت الآن حيث يريد صلاح

فاقترب منصور منه وربت على كتفه فى حنان وهو يقول

- ليس مثلك من يقتله مثل صلاح الكلبى يا على ولقد كنت أظن وأنا أعود إلى أرض الوطن بعد هذه الغيبة الطويلة أننى سأعيش حياة راكدة خاملة ولكن بعد الذى رأيته منك بالأمس لا أظن أن الحياة هنا ستضجرنى

وضحك ضحكة عريضة استراح إليها على ، الذى قفز من فراشه وهو يقول لأمه

- سأذهب لأرى سالما يا أمى، فإنى ما عرفت قلباً شجاعاً مثل قلبه، والحق أنه فدانى بنفسه

- اتركه يا على فهو نائم، والنوم جزء من علاجه، وقد ضمد منصور جراحه فى مهارة فهو خبير فى مثل هذه الشؤون

وقال منصور مؤمناً

- إنه سيشفى فقط سيستغرق الأمر زمناً، وأرى أن تتركه فى راحة الآن

وأخذ على يردد بصره بين أمه وخاله لحظات ثم تنهد وهو يقول

- حسنا، سأذهب إلى حجرة البستان لأتنكر فلا بد لى من الخروج إلى بركة الأفيال

وصاحت أمه فى جزع

- بركة الأفيال. بعد كل الذى حدث هل جننت يا على؟

فابتسم على وهو يقول

- وحين تعرفين ما اعتزمت على فعله سيتأكد لديك أننى جننت بالفعل

فقالت أمه

- لن تعتزم إلا الراحة مدة طويلة حتى ينسى صلاح الكلبى أمرك فازدادت ابتسامة على وملأتها علامات الاستخفاف والاستهانة وهو يقول

- إن سكت أنا عنه فلن يسكت هو عنى، وسأضربه ضربة

قاضية لا تقيم له بعد اليوم قائمة، لقد فكرت فى الأمر ولا بد لى من تنفيذ ما استقر عليه عزمى

فقال منصور وقد اكتست ملامحه معالم الجد والاهتمام فزال كل ما كان بينه وبين فاطمة من شبه وتبدت معالم وجهه الصارمة القاسية

- وما هذا الذى اعتزمته يا على ؟

ونظر على فى الوجهين اللذين ينطران إليه فى اهتمام وإنصات وقال

- سأسرق الخزانة

وصاحت فاطمة

- تسرق خزانة العزيز ؟

بينما انفرجت أسارير منصور وفرك يديه وهو يقول

- هذه حيوية الشباب وحماسته

وقال على

- هذا وحده سيقصم ظهر صلاح ويثبت أمام العزيز عجزه وقلة حلته وربما أدى هذا إلى إقصائه عن منصبه

فعادت فاطمة تهتف وهى ما زالت لا تستطيع أن تتغلب على دهشتها

- ولكن خزانة العزيز يا على ؟

بينما تعالت ضحكة منصور وهو يقول

- هكذا تكون الضربات وإلا فلا خزانة العزيز مرة واحدة.

إن مثلى من العتاة لا يفكرون فى مثل هذا الأمر فإن للسلطان هيبته فى قلوبنا ولكن أنت يا بنى نسيج فريد حقا

وقالت فاطمة وهى تهز رأسها فى استنكار

- وهل عرفت كيف ستقدم على هذا العمل

فقال على

- لم أعرف بعد، ولهذا سأتنكر وأذهب إلى الميدان أدرس مكان الخزانة وأرسم خطتى وحين أعود سأكون قد عرفت كيف سأقدم على هذا العمل يا أماه

ولم يكن لبركة الأفيال كلها حديث سوى ما حدث بالأمس

اثنان من الجن يركبان خيلا طائرة هجماً على صلاح الكلبى ورجاله فرموهما بحجارة من سجيل ثم اختطفا علياً الزيبق ورفيقه سالما وهما فى الرمق الأخير وطارا بهما إلى السماء

وهز عم عباس كتفيه وضرب كفا بكف وهو يرفع رأسه إلى السماء ويقول

- عشنا ورأينا العجب هذا آخر زمن يا ناس آخر زمن

وقال له الأسطى محروس وهو يدس فى يده بالدرهم المعتاد كل صباح

- إن صلاحاً ظالم يا رجل، ولهذا فالله لا يرضى عن أفعاله ويرسل من ينقذ منه ضحاياه

فصاح عم عباس بصوته الجهورى الذى يعرفه كل من بالميدان :

- مدد يا سيدة مدد

ثم حمل مجمرة بخوره ومضى يكمل دورته على الدكاكين وهو يهمس بالحكاية من دكان لدكان وفى نهاية الميدان عند الخزانة وقف مع المقدم محمود يتلو له دعواته وبركاته ويطوف حوله بمجمرته وهو يصيح

الله يصونك يا مقدم محمود من جن هذه الأيام بحق بركات السيدة

فابتسم المقدم محمود وهو يدس فى يده درهما ويقول

- حتى أنت صدقت حكاية الجن هذه يا عم عباس لا جن ولا خلافه يا رجل

وبسمل عم عباس وحوقل، ثم كف عن التمتمة وهو يستمع إلى صوت جميل يقترب منهما وهو ينغم

- تفاح الشام ياخد الكواعب يا تفاح أنا أبيع الجميل لكل جميل، وبدرهم خد الجميل يا تفاح

ولم يملك عم عباس نفسه أن صاح مع النغم العذب

- إنه صبى أمرد لم أره فى الميدان من قبل

وابتسم المقدم محمود وأطرق برأسه وهو يقول :

- صوته حقاً جميل

ثم قطب حاجبيه وهو يقول

- إنه يسير إلى جوار السور وهذا ممنوع

فهتف العم عباس مسترحما الجندى

- ربما كان غريبا يا مقدم رفقا به فصوته جميل وشكله نظيف.

ولكن المقدم محمودا لم يكن يعرف فى الواجب مجاملة، فما أن اقترب الفتى يسوق أمامه حماره محملا بالتفاح حتي قال له فى خشونة

- امض من هنا يا جدع، فالسير من هنا ممنوع

فابتسم الفتى ابتسامة نورت قلب عم عباس، بينما قال فى صوت رقيق

- يا صباح الجمال يا سيد الشجعان ذق تفاحة وأنا أطيع الأمر فالجميلة للجميل وأنت والمصطفى رائق وجميل

ولم يملك المقدم محمود نفسه من الابتسام بينما امتدت يد الفتى إليه بتفاحة جميلة اللون والرائحة، وتردد المقدم محمود لحظات فهمس عم عباس وقد صفا قلبه للغلام ورق له

- الهدية لا ترد يا مقدم والفتى لم يكن يعرف أن السير هنا ممنوع خذها وتوكل

وبينما كان المقدم محمود يأخذ التفاحة متردداً كان عم عباس يحرك مجمرته فوق الحمار وحمله وهو يصيح

- الصلاة على النبى   مبارك يا فتى ونهار رزقه وافر ومدد يا أم العواجز مدد

وابتسم الفتى وهو ينتقى تفاحة ناضجة ويمد يده بها إلى عم عباس الذى انقض عليها انقضاضاً ، بينما قال المقدم محمود وهو يقضم من التفاحة وقد زالت من صوته نبرة الحدة والأمر

- تفاحك شهى يا فتى   ولكن لا تطل الوقوف ، فهنا خزانة العزيز

وكأن الفتى لم يسمعه مضى ينخس حماره وهو يسير وراءه مناديا

- حا يا حمار   دا العزيز هو العزيز   وأنا أبيع العزيز وعال يا تفاح

وسمع صوت عم عباس وراءه يقول همساً

- لو فهم الجندى نداءك ما تركك   ولكنك فتى ظريف ، ورأيك فى العزيز كرأيي تماما   ولكن ما باليد حيلة

فالتفت إليه الفتى وقال

- ما لنا والعزيز يا عم   إنما أنادى على التفاح   ونحن نبحث عن الرزق لا عن المصائب

فقال عم عباس وهو يقضم من التفاحة قضمة يستحلبها فى فمه قبل أن يلوكها فى بطء ولذة

- لك حق يا بنى   نحن ناس على باب الله

ثم أخذ يلوح بمبخرته وهو يصيح وفمه ملآن :

حى قيوم مدد يا ست مدد يا أم العواجز مدد

وجاء صوت خشن آخر يصيح بهما

مكانك أنت وهو

ووقف الفتى، بينما ابتلع عم عباس ما فى فمه وهو يلوح بمبخرته فى وجه الجندى ذى الشارب الكث الذى يقترب منهما وقال

- مدد مدد صباح السعادة يا مقدم حسن نحن نسترزق يا خال

ولم تتغير لهجة الجندى الخشنة وهو يصيح

- ابتعد أنت وهو فليس هذا مكانكما

فقال الفتى فى ضراعة

- لا تقطع رزقنا يا شيخ

فعاد الجندى يصيح فى انفعال

- رزق عند باب الخزانة، وهل هذا مكان تبيع فيه يا غبى

فبدت علامات البلاهة على وجه الفتى الأمرد بائع التفاح وهو يقول

- باب الخزانة وهل الخزانة لا تأكل التفاح ذق يا عم هذه التفاحة وقل لها تشترى منا

وهمس عم عباس مفسرا وهو يغمز بعينيه ويشير إلى التفاحة فى يد الفتى

- الفتى غريب يا مقدم حسن وتفاحه حلو وسنمضى

من هنا ولم يملك المقدم حسن نفسه فضحك وهو يمد يده إلى التفاحة ذات الرائحة العطرة ويقول

- الخزانة تشترى الخزانة ليست أحداً يا فتى ولا أحد يسكن هنا يا أبله

فقال الفتى

- ذق هذه من يد بياع الشهد والعسل على أية حال

فقضم المقدم حسن التفاحة الشهية وهو يملأ رئيته من رائحتها الذكية وقال

- حلوة يا فتى، والآن امض من هنا فتح الله عليك

فعاد الفتى ينخس حماره ويسير وراءه وهو ينادى بصوته العذب

- الشهد نبيعه لذواقه، والعسل طلب أكاله، وأنا أبيع التفاح وقال عم عباس وهو يلاحق الفتى

- لقد نفذت منه يا فتى إنه لا يرحم بائعاً

- لماذا ؟

- يظن نفسه ما دام حارس الباب أنه مقدم الدرك نفسه ناس منفوخة

فقال الفتى وهو يتظاهر بعدم الاكتراث

- ولكن الجندى الآخر يبدو أكثر أهمية من هذا المقدم يا عم عباس

فقال عم عباس فى لهجة العارفين

لا هذا أهم من هذا ولا ذاك أهـم من الأول هما واحد

كل ما فى الأمر واحد للسور وآخر للباب، والثالث مثلهما

الثالث

نعم الثالث عند السور الداخلى، فبعد أن تدخل من الباب هناك ساحة ثم مبنى الخزانة وفى الساحة يقف حارس ثالث، مثل هذين تماماً، ولكن كل منهم يظن أنه العزيز نفسه

فقال الفتى وهو يمد عم عباس بتفاحة ثانية خطفها من يده خطفاً

- أنت تعرف الميدان تماما يا عم عباس

وشم عم عباس التفاحة الثانية ومسحها فى جلبابه وأخذ يتأملها وهو يقول

- أعرفه حجرا حجرا يا بنى، ثلاثون عاماً وأنا أقطع الميدان أبخر كل دكان فيه

وابتسم الفتى وهو يقول

- حديثك شهى يا عم عباس، سر بنا نتحدث عسى أن يفتح الله علينا بزبون

ومضى الاثنان، واحد يتحدث والثانى يصغى بانتباه يخفيه وراء أسئلة بريئة المظهر، ولكنها دقيقة فى تحديد معالم الميدان ومبنى الخزانة فيه

٢٣

خزانة العزيز

قال على

- متى دخلت من باب السور الذى يطل على الميدان واجهنى مبنى الخزانة على بعد قليل من السور، وليس هناك سوى ثلاثة جنود وقد استطعت أن ألمح شباكا من الحديد يعلو عن الأرض عشرين ذراعاً ولا أشك أنه المدخل إلى الخزانة

فتنهدت فاطمة وهى تقول

- أخاف عليك يا على

- لا تخافى فقد دبرت حيلتى ولم أدع شيئاً للظروف

وقال منصور

- سآتى معك لأنفعك بخبرتى

فقال على

لا يا خال   أنت غريب ، ومجهد من السفر الشاق ، وربما لجأت إليك فى وقت الشدة

فقالت فاطمة فى ضراعة

- ولكن يا على   إن وجود خالك معك يضمن لك النجاح

فقال على فى إصرار

- لا يا أمى   إن خطتى لا تنجح إلا بى وحدى   فدعينى أنفذ ما اعتزمت عليه

فتنهدت فاطمة فى استسلام وهى تقول

- الأمر ما ترى يا على

فقال على

كيف حال سالم   هل أستطيع أن أراه ؟

فعاد الابتسام إلى وجه على وأسرع إلى حجرة صديقه وهو يقول

- سأقتص لسالم من صلاح وستكلفه جراح سالم الكثير من مال العزيز

رفع سالم وجها شاحبا قد غارت العينان فيه إلى على ، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة على الوجه المتغضن العجوز   وخفق

قلب على فى ألم وهو يرى الملامح الحبيبة إليه وهى ترزح تحت ثقل الإعياء والألم وهمس وهو يقبض بيده على راحة سالم الممتدة

- أنت بخير وستشفى وسنعود معاً إلى مواجهة صلاح وبذل سالم جهداً خارقاً ليكون صوته واضحا هادئاً أمام صديقه الفتى وقال

- نعم يا على سنعود وسنهزمه

ثم عادت علامات الألم تكسو الوجه الشاحب من جديد وجاء صوت فاطمة عند الباب تهمس

- لقد فقد الكثير من دمه يا على فلا تجهده اذهب أنت فهو هنا فى رعايتى

وانحنى على فطبع قبلة على الجبين الملتهب، وابتسم سالم فى وهن وهز رأسه، ثم غادر على الحجرة وهو يحس فى قلبه ثقلاً وفى حلقه مرارة

* * *

انطفأ آخر مصباح فى دكان الأسطى أحمد الشربتلى فلم يعد ينير الميدان إلا مصابيح متناثرة هنا وهنا، وأغلق الأسطى أحمد دكانه ثم مضى متثاقلا يقطع السكون المخيم على الميدان بوقع أقدامه المتثاقلة وحين غابت أصوات أقدام الأسطى رجب ساد الميدان صمت كامل لم يكن يقطعه بين الحين والحين إلا سعلة من المقدم محمود عند السور أو صيحة تنبيه من المقدم

حسن عند باب مبنى الخزانة

وفجأة نهق حمار عند مدخل الميدان وارتفع صوت حوافره سريعة متعجلة تشق الميدان ووراءها وقع أقدام لرجل يغذ السير فى هرولة   وصاح المقدم حسن من عند الباب

- من هناك

وجاوبه صوت المقدم محمود وهو يصيح

- مكانك   قف ولا تتحرك

وتوقف صوت وقع حوافر الحمار، واقترب المقدم محمود وقد رفع حربته فى يده مهددا، ولكنه حين اقترب من الحمار وصاحبه سأل فى دهشة

- اهدأ أنت   ما الذى تفعله هنا

فقال الفتى بائع التفاح وفى صوته خوف وتردد

- طال اليوم يا مقدم ولم نحصل على رزق العيال   وكلما قلت يا ولد نروح، أقول فى نفسى انتظر ربما بعنا ما تبقى حتى هجم الليل ولم يعد بد من المرواح

فضحك المقدم محمود وهو يخفض حربته وقال

- لقد تأخرت أيها المهذار   فهيا أسرع وإلا هاجمك اللصوص وقطاع الطرق

وجاء صوت المقدم حسن ووقع أقدامه تهز الطريق مقتربا منهما

- من هذا يا مقدم محمود

فعاد المقدم محمود يضحك وهو يقول

- إنه الفتى الغريب، بائع التفاح المهذار، لا يعرف أن السير في الليل ومعه حصيلة النهار يعرضه للسرقة

فقال المقدم حسن وهو يبتسم

- وهل نفذ كل تفاحك يا فتى ؟

فقال الفتى وقد عادت الطمأنينة إلى صوته

- أبداً يا مقدم

ثم مد يده إلى الحمل على ظهر الحمار فأخرج تفاحتين وهو يقول

- أهى حلوة كتفاحة الصباح يا فتى ؟

فضحك الفتى وهو يعطى التفاحة الثانية للمقدم حسن ويقول

- وهل يأكل الحلو إلا الحلو والآن أترككما لأسرع حتى أصل إلى البيت قبل أن يضيع رزق العيال

ثم ضرب حماره بكفه وهو يسوقه أمامه بسرعة ووراءه ضحكات المقدمين اللذين سرعان ما انهمكا فى أكل التفاحتين فى نهم وشراهة

* * *

بعد ساعة كاملة كان الميدان غارقاً فى صمت مطبق، وكانت أضواء المصابيح الخافتة قد أصبحت شاحبة لا ترسل إلا ظلالاً باهتة تزيد الميدان ظلاماً على ظلام، وتسلل شبح قد تسربل

بالسواد فغدا لا يكاد يظهر وسط الظلام الكامل، واندفع فى خفة يخترق الميدان إلى السور، ثم انحنى فوق المقدم محمود الغارق فى النوم وابتسم   وبنفس الخفة والسرعة جرى إلى الباب حيث كان المقدم حسن لا يقل عن زميله إغراقاً فى النوم

وعاد الشبح يبتسم وهو يهمس

- لقد أعطت التفاحتان مفعولهما. بقى الحارس بالداخل..

وامتدت يد على إلى ملابس المقدم حسن وخرجت تحمل مفاتيح الباب، وما هى إلا ثوان حتى كان باب المبنى مفتوحاً وكمن على فى الظلام يجول بعينيه فى الساحة الممتدة أمامه حتى لاح له شبح جندى طويل يسير فى تكاسل عند ناصية المبنى الداخلى   وتسلل على فى هدوء إلى جدار المبنى، وفى خفة القط وثب فوق الجندى الغافل وقد وضع يده فوق فمه حابسا صيحة كادت تشق سكون الليل، ثم ارتفع صوت خبطة قوية، وتهاوى جسد الحارس الأخير على الأرض دون حراك

ووقف على فى مكانه قطعة من الظلام وآذانه مرهفة، ولكنه لم يسمع صوتاً يدل على أن هناك من شعر بما حدث داخل المبنى   وسرعان ما دب فى جسده النشاط فأسرع نحو النافذة الحديدية ورمى بمفرده إلى الجدار، وتسلق على السلم الذى أخذه من مخلفات أبيه حتى حاذى النافذة   وفى صبر وأناة مضى يزيل المسامير التى تثبتها فى الحائط

وهو لا ينى يراقب الساحة المظلمة تحته فى حرص   وحين

انتهى على من المسمار الأخير رفع الشباك الحديدى كله وأنزله فى داخل الحجرة فى هدوء ثم وثب إلى الداخل وهو يبتسم

* * *

سمعت فاطمة طرقة الباب الخافتة فهبت واقفة وهى تقول

- لقد عاد على

وأسرع منصور يفتح الباب وهو يهمس

- أهذا أنت يا على

وجاء صوت على المرح وهو يقول

- أسرع يا خال وارفع معى هذا الصندوق من فوق ظهر الحمار ولندخله إلى المنزل

وأسرع منصور يرفع مع علي الصندوق الثقيل وهو يقول

- صندوق من خزانة العزيز   عشنا ورأينا

وأسرعت فاطمة تغلق الباب خلفهما وهى تقول لعلى

- والحمار ؟

فقال على وهو يرفع عن وجهه اللثام الأسود، ويخلع عن جسده العباءة السوداء التى تسربل بها فى مغامرة ليلته المثيرة

- سيعرف طريقة إلى الإسطبل

وقال منصور وهو يتحسس الصندوق

- لقد نجحت فيما عجز عنه الجبابرة يا علي

فقال علي وهو يتهالك على مقعد وثير

- حين قفزت إلى داخل الحجرة أشعلت سهم النفط

فتكشفت لى الحجرة عن عشرات الصناديق وكلها تحت أمرى وطوع بنانى ولكننى اخترت أقربها إلى وأدليته من النافذة

ثم أسرعت أعيد تثبيت المسامير فى النافذة لترجع كما كانت، ونزلت فطويت السلم وأحضرت الحمار الذى كنت أخفيه خلف دكان الشربتلى، وعدت، ولا من رأى ولا من سمع..

فهتف منصور

والجنود

وعاد على يبتسم وهو يقول

- اثنان لن يفيقا قبل يومين، وإن أفاقا فلن يذكرا شيئاً فقد كانت التفاحتان مليئتين بالبنج، أما الثالث فسيشكو الصداع أسبوعا فلقد كانت ضربتى فوق رأسه قوية ومحكمة

فتنهدت فاطمة وهى موزعة بين الفرح بنجاة على والخوف عليه من عاقبة ما فعل وقالت

- سيجن العزيز ولن يسكت على صلاح أبدا

قال علي

- أعرف، وهذا ما أريد

بينما قال منصور وهو يفرك كفيه فى ارتياح

- سيسعدنى أن أشهد منظر لقاء العزيز بصلاح غداً عندما يعلم بأمر سرقة خزانته

فهتف على فى دهشة

- تشاهد هذا اللقاء كيف ؟

فابتسم منصور وهو يقول

- أنسيت أننى حضرت من البلاد الإفرنجية ولا بد أن أروى للعزيز كل ما شاهدت هناك وكل ما فعلت. سأذهب غداً إلى الديوان لأعلن عودتى وأقدم له صورة لما يجرى فى بلاد الأعداء. وسأشاهد فى نفس الوقت منظرا فريدا لا أريده أن يفوتنى.

وعاد يضحك وهو يفرك يديه ارتياحاً بينما ابتسم على وهو يربت على الصندوق المغلق

صاح العزيز فى صوت رج الديوان كله

- إن لم يكن لك به طاقة فقل، اعترف أنك عجزت

ووقف صلاح يحرك قدميه فى قلق وهو لا يستطيع أن يجد صوته ليرد على غضبة العزيز العارمة، وعاد العزيز يصيح وهو يجيل نظره فى كل من بالديوان

- يدخل إلى الخزانة ويسرق صندوقاً من المال دون أن يكسر باباً أو شباكاً لم يسمع أحد بمثل هذا من قبل كيف دخل ؟ كيف خرج ؟

واستطاع صلاح أن يجد صوته فقال فى صوت خافت

- إنه من الشياطين يا مولاى

وقالت دليلة وكانت تتابع الحوار فى انتباه :

- ليس هذا من فعل الشياطين، فالشياطين لا تسرق بيوت المال يا مقدم صلاح

والتفت العزيز إلى دليلة وهو يلوح بيده وقال

- هل يحدث مثل هذا فى بغداد يا دليلة ؟

فابتسمت دليلة وهى تقول

- فى بغداد لا يجسر لص على أن يطل برأسه فى الليل.

وضحكت زينب ضحكة ناعمة وهى تعقب على حديث أمها قائلة

- فى بغداد دليلة يا مولاى، والكل يعرف من دليلة.

والتفت صلاح الكلبى إلى دليلة وزينب وفى نظرته امتعاض ظاهر وقال

كل ما فى الأمر أن بغداد لم تشهد واحداً كعلى الزيبق. أما هنا فقد نكبنا بهذه الداهية لتنقص من أقدارنا أمام كل الناس ولكننى أقسم أننى سأناله، وكما سقته إلى المشنقة سأذبحه بيدى. فعادت زينب تضحك وهى تقول

- وهل سقته حقا إلى المشنقة يا مقدم صلاح ألم يكن هذا من تدبير أمى دليلة ومن تنفيذى أنا ؟

وأحس صلاح بالمهانة تملؤه حنقا جعله ينسى أنه فى حضرة العزيز، فقال فى غضب

- إن هذا الفتى يفوقنا جميعا مهارة، ولولاك ما فعلت دليلة شيئا وما عجزت أنا عنه تعجز عنه دليلة.

وهبت دليلة من جلستها واقفة وهى تقول فى غضب

- لقد تجاوزت كل حد يا مقدم صلاح..

ثم التفتت إلى العزيز قائلة

- إننى أقسم يا مولاى غير حانثة أن أقوده ذليلا حاسر الرأس عارى القدمين لأضعه تحت قدميك. /

فابتسم العزيز وهو يقول

- وأنت قادرة على تنفيذ هذا القسم يا دليلة. ولكن لا داعى للاختلاف بينك وبين المقدم صلاح، فلا يعنينا إلا صيانة الأمن، ولا بد أن تتعاونا حتى تنجحا فى القضاء عليه.

فابتسمت دليلة وهى تقول

- إن المقدم صلاح هو الذى رمانى بالعجز، ولكننى لا أرحب بشىء قدر ترحيبى بالعمل معه، وقد قدمت له معونتى من قبل، دون أن يعرفنى هو، ودون أن يطلب هذه المعونة.

فقال المقدم صلاح الكلبى متراجعا

- لست أنكر تعاونك يا دليلة.. ولكن.

فقال العزيز مقاطعاً وهو يشير بيديه منهياً الموضوع

- ليس هناك لكن يا مقدم صلاح. إننى أمهلك أنت ودليلة ثلاثة أيام لتحضرا لى هذا اللص الذى تجرأ على خزانتى وسرق بيت المال دون أن يخشى شيئا ودون أن يترك وراءه أثراً

فابتسمت دليلة وهى تقول

- لدى خطة ولكنها تحتاج إلى تعاونك يا مقدم صلاح،

وستحقق رغبة العزيز

وقالت زينب فى هلع

- ولكن يا أمى نحن سنعود إلى بغداد..

فعادت دليلة تقول

- سنعود بعد أن أحقق القسم الذى أقسمته أمام العزيز

وانحنت دليلة أمام العزيز تطلب الإذن بالانصراف، فأشار لها بيده موافقا، وانسحبت وهى تبتسم ووراءها صلاح يسير فى انكسار، وخلفهما زينب تكاد تتعثر فى مشيتها وقد شحب لونها وارتعشت شفتاها فى انفعال وقلق. وقال العزيز متلفتاً إلى منصور الذى كان يجلس على يساره فى الديوان

- والآن يا مقدم منصور احك لنا عما شاهدته فى بلاد الإفرنج. وهل ينوون حقا العودة إلى حربنا؟!.

٢٤

جثة بلا رأس

قالت فاطمة وهى تضرب كفاً بكف

- دليلة مرة أخرى. إن هذه المرأة لا تريد أن تترك عداءها لنا أبدا.. لماذا لا تعود إلى بغداد وتريحنا؟

فقال منصور

- هكذا قالت لها ابنتها زينب.. ولكنها أصرت على البقاء. فهتف على وقلبه يدق فى عنف

- زينب، وهل كانت حاضرة فى ديوان العزيز ؟

فابتسم منصور وغمز بعينه لفاطمة معابثاً وهو يقول

١

- ولو صدق ظنى لكانت أكثر خوفاً عليك من شر مكر أمها، منى أنا؟

ثم ضحك وقال

- إنها زينة الديوان وبهجة الناظرين

فقالت فاطمة وهى تقطب حاجبيها فى عبوس

- ما هذا يا منصور إنها ابنة دليلة. وهل تريد من ابنة الحية أن تكون ملاكاً؟

فقال منصور وهو ينظر إلى على

- وهى ملاك يا فاطمة

واحمر وجه على وهو يقول

- إن أمى على حق يا خال، فإن فعلها فعل الشياطين، ولن أنسى أبداً أنها هى التى أذاقتنى طعم المشنقة

فقال منصور وهو يتنهد

- والله يا ابنى إنها لتليق بك، كأنما ما خلق أحدكما إلا للآخر، فأنتما فى الشباب والجمال والجرأة والشجاعة صنوان.

فقالت فاطمة بصوت غاضب

- أقسمت دليلة أنها ستسوق عليا إلى العزيز مكشوف الرأس حافى القدمين حيث تضعه هكذا تحت قدميه

فصاحت فاطمة فى غضب

- خسئت هذه الأفاقة

بينما ابتسم على ابتسامة وهو يقول

- حسناً، سنرى يا خال سنرى

وأطرق هامساً لنفسه

إذن فستسوقنى عارى الرأس حافى القدمين   حسناً يادليلة حسناً

وهب واقفاً وهو يقول

- سأذهب إلى بركة الأفيال لأستطلع تدابير دليلة وصلاح وأفكر فى نفس الوقت

فقالت فاطمة

- تفكر فى ماذا   ؟

قال على وهو يفتح الباب ويخرج

- فى تهديد دليلة وقسمها

* *

قالت زينب للمرة العاشرة لأمها وهما فى الدار بعد عودتهما من عند صلاح الكلبى

- ولكن يا أمى هذا حرام. إنه لم يتعرض لك بشر   إنه حتى لا يعرفك

فتنهدت دليلة وهى تمعن فيها النظر وقالت

- إنه ابن حسن رأس الغول وهذا يكفى   أنت مازلت صغيرة لا تفهمين   إن الرجال من أمثال حسن رأس الغول وزملائه أحمد الدنف وشحاته أبو حطب يجعلون بالنسبة لى شيئاً صعباً لا يطاق   إنهم يظنون أن الحياة للفروسية،

الشهامة، والكرامة والصدق وأشياء من هذا النوع وجودهم نفسه أعتبره تحدياً سافراً لى فأنا لا أعرف إلا النصر بكل الوسائل أصل إليه، بالمكر مرة والخداع والكذب مرة، والخيانة إن أمكن ولكن حين انتصر يقول الكل دليلة شاطرة أتفهمين والشاطرة ينسب لها الناس كيف أصبحت شاطرة فهم لا يحبون إلا النجاح أما هؤلاء الرجال فهم يتحدثون عن الحق كأنه موجود، عن الكرامة كأنها مازالت حية ولذلك فأنا أقضى عليهم واحدا واحدا

وصاحت زينب

- ولكن عليا لم يعرف أيا منهم

وأطرقت زينب أمام نظرات أمها الحادة وهى تقول فى صوت كالفحيح

- إنه ابن أحدهم، وهذا يكفى وفى الصباح سيكون مقتولاً أشنع قتلة سمع عنها إنسان

رفع سالم رأسه فى وهن وهو ينظر إلى وجه صديقه الفتى بنظرات كلها حب وقال

- فى المرة السابقة ساقتك دليلة إلى المشنقة، وفى هذه المرة لن ترحمك

فابتسم على وقال

- لقد أطلقت خلفى كل كلاب الصيد فإما أن أصل إلى بر

الأمان، وإما نهشتنى الكلاب لا محالة

فربت سالم على كتف صديقه القوية وقال

- أتمنى لك التوفيق يا على

وابتسم وهو يقول

- فقط لا تدعهم ينالوك هذه المرة حتى أستطيع أن أكون معك فى المرة القادمة

وانحنى على فقبل جبهة صديقه المتغضنة ثم زايل الحجرة مسرعاً إلى غرفته القديمة فى البستان

هتف منصور فى دهشة

- مائة من الزعر حول الخزانة ومائة فى الخارج هل يتصورون أنك ستقود جيشاً لاقتحام الخزانة ؟

وقالت فاطمة

- لقد استطعت أن تقتحم الخزانة مرة وأن تسرق منها صندوقاً من بيت المال ألا يكفى هذا ؟

فقال على وهو يبتسم

- بل لا بد من سرقة الخزانة بعد كل هذه الاحتياطات التى اتخذتها دليلة وصلاح لأثبت لهما أنهما لم يخيفا الزيبق

فعاد منصور يهتف

- ولكن مائة فى الداخل ومائة فى الخارج، هذا كثير كيف ستشق طريقك وسطهم ؟

فقال على وعيناه تلمعان

- لقد بنيت خطتى على أساس استغلال هذه الحراسة الكبيرة.

قال منصور فى عناد

- لن أدعك وحدك وسأذهب معك

فابتسم على وقال

- نعم يا خال، فلك دور لابد من القيام به هيا بنا نتأهب ففى حجرة البستان الملابس اللازمة لنا

وغادر الاثنان القاعة وعينا فاطمة تتبعهما فى قلق وقد انقبض قلبها وأحست بالخوف يملأ نفسها، ولكنها كانت تعرف أن المعركة التى يخوضها ابنها معركة يائسة فإما النصر الكامل وإما الموت، وتمتمت شفتاها فى دعاء صامت ثم قامت إلى غرفة سالم لعل وجودها مع هذا الصديق المخلص يخفف عنها عناء الانتظار

حين انطفأت آخر المصابيح فى بركة الأفيال تسلل شبح متسربل بالسواد ينتقل على حذر من ناحية إلى ناحية حتى وصل دكان الأسطى محروس الزيات، وكمن الشبح دقائق عند الباب ويداه تعملان فى خفة وسرعة فى قفل الباب، وسرعان ما تسلل الشبح إلى الدكان وقد استجاب القفل للمساته وانفتح الباب المغلق وأخذ الشبح يدور وسط الدكان فى سرعة وهو

يكوم براميل الزيت بعضها إلى جوار بعض ويضع بينها خرقاً مبلولة بالنفط ثم تراجع إلى قرب الباب وأشعل سهم نفط حجب ضوءه بجسده ورماه فوق الكوم الملتهب ثم أغلق الباب، وأسرع يتسلل مسرعاً إلى أن جاور باب مبنى الخزانة فكمن فى الظلام وانتظر

* * *

لم يكن للزعر حديث فى هذه الليلة إلا القسم الذى أقسمته دليلة أمام العزيز، فقد كانوا جميعاً يحسون بالرعدة تملأ أجسادهم حين يتذكرون الحكايات المخيفة التى يتناقلها الناس عن أعمال دليلة المحتالة التى فاقت جبابرة العتاة واستطاعت أن تزيح من الميدان كل المنافسين ثم راحت فى تبجح وتسلط تفرض على بغداد قانونها هى، فكل تاجر لا يأمن على تجارته إلا إذا دفع الأتاوة المعلومة الثابتة لدليلة فى كل عام، وكل مزارع لا يأمن على أرضه وماشيته وأولاده إلا إذا كانت هداياه الثابتة تصل إلى دليلة بانتظام، وكل موظف فى بلاط الخليفة فى بغداد لا يستطيع أن يطمئن إلى مركزه إلا إذا كانت وسيلته إلى الوصول إلى هذا المركز هى دليلة. حتى الخليفة كان يشترى رضاء دليلة وولاءها بأن يغض النظر عن كل ما تفعل. قال عثمان

– أما أعوانها وأتباعها فهى تغدق عليهم بلا حساب

فقال منصور الذى كان يقف إلى جوار عثمان وهو يعبث فى

لحيته وعيناه تجوسان خلال الميدان المظلم

- ولكن المال وحده يا مقدم عثمان لا يضمن ولاء الأتباع

فضحك عثمان من سذاجة هذا المقدم الذى جاء من بلاد الإفرنج ويزعم أنه رأى هناك ما لم يره أحدهم وقال وهو يربت على كتفيه العريضتين

- المال وغير المال يا مقدم منصور، إن دليلة تعرف عن أتباعها ما يكفى لإرسال أى واحد منهم إلى المشنقة لو أرادت ومن سار منهم على الصراط السوى دبرت له ما يوقعه فى مظان التهم ثم تسترت عليه لتضمن ولاءه

فهز منصور رأسه وأجال عينيه فى الوجوه المتطلعة حوله وقال

- إنه المال والخوف إذن

وتنهد وهو يقول

- لقد طالت وقفتى هنا فى انتظار المقدم صلاح، وها هو لم يحضر حتى الآن سأذهب أنا إلى المنزل فقد كان لقائى بالعزيز حافلا وأود أن أستريح

فقال عثمان وهو يتشبث بذراعه

- بل انتظر يا مقدم   إننا نريد أن نسمع منك عن البلاد الإفرنجية، أحقا أن النساء هناك يسرن سافرات

فابتسم منصور وهو يعبث بلحيته بلا مبالاة، بينما تدور عيناه فى الميدان فى سرعة وترقب وقال

- إنهن يا مقدم عثمان كلهطة القشدة، بيض الوجوه ناعمات الشعور، أسيلات الخدود

وفجأة لمحت عينه لسان اللهب وهو يخرج من دكان الأسطى محروس الزيات فقطع حديثه وصرخ بالرجال وهو يشير بيده

- النار، النار يا رجال الميدان يشتعل بالنار هيا نسرع إلى إطفائها حتى لا تصل إلى دار الخزانة

واندفع الرجال وقد أذهلتهم الصيحة المفاجئة ينظرون فى كل اتجاه، وسرعان ما دوى انفجار مروع مزق دكان الأسطي محروس واندفعت ألسنة اللهب تمتد إلى كل الدكاكين المجاورة

ولم ينتظر الزعر دعوة أخرى فقد اندفعوا جميعاً نحو النار وعلى رأسهم عثمان الذى أخذ يصيح فيهم

- أحضروا الماء من المنازل، وأيقظوا السكان ليهربوا

وحين خلت الساحة تماماً ابتسم منصور ثم أسرع إلى باب المبنى يدقه فى عنف، وأطل حارس الباب يصيح

- من هناك ؟ ما هذه الضجة كلها ؟

فصاح به منصور وهو يكسب لهجته نبرات الذعر والاضطراب

- إنه على الزيبق هاجم حراس السور بجيش كبير، والمقدم صلاح يأمركم بالإسراع إلى نجدتهم، أسرعوا فهم يحرقون الميدان ويرمون بالسهام ويقذفون بالحراب، وأسرعوا وإلا أفنوا الزعر جميعاً .

وسرعان ما انفتح باب المبنى واندفع مائة من الزعر صارخين وهم يحملون السيوف والحراب، ويضربون فى الظلام السائد كل من يقابلهم

ووثب الشبح الكامن عند الباب يدخل مسرعاً وعند جدار الخزانة وقف يتنصت لحظات فلم تصله إلا ضجة الزعر المتعالية فى الميدان فرمى بالسلم إلى الجدار وشده ليتأكد من متانته ثم تأهب للصعود حين أحس بيد تمتد إلى كتفه، فالتفت مذعوراً ليجد وجه منصور الملتحى يبتسم له وهو يقول

– ما كنت أظن خطتك ستنجح بسهولة هكذا يا على

فقال على

– سأسرع فلا بد أن يتبينوا الخدعة ويعودوا

فقال منصور فى تشبث

– إنه أنا الذى سيصعد هذه المرة يا على فمن حقى عليك أن أنال شرف سرقة العزيز

فتنهد على وهو يقول

– حسنا أسرع يا خال وسأراقب لك المكان لأنذرك عند أية بادرة خطر

وكالفهد تسلق منصور سلم التساليك حتى وصل إلى الشباك، ومضى يزيل مساميره فى سرعة وإتقان وما هى إلا لحظات حتى سمع على صوته وهو يقول

– سأسند الشباك إلى الحائط وأدخل الآن ..

ثم غاب شبحه داخل فتحة الشباك، وفجأة علا صوت صرخة حادة مليئة بالألم   وعرف على صوت خاله فهتف به فى صوت متخافت

- ما بك يا خال

ولكن علياً لم يسمع جوابا على سؤاله، ولم ينتظر بل اندفع بدوره يصعد السلم فى سرعة، وسرعان ما اختفى شبحه داخل فتحه الشباك المخلوع

*

قال صلاح

- إنهم مشتبكون فى معركة غريبة، يقاتل بعضهم بعضا بينما تندلع النيران فى الميدان كله

فابتسمت دليلة فى الظلام وهى تقول

- كنت أتوقع هذا فهو لا يعدم حيلة يبعد بها الرجال ولهذا وضعت له الفخ الذى لا نجاة منه ولا مهرب   هيا بنا إلى غرفة الخزانة فلا شك أنه غارق الآن فى برميل الزفت المغلى

وشهقت زينب التى كانت تقف إلى جوار أمها فى ذعر وهى تقول

- برميل زفت مغلى، ما هذا يا أمى

فابتسمت دليلة ابتسامة رهيبة وهى تقول

- نعم   فقد وضعت له تحت النافذة الحديدية مباشرة برميلا من الزفت المغلى ووضعت تحته نارا لا تهدأ   ومتى قفز إلى الحجرة غرق فى الزفت إلى أذنيه ومات فى الحال .

وشهقت زينب فظيعة يا أماه

فقالت أمها متهكمة

لست أظن أنك تحبين رؤية وجهه الجميل وهو في البرميل، امكثى هنا حتى نعود، أو عودى أنت إلى البيت، فلست أحب أن تفوتنى لحظة التشفى فى هذا الملعون

ووقفت زينب ذاهلة بينما هرولت دليلة ومعها صلاح الكلبى إلى حجرة الخزانة، وهناك كانت تنتظرهما مفاجأة لم تكن فى حسبانهما   فحين دخل صلاح الحجرة رافعا فى يده مشعلا يضىء المكان صرخ قائلا

- دليلة   هناك جثة فى البرميل

ودخلت دليلة الحجرة وراءه وهى تقول فى انتظار

- ألم أقل لك

وصاح صلاح مرة أخرى

- ولكنها جثة بغير رأس

وتمتمت دليلة فى ذهول

- جثة بغير رأس

وحين رفع المقدم صلاح الكلبى مشعله ليمكن لها من الرؤية ووسط الظلام رأت جثة ضخمة تملأ البرميل الذى يغلى. ولكنها كانت مقطوعة الرأس. وأخرجتها صرخة صلاح من ذهولها حين صاح

- لقد اختفى صندوقان من بيت المال يا دليلة ..

٢٥

نبكى موتانا

حين دق الباب أسرعت فاطمة واجفة القلب تفتحه، واستطاعت أن تلتقط أنفاسها اللاهثة حين طالعها وجه على الحبيب من فرجة الباب، وهمس على

- أسرعى يا أمى ساعدينى

وخرجت فاطمة معه وعند الباب رأت الحمار يقف فى طاعة وعلى ظهره صندوقان، ودون أن تتحدث مضت تساعد ابنها على فى إدخال الصندوقين إلى المنزل، ثم أغلقت الباب وراءهما وقالت وهى تلهث

صندوقان يا على ألم يكن فى صندوق واحد الكفاية ؟

فقال على وهو يحمل أحد الصندوقين ليضعه إلى جوار الصندوق الأول

- واحد لى يا أماه، والثانى لخالى منصور

وتنبهت فاطمة إلى أنها لم تر منصورا مع على فقالت فى لهفة

- وأين خالك منصور يا على

فتجاهل على سؤالها ومضى يحمل الصندوق الثانى إلى جوار زميليه وهو يقول

- لقد كانت ليلة رهيبة. أعد فيها صلاح كميناً، وأعدت دليلة فخا رهيبا، أما كمين صلاح فقد تغلبنا عليه

فقاطعته أمه وصوتها يرتجف

- وفخ دليلة ماذا دبرت أخبرنى

فرفع على قامته بعد أن غطى الصناديق بملاءة سوداء تخفيها عن الأعين المتطفلة وقال

- برميل زفت مغلى تحت النافذة من وثب منها سقط فيه

وشهقت فاطمة وهى تخفى فمها بيدها وقالت

وكيف اكتشفتها

- لم أكتشفها وإنما اكتشفها خالى منصور

وكان الذعر واضحا فى صوت فاطمة وهى تسأل :

- منصور كيف

قال على وهو يطرق إلى الأرض.

- حسناً يا أماه   لابد أن تعرفى   لقد وقع فى البرميل ومات

- مات ؟

واهتز جسدها كله، ودار رأسها كأن نسراً رهيباً يمسك به بين مخلبيه ويدور فى سماء الغرفة ويدور، وجاءها صوت على من بعيد يقول

- حين قفزت إلى الغرفة وقعت قدماى على كتفيه، فوثبت إلى الداخل وأشعلت سهم نفط وعلى ضوء السهم عرفت جلية الأمر، فحين وثب قبلى وقع فى البرميل وغرق فيه إلى أذنيه ومات فى الحال.

- وأدليت الصندوقين من النافذة ثم احترت فى أمرى، فلم يكن هناك وقت لإخراجه من البرميل كنت أسمع أصوات الزعر

- إن تركته عرفوه، وإن حاولت إخراجه من البرميل كنت كمن يسلم رأسه لهم

*

كانوا ثلاثة هى أصغرهم، ناصر ومنصور، كان ناصر بطلا وكانت تهابه وتحبه من بعيد، وكان منصور أقرب اليها سنا، فى الحارة لعبا سوياً، وفوق ظهور الجياد تسابقا؛ ووسط عرائسها كان يحكى لها حكايات مغامراته وقوته، كان وجهه حلوا

رقيقا، على الشفتين بسمة لا تختفى وعند العينين حب

يذهب بعيدا مع أخيه ثم يعود، لا ينسى أن يحمل لها حلوى غريبة أو رداء تتيه به بين بنات الحى، وصوته رقيق لا يغادر أذنيها وعندما كبر أصبحت له لحية تزين وجهه

- قال لها حين تزوجت من حسن رأس الغول يا فاطمة لقد تزوجت من بطل ما كنت أريد لك زوجا أحسن منه، ثم قبلها فى جبينها وهمس فى أذنها حتى لا يسمع زوجها وحين يصل ابنك سيجمع بين ذكائك وشجاعته. وضحك عاليا ووجهها يحمر وهو يقول كم أود أن أكون حيا لأراه

وتوقف النسر عن الدوران، مادت أرض الحجرة ثم وقفت، وكان الغثيان يملأ أمعاءها، وعند العينين تحجر شيء، وهمست فى صوت لا حياة فيه

- ثم

واستأنف على حديثه قائلا

- قطعت رأسه وتركت لهم الجثة عارية بلا رأس حتى لا يعرفوه وسارت فاطمة كأنها جثة فقدت الحياة وتسير بإرادة لا يد لها فيها، وترددت لحظات ثم فتحت الزنبيل لتحدق فى وجه أخيها المقطوع الرأس ومن خلفهما جاء صوت سالم الواهن

- لكل أجل كتاب يا فاطمة

والتفت على ليرى سالما يقف مستندا إلى جدار الغرفة وقد

شحب وجهه وانطفأ البريق من عينيه وسمعه وهو يقول

- لقد كان بطلا، ومات ميتة الأبطال

ثم تقدم متهالكا وهو يستند إلى كل ما تصل إليه يداه وقال

- سأذهب لأدفن الرأس

فقالت فاطمة فى ذلك الصوت الأجوف الذى فقد كل معالم الحياة

- لا يا سالم   لن تدفن الرأس إلا إذا دفنت معها الجثة

فقال على

- ولكن يا أمى   الجثة

وبنفس الصوت الأجوف قالت فاطمة

- إذا كنت تظن نفسك شجاعا وماهرا فاحضر لى جثة أخى كما أحضرت رأسه لأدفنه بنفسى وأستريح

وأحنى على رأسه وهو ينظر إلى سالم وقال

- أمرك يا أماه

فقالت فاطمة وهى تضم الزنبيل المحتوى على الرأس إلى صدرها فى قوة

- أريد أخى كله لأدفنه بنفسى

قالت دليلة وفى صوتها حنق وغضب

- هذا ليس من فعل واحد فقط يا مولاى، إنما هى عصابة

كاملة وقد خافوا أن نكتشف أمرهم لو عرفنا زميلهم المقتول فقطعوا رأسه وفروا

فصاح العزيز فى غضب لا يقل عن غضبها

لست أسمع منكم إلا التبريرات، كلما فشلتم استطعتم أن تختبئوا وراء أسباب تخترعونها

ثم تساءل فى حنق عارم

- من الذى سمع من قبل أن عليا الزيبق يعمل مع عصابة

فقال صلاح الكلبى

- فى كل مرة يظهر من يعاونه على إفساد خططنا، ولست أشك فى أن هناك بقية من أعوان حسن تعاونه

وكان غضب العزيز قد وصل إلى قمته فقاطعه صائحاً

- ليس لى معكم بعد هذا كلام أريد سارق الخزانة حياً أو ميتا

فقالت دليلة وهى تعض علي شفتيها فى مرارة

- سنسوقه إليك يا مولاى

فالتفت إليها العزيز قائلا

- إن هيبتى فى خطر، وأنتم تسوقون الوعود الكاذبة

وتشجع صلاح الكلبى فقال

لقد أوشكنا أن نمسك به ولكن

وقاطعه العزيز مرة أخرى صارخا

- إذا لم تجئنى به، أعطيته منديل الأمان .. أتفهم منديل

الأمان وأقسم أن أضعه مكان أبيه شريكاً لك فى المقام

وابتسمت زينب وهى ترى وجه أمها وقد تقلص غضباً، ووجه صلاح الكلبى وقد شحب حتى حاكى وجوه الأموات إلا أن ابتسامتها شحبت وغاضت حين سمعت أمها تقول

- هناك ورقة أخيرة نلعب بها وستكون الرابحة، فلدينا جثة اللص الذى قطعوا رأسه، وسنشنقها

فصاح العزيز

- تشنقون جثة بلا رأس

فقالت دليلة

- برأس أو بدون رأس إنه لص يستحق الشنق

فقال صلاح الكلبى متحمساً

- هذا رأى صائب وسأشنق هذا المجهول فى الرميلة وقرة ميدان. واستأنفت دليلة حديثها قائلة

- وكل من بكى عليه قبضنا عليه، وكل من حاول سرقة الجثة شنقناه

فصاح صلاح

- سيقع فى أيدينا هذه المرة لا محالة

فقال العزيز فى حزم

- هذه آخر فرصة لك يا صلاح، إن لم تعد صناديق المال ضاع منك منصبك ولم تعد صالحاً لتكون مقدم الدرك .

* *

ما كادت زينب تنفرد بأمها فى الحجرة الكبيرة بقصر الضيافة الذى خصصه العزيز لهما حتى صاحت فى انفعال طال كبته

ولكن يا أماه هذه قسوة تفوق كل تخيل، أتشنقون جثة بغير رأس ؟

فقالت دليلة وهى تخلع وشاحها فى هدوء

- وأشنق رأسا بلا جثة، المهم أن أصل إلى هدفى وليست الوسيلة مهمة إلا عند الأغبياء

وكان وجه زينب متقلصا وهى تقول فى عنف

- سيكرهك كل الناس فالناس هنا يقدسون الموت ويحترمونه

قالت دليلة وصوتها هادئ لا تختلج فيه نبرة

- لن ينصب غضبهم على فلسب أمامهم إنما الذى أمامهم هو صلاح الكلبى ووراء العزيز، وسواء كرههم الناس أو أحبوهم فهذا لا يعنينى فى شىء إنما كل ما يعنينى هو أن أضع يدى على هذا اللعين.

قالت زينب

- إن حقدك عليه قد غطى قلبك ونفسك فمعك من رؤية الخطأ فيما تفعلين

فابتسمت دليلة وقالت

ليس فى كل ما أفعل خطأ وليس الحقد هو الذى غطى

قلبى ونفسى   وإنما هو الحب الذى غشى عينيك فأصبح هذا الكلب أهم من أملك لديك

وهتفت زينب فى غضب

– أماه

وابتسمت دليلة ابتسامة صفراء وهى تقول

– هل تظنين أننى لا أفهم ولا أعرف   حتى هذا الغبى صلاح الكلبى قد أدرك رغم غبائه أن حب هذا الفتى قد تسلل إلى قلبك   وعادت زينب تهتف فى رجاء

– ولكنك قلت له يا أماه

ووقفت دليلة أمام زينب تحدق فى عينيها وهى تقول

– ما قلته له قلته لأضلله ، ولكن هل تظنين أن مثلك يستطيع أن يخدع دليلة ؟ فقد فهمت هذا من أول مرة   ولهذا استعنت بك فى الإيقاع به

وأطرقت زينب برأسها أمام نظرات أمها الفاحصة وهمست

– إلى هذه الدرجة ليس لديك احترام لعواطفى

وعادت دليلة تقول فى عنف

– عواطفك لا أهمية لها   العواطف عجز يقع فى حبائله الضعفاء وقوة فى يد من يعرفون كيف يستغلونها

وغزت الدموع عينى زينب وهى تهمس فى ضعف

ولكننى ابنتك

وجاءها صوت دليلة البارد الهادئ يقول :

ولهذا ينبغى أن تكونى فى صفى لا فى صف هذا الفتى الذى أغواك بوسامته

وكانت الدموع تقفز من عينى زينب وهو تقول

إنه لم يغونى يا أماه

وابتسمت دليلة وهمست فى صوت كالفحيح

إذن لماذا كل هذا الخوف عليه

وقالت زينب

- إنما أخاف عليك أنت

فعات دليلة تهتف فى إصرار

- أتخافين أن أنتصر عليه

وقالت زينب

- نعم إن نصرك بهذه الوسيلة سيكون قذى فى كل حلق وستجعله الهزيمة لو استطعتم هزيمته بطلا فى أعين الناس

وضحكت دليلة وهى تقول

- بطلا ليمت أولا وليصبح بطلا بعد هذا فهذا لا يهمنى المهم أن يموت

وهمست زينب فى ضعف

- أماه لقد تحجر قلبك

وجاءها صوت دليلة وهى تقول

وأنت يا زينب قد تفتح قلبك

صاح على وهو يندفع إلى القاعة

- سالم أين أمى إنهم سيشنقون جثة خالى منصور

فقال سالم

- لقد سمعنا هذا فالناس فى كل مكان يتكلمون عن الجثة التى ستشنق بلا رأس

وقال على فى ابتهال

- لا ينبغى أن تعرف

فقال سالم

- لقد عرفت وخرجت

واح على فى دهشة

- خرجت !؟

فقال سالم

- نعم لقد حاولت أن أمنعها بكل الطرق ولكنها أصرت على الخروج

فقال على وهو يعض على ناجذيه

- إنه فخ منصوب لماذا تركتها تخرج ؟

وقال سالم فى يأس

- وماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ لقد أصرت

وعاد على يهتف

- ولكن لماذا خرجت يا سالم ؟

فأطرق سالم وهو يقول

- قالت إنها تريد أن تبكى منصورا

وصاح على

تبكيه وهو فوق المشنقة إن هذا هو ما يريدونه سيقبضون عليها حتما

واندفع سالم يمسك بعلى وهو يقول

- إننى أخشى عليها يا على ولقد أخبرتها بهذا كله وحذرتها ولكنها نظرت إلى نظرة جامدة وهى تقول

- لن يستطيع أحد أن يمنعنا أن نبكى موتانا

٢٦

مشنوق بلا رأس

كان الناس يتصايحون فى الميدان وهم يجرون مسرعين نحو الرميلة وقرة ميدان ، وقال الأسطى أحمد الشربتلى وزبائنه يغادرون الدكان ليهرولوا مع من يجرون

- الحساب يا جماعة ، الحساب

فضحك عم عباس وهو يضع بخوراً فى المجمرة فيتصاعد منها الدخان وقال

- الحساب يوم الحساب يا أسطى أحمد ، ألم تسمع ، إنهم يعلقون فى الرميلة جثة بلا رأس

فصاح أحد الزبائن وهو يسرع قائماً :

مشنوق بلا رأس

فأمسكه الأسطى أحمد الشربتلي وهو يصيح

- برأس أو بلا رأس الحساب أولاً ، ما هذه البلوة التى سقطت فوق رأسنا هذا الصباح ؟

وانهمك الزبون فى إخراج دراهمه وهو يقول

- ربما نسى رأسه فى الدكان وشنقوه وهو ما زال فى غيبوبة

فضحك الأسطى أحمد الشربتلى رغم حنقه وقال

- هذا كلام حشاشين   لست أصدق هذا التخريف

فقال صوت شاب عذب من ورائه

- بل هم يشنقون فعلا جسدا بلا رأس

فالتفت عم عباس إلى الفتى الفارع وصاح وهو يهز مجمرته

- أهذا أنت يا بائع التفاح الشهى   أين أنت من زمن

وقال الأسطى أحمد الشربتلى وهو يعد دراهمه ويعود إلى داخل الدكان

- عشنا ورأينا   غدا يشنقون رؤوسا بلا أجساد

بينما اندفع عم عباس يعانق صديقه بائع التفاح الجائل وهو يبسمل ويحوقل ويدور حوله بالمجمرة ثم قال

- ولكن أين حمل التفاح وأين الحمارة

فتنهد الفتى وهو يقول

- طلع على اللصوص فسرقوا منى كل شيء وعدت للعيال

دون مـال ودون طعـام ومن يومـهـا وأنا أبـحث عن عـمل لأعـول الأطفال دون جوى

فمصمص عم عباس شفتيه وهو يقول فى رثاء

– لم يتـرك أولاد الحـرام لأولاد الحـلال باب رزق نظـرة يا سيدة ولكن الله كريم يا بنى

ثم ضحك وهو يربت على كتف الفتى وقال

– هيا بنا نسير مع السائرين إلى الرميلة وقرة ميدان لنرى هذا المشنوق بلا رأس وفى الطريق نبحث أمر إيجاد عمل لك فأنا أعرف كل الأسطوات منذ زمن طويل

وسار الفتى مع عم عباس الذى أخذ يتحدث عن معارفه وأصحابه من كبار الأسطوات وهما يشقان طريقهما وسط الزحام فى صعوبة فائقة وقال الفتى وهما يمران أمام «سراية» كبيرة

– هذه السراية يا عم عباس كانت خالية، ثم منذ أيام ملأها أناس كثيرون

فنظر عم عباس إلى حيث يسير على وهز رأسه وهو يقول

– أعرف، أعرف، إن فيها ضيفة مهمة من بغداد، وقد عين لها العزيز حراساً كثيرين، كما كلف الأسطى حسنين المحشى أكبر الطباخين فى الحسينية أن يمد السراى ومن فيها بالطعام كل يوم

فقال الفتى دون مبالاة وهو يزيح بكتفه العريض مجموعة

من الناس من طريقهما

الأسطى حسنين المحشي لقد سمعت عنه كثيراً   ترى ألا يحتاج أمام هذا العمل الجديد إلى من يخدم على الطعام ويحمل الأوانى ويقدم الأكل ؟

فوقف عم عباس وأمسك بذراع الفتى وهو يصيح

لقد غابت عنى ووجدتها أنت   إن الأسطى حسنين المحشي يتيمن بي دائما ، ويحب أن أمر عليه ثلاث مرات فى اليوم لأبخر له المحل   واليوم سأقصد إليه بعد صلاة الظهر فانتظرنى عند الجامع الصغير ولنذهب سويا

وتمتم الفتى بعبارات الشكر وعيناه تلمعان ببريق لم يره عم محروس الذى كان مسرورا من نفسه ومن العمل الكبير الذى سيقوم به حين يجد عملا لصديقه الكريم الذى لم يضن عليه بالتفاحات وقال

- جعل الله القبول فى وجهك يا فتى

ولكن صوته ضاع فى الزحام إذ كانا قد وصلا إلى الرميلة وقرة ميدان حين ازدحم الناس بشكل غريب وكلهم يتطلع إلى منصة عالية فى وسط الميدان نصبت فوقها مشنقة ، وفى حبل المشنقة تدلت جثة ، ولكنها كانت بلا رأس ، وهمس عم محروس وهو يبسمل

ليس بعد الموت عقاب   وهذا حرام   هذا وزر يعاقب عليه الله . ولكنه آخر زمن

وتلفت حوله فى حذر وصاح

- مدد يا سيدة   مدد يا أم العواجز مدد   نظرة يا ست

بينما وقف الفتى متسمرا وهو يتحسس رقبته فى حركة لا إرادية بينما امتلأ حلقه بطعم مر مقيت   وفجأة صاح عم محروس بأعلى صوته محذرا وهو يقول

ستصطدم المرأة بالجثة لا محالة   إنها لا تكاد ترى

ونظر الفتى إلى حيث يشير عم محروس، وبالقرب من المشنقة كانت تسير فلاحة عجوز وهى تحمل فوق رأسها زلعة كبيرة وتسير فى صعوبة بالغة، ولكنها كانت تسير كأنما لا ترى، وكان من المؤكد أن الزلعة ستصطدم بالجثة المعلقة فى المشنقة   ورأى الفتى المقدم عثمان وهو يصيح بدوره فى المرأة محذرا ويجرى نحوها ولكنه وصل إليها بعد فوات الأوان، فقد اصطدمت الزلعة بالجثة بالفعل ووقعت على الأرض فانكسرت وانسكب منها الزيت مدرارا   وصاح رجل إلى جوار الفتى

- مسكينة. ضاع الزيت كله

بينما بسمل عم محروس وحوقل واستعاذ بالله من الشياطين وقال

- يضعون الجثث فى طريق الناس   هل هذا كلام

بينما أخذت الفلاحة العجوز تلطم خدها وتبكى فى حرقة وهى تهيل التراب على رأسها وتصرخ

- ضاع وانتهى   يا ضيعتك من بعده يا فاطمة . يا أملى

يا رجائى   يا فجيعتى فيك

ووصل إليها المقدم عثمان غاضبا وصاح فيها

ما هذا يا امرأة ، علام هذا البكاء

وصاح عم محروس

- هل هو أعمى   الزيت وانسكب   ألا يعرف لماذا تبكى المرأة ؟

بينما استمرت العجوز تبكى بحرقة أشد وهى تقول من بين دموعها بصوت متهدج ولكنه مرتفع سمعه كل من فى الميدان وأنصتوا له

- الزيت يا ولدى   الزيت   حريم السنجق أحمد حملونى هذا الحمل   وقالوا لى لك درهم لو أوصلته إلى السنجق فى الديوان لأنه يا ضيعتى

وعادت تهيل التراب على رأسها تحت الجثة المشنوقة بين صياح رجل من وسط الميدان

- مسكينة يا ناس

وقال آخر

- ماذا تفعل مثل هذه العجوز الغلبانة

وعادت العجوز تصيح وهى تبكى

- يا مصيبتى فيك   يا فجيعتى فيك   ضاع أملى بعدك ، ضاع رجائى

ووجد المقدم عثمان نفسه هدفا للنظرات الغاضبة والعبارات

الحانقة من كل من فى الميدان وكأنه هو الذى تسبب فى ضياع الزيت فصاح بالمرأة

- اصمتى يا ولية وسأجمع لك درهماً من كل واحد من الزعر هنا واذهبى فاشترى زيتاً غيره واحمليه إلى السنجق

وسرت همهمة استحسان فى الميدان بينما ابتسم على وهو يقول لعم عباس

- لا تنس يا عم عباس موعدنا بعد الظهر فى الجامع الصغير

وحين أراد عم عباس أن يرد عليه لم يجده، كان قد ذاب فى الجمع الكبير

كانت الفلاحة العجوز تسرع فى سيرها بعد أن غادرت الميدان حين أحست بوقع أقدام تسرع وراءها فزادت من سرعتها وهى تتحسس خنجراً أخفته فى ملابسها ولكن الأقدام المسرعة سرعان ما قاربتها وسمعت صوتاً أليفاً يقول

- ما هذا يا أماه   علام كل هذه المخاطرة ؟

فوقفت فاطمة وهى تقول

كان لا بد أن أبكى أخى يا على، وقد بكيته وجمعت منهم دراهم سأوزعها على الفقراء رحمة على روحه

فابتسم على وهو يقول

ولكنها مخاطرة جسيمة

فقالت فاطمة :

وهل تظن نفسك الوحيد القادر على المخاطرة   إنه أخى ولا بد أن أبكيه رغم أنف صلاح ودليلة   ألا نستطيع حتى أن نبكى موتانا

فأطرق على وهو يقول

- وسأحضر لك جثته الليلة يا أمى وأقسم على هذا بروحه الطاهرة   وربتت فاطمة على وجنة ابنها وهى تقول فى صوت هامس

- أعرف يا على دون قسم أنك ستفى بوعدك

٢٧

بائع الخمر

كانت مقابلة عم عباس للأسطى حسنين المحشى مثمرة للغاية، فقد كان الأسطى حسنين يبحث عن عمال مؤقتين بعد أن كلف بمهمة تزويد السراى الجديدة التى تسكن فيها ضيفة العزيز القادمة من العراق، وكان يريد هؤلاء العمال بحيث لا يلتزم قبلهم بأى شىء، وقال وهو يتأمل فى وجه الفتى بائع التفاح فى لهجة ذات مغزى

- وعندما تنتهى هذه الزيارة وترحل الضيفة، الرزق عند الله يا بنى وأطرق

الفتى فى صمت وهو يقول في صوت المستسلم لمصير لا يستطيع تغييره

- الله موجود يا أسطى، وربما استطعت أن أحصل على رأس مال جديد وأعود بعده إلى تجارة الفاكهة

وصاح عم عباس مستبشرا وهو يبسمل ويحوقل

- ونعم بالله يا بنى، من اتكل على الله ضمن النجاح مدد يا سيدة   مدد

وقال الأسطى حسنين فى لهجة عملية

- ما دمت قد قبلت الآن فادخل إلى المطبخ واشترك فى إعداد الغداء ثم احمله إلى السراى وستكون مهمتك أنت هى تقديم الطعام للحراس، أما الضيوف فسيخدمهم رجالى

وقال عم عباس وهو يربت على كتف الفتى ثم يدور حوله بمبخرته التى يتصاعد منها البخور الزكى الرائحة

- قم يا بنى   والله يوفقك   واستعن بالله   وأهل البيت مدد يا أهل البيت

وهكذا دخل على الزيبق مطبخ الأسطى حسنين المحشى ليحمل طعام الغداء لحراس دليلة فى قصرها

قالت دليلة والحراس يشقون لها ولزينب وللمقدم صلاح الطريق إلى المشنقة

- ما كل هذا الزحام يا مقدم صلاح

فقال صلاح وهو يتلفت حوله ويجيل نظره فى الميدان المحتشد

- انهم أهل مصر يتفرجون على الجثة المعلقة فى المشنقة

فقالت زينب فى تأفف

- وهل هذا شيء يستحق كل هذا الاحتشاد ؟

فابتسم صلاح الكلبى وهو يقول

- جثة تشنق بلا رأس حدث مهم لا يحب أحد من أهل مصر أن تفوته رؤيته، فهم مغرمون بكل ما يثير يتدافعون نحوه ويتسابقون إلى رؤيته

وقالت زينب وهى تتأمل الجثة المتأرجحة

- إنه منظر مقزز، ولست أدرى كيف طاوعكما قلبا كما على التمثيل بميت مثل هذا التمثيل المؤلم

وعاد صلاح الكلبى إلى الابتسام وهو يقول

- للضرورة أحكام وربما كانت هذه جثة الفتى الشهم الذى سقته أنت مرة إلى المشنقة دون أن تحسى بالألم والتقزز

وعضت زينب على شفتها، ثم أشاحت بوجهها دون أن ترد بينما تقدم عثمان نحوهم وهو يفسح لهم طريقاً على جانب المشنقة ويقول

- لم يظهر الغريم بعد يا مقدم

فقالت دليلة وهى تشير إلى بقعة تحت المشنقة اختلط ترابها بمادة لزجة أحالته إلى طين يلمع تحت أشعة الشمس :

ما هذا المسكوب تحت المشنقة يا مقدم ؟

فقال عثمان وهو يلوح بيده فى لا مبالاة

زيت وقع من عجوز مسكينة كانت تمر من هنا ، وجعلت تندبه حتى أثارت عواطف الناس ، فجمعنا لها دراهم منا ومضت فى حالها

فلمعت عينا دليلة وهى تقول فى تحفز

- وتركتها تمر يا مقدم

وشعر عثمان بالقلق للهجة حديثها فقال وهو ينظر فى الوجوه الثلاثة التى تحدق فيه

- طبعا فليس لدينا وقت لمثلها و

وصاحت فيه دليلة وصوتها ملىء بنبرات الحنق

ولمن يتسع وقتك إذن يا مقدم إنها العايق ضحك عليكم جميعا ، وبكى ميته وأنتم وقوف وأخذ دراهمكم

وصاح صلاح وقد أدرك ما ترمى إليه دليلة

- حضر وانصرف وأنتم كالأصنام أنا لا أجد فيكم نفعاً أبدا وأخذ عثمان يقلب كفيه فى حيرة وهو يقول

- لم يكن العايق لقد كان امرأة عجوز ، فلاحة مسنة مسكينة و وقطع عليه صوت صلاح الكلبى حديثه إذ صاح فيه فى غضب عارم

- فلاحة مسكينة عجوز هه والجارية التى جئت لى بها ، وصبى الطباخ الذى أدخله رجب قاعتى وشميعة الذى

أخذ ثمن العجل والمغسل الذى سلخنى، وابن أخت الحمامى الذى أزال لحيتى

وكان وجه صلاح محتقنا والكلمات تتدافع من فمه كالسيل وقد نفرت شرايين رقبته الغليظة وجحظت عيناه واحمرتا ولم تتمالك زينب نفسها من الضحك، بينما قالت دليلة لعثمان الذى يقف فى ذهول

- الخلاصة يا مقدم أنه يجيد التنكر

فقال عثمان فى صوت خافت

- إن له ألف وجه

فصاح فيه صلاح ومازال فى قمة غضبه

- إذن افتح عينيك جيداً حتى لا يخدعك من جديد، وإلا قلعتهما لك

وابتسمت زينب وهى تستدير لتعود ووجه الفتى الضاحك المبتسم يلوح لها ساخراً هازئا، فيه بسالة وفيه نبل وفيه رقة وحنان

* *

كان استقبال الحرس فى مقر الضيافة المعد لدليلة للأسطى الجديد قدم لهم طعام الغداء حافلاً، فهم لم يستريحوا فقط من وجه الرجل العجوز الكئيب الذى تعود أن يقدم لهم الطعام كل يوم ومن قذارته وبطء حركته، بل لقد فوجئوا أيضاً حين وزع الطعام عليهم بأن حصصهم قد زادت وأن أنصبتهم من اللحم

والفاكهة قد تضاعفت وصاح واحد منهم

- هذا شيء لم نره من قبل يا أسطى

وصاح آخر وهو يلتهم طعامه فى شراهة وسرعة كأنما يخشى أن يرفعه من أمامه

- دليلة شحيحة ولا تقدم لنا إلا الكفاف أما اليوم فهذا يوم عيد فابتسم الأسطى الجديد وهو يقول

- بالهناء والشفاء يا مقدمين أنتم أولاد بلد مثلى ولا أحب إلا رضاكم

فقال الأول وهو يلوك طعامه فى تلذذ

- ونعم الكلام يا أسطى فقط لا تتركنا لعجوز النحس الذى كان يرسله الأسطى حسنين المحشى قبلك

فقال الأسطى الجديد وهو يدور عليهم بالماء

كل يوم لكم من هذا ما دمت أنا هنا

وأردف وهو يبتسم

وفى العشاء الليلة أصناف جديدة سأحجزها لكم من المائدة المعدة للضيوف سكان القصر أنفسهم

قال سالم وفى صوته نبرة تحذير يشوبها قلق واضح وخوف

- إن هذا كثير فى ليلة واحدة يا على وإن نجحت فى خطتك الأولى فأخشى أن لا تتمكن من تنفيذ الثانية

فقال على وهو ينظر فى عينى صديقه القلقتين :

- لقد أحكمت خطتى يا سالم ولم أدع شيئاً للظروف وأنا أحس إحساساً عميقاً أننى سأنجح

فعاد سالم يقول محذراً وهو يعتدل فى فراشه

- ولكنها دليلة يا على وليست دليلة كصلاح الكلبى

فقال على وهو يبتسم

- وقد آن الأوان لتعرف دليلة من أنا

* * *

كانت الليلة باردة، وكان الميدان خاليا إلا من الزعر يلتفون حول الجثة المتأرجحة يلعب بها الريح البارد فيصر خشب المشنقة تحت ثقلها فتحدث صوتا أجشاً يبعث القشعريرة فى أجساد الجند المنكمشين بردا وتأففاً وكل منهم يعد الدقائق متوقعا نهاية هذا الليل الموحش الذى طال، وقال أحدهم وهو يفرك كفيه يبعث فيهما الدفء

- هذه الليلة باردة، ألم تجدوا غيرها لتعلقوا فيها هذا التعيس ؟

فقال الثانى وهو يضع حربته إلى جوار المشنقة وينفخ فى كفيه بفمه ثم يعود يفركهما فى قوة

- كان الأجدر بنا أن نكون فى بيوتنا بدلاً من هذه الوقفة

فقال عثمان فى ضيق وغضب

- ومن يحرس الجثة ؟

فقال الأول وصوته تكسوه نبرة من التحدى ؟

- جثة بلا رأس ما فائدتها ؟ فلتأكلها الصقور، إن البرد يكاد يجمد ساقى

وقبل أن يرد عليه عثمان طرق سمعه صوت حمار يقترب من الميدان

- ما هذا ؟ أتسمعون ما أسمع

وأطرق الرجال رؤوسهم ثم قال الأول

هذا واحد يركب حمارا ويأتى من جهة البريد

فقال عثمان والريبة تملأ صوته

وهل هذا وقت البريد

فقال الثانى وهو يسترد حربته من جوار المشنقة

- لعله بريد عاجل

فقال عثمان فى ضيق

- لقد قال لنا المقدم صلاح أن نفتح عيوننا، أتفهمون، افتحوروا عيونكم جيدا، فهذا الشيطان لا يهمه شيء

وزاد اقتراب وقع حوافر الحمار فى الميدان الساكن، فصاح عثمان وهو يتقدم ناحية شبح الحمار الذى أخذ يظهر وسط الظلام متجها نحوهم

- من هناك

فوقف الحمار مجفلا بينما صاح راكبه فى صوت عجوز وبلهجة صعيدية وصوت مرتجف

- أنا يا بنى بقطر   وليس معى مال   ولى أولاد يا بنى فى

انتظارى فهدأ عثمان وضحك أحد الجنديين بينما قال عثمان في صوت واضح قوى

- تقدم وأبعد يديك عن جسدك لنرى أنك لا تحمل سلاحاً

وعاد وقع الحوافر بطيئاً رتيباً يشق سكون الميدان بينما رفع راكبه العجوز ذراعيه في الهواء، وأصوات اصطكاك أسنانه ببعضها تصل إلى عثمان ورفيقيه وحين اقترب الحمار براكبه قال عثمان فى لهجة آمرة وهو يتفحص الحمار وراكبه العجوز الحليق الوجه المتغضن القسمات الأحدب الظهر

- قف مكانك ما هذا الذى تحمله أمامك فوق الحمار ؟

وعاد الصوت المرتعش العجوز يقول بلهجته الصعيدية الواضحة

- إنها خمر الوالى يا ابنى جئت بها كالمعتاد كل شهر، وأخرنى المقدس جرجس فى الطريق فدخل على الليل

وقال أحد الجنديين فى مرح

- الوالى يشرب الخمر ما أحلى هذا

فقال له الرجل العجوز فى صوت محذر

اخفض صوتك يا ابنى حتى لا يسمعك، فلو سمعك لمزق جسدك بالسياط ولولا أننى أخاف من غضبه لو تأخرت عليه لعرجت على أية قرية فى الطريق أقضى ليلتى فيها بدلاً من السير فى هذا البرد القاتل

فقال الجندى الثانى معابثاً

معك كل هذا الخمر وتبرد ؟

فعقب الأول وهو يغمز بعينه لزميله

قلة عقل

بينما لوح لهما عثمان بيده ليسكتهما وازداد اقتراباً من الحمار وراكبه وهو ينظر مستريبا ويقول

- هل أنت حقاً بقطر

فقال الرجل وهو يلوح بيديه كأنما يؤكد حديثه

- بقطر عبد الملاك مكسيموس يا ابنى من الفيوم   الفيوم كلها تعرف بقطر وتعرف خمرى   أجود الخمر وأعتقه

ثم نظر إلى عثمان نظرة طويلة وقال فى استعطاف

- أنت يا ابنى يظهر عليك أنك من الجنود، فاتركنى أسير فى طريقى لأصل إلى الوالى، فإن الوالى يضربنى بالسوط لو تأخرت

وقال الجندى الأول وهو يتحسس باطية الخمر الكبيرة التى استقرت أمام بقطر فوق الحمار

- لو سرت فى هذا الليل يا معلم لأمسكك الطواف واضطررت إلى أن تخبره أن الخمر للوالى

فقال الثانى مكملا

وتنتشر الحكاية فى البلد ويعرف الجميع أن الوالى يشرب الخمر   واستأنف الأول حديثه قائلا

ولن يكفى الوالى فيك ضرب السياط بل يشنقك كهذا

المشنوق بلا رأس

ورفع بقطر رأسه رأى الجثة المتأرجحة فشهق واهتز وسقط من فوق حماره وركبتاه تصطكان فى صوت مسموع ولكنه قال فى يأس وصوته حمل نبرة باكية

- ولكن يا ابنى الوالى سيغضب اتركنى يا ابنى فى حالى أسير إليه بالخمر

فقال الجندى الأول

- يا لحوح أين ستذهب ؟ اقض الليل معنا وفى الصباح اذهب إليه

فصاح التاجر فى يأس وهو يبكى

- لا يمكن يا ابنى لا يمكن

بينما اقترب عثمان من الرجل وأمسك بخناقه وهو يتفرس فى وجهه بشدة ويقول فى ريبة

- ولكن هل أنت حقاً بقطر ؟

فاقترب الجندى الأول منه وهمس فى أذنه بينما تاجر الخمر العجوز يرتجف فى يديه متخبطاً

- لو كان من تظن لأصر على البقاء ألا تراه يلح فى السير

ثم خافت من صوته وهو يقول فى إغراء

- هذا خمر عظيم يا مقدم عثمان يدفئ أجسادنا فى هذا البرد ولو أخذنا منه القليل ما درى أحد

وقال الثانى وهو يقترب منهما

وقبل الصباح ندعه يسير وسيعقل الخوف لسانه ولن يتكلم. ولمعت عينا عثمان وهو ينظر إلى الباطية ويقول فى همس

لكما حق

ثم دفع العجوز بقوة فسقط على الأرض بجوار المشنقة وقد عقد الذعر لسانه ومضى ينقل بصره بينهم وبين الجثة المتأرجحة دون أن يقوى على الكلام، بينما قال عثمان وهو يفرك كفيه فى ارتياح

- انزلا الحمل عن الحمار حتى نذوق خمر الوالى ولا شك أنها من الشراب الطهور

ومضى يضحك والجنديان يفتحان الباطية ويسكبان فى أقداح شرابهم فتسيل الخمر بصوت مسموع

والتفت إلى التاجر العجوز المرتجف وقال له

- لن نؤذيك يا معلم نحن فقط نحميك حتى ينتهى الليل فتواصل رحلتك السعيدة بخمر الوالى

وضحك عثمان فتجاوب معه فى الضحك الجنديان وهما يشمان رائحة الخمر التى انبعثت فملأت المكان كله وأخذ التاجر يبكى فى صمت وهم يشربون وضحكاتهم تتعالى وسخريتهم به تتزايد والخمر تأخذ بألسنتهم فتثقل وبحديثهم فيترنح وما هو إلا قليل حتى خفتت أصواتهم وتناثروا حول المشنقة وقد راحوا فى سبات عميق

وما كادت أصواتهم تسكت تماماً حتى انبعث التاجر واقفاً وقد امتلأ حيوية ونشاطاً، وأرسل ضحكة ساخرة هازئة وهو يهمس

- أنامهم البنج جميعاً

ثم قال فى صوت التاجر العجوز الخائف

- أنا بقطر عبد الملاك مكسيموس من الفيوم يا ابنى

ثم ضحك مرة أخرى ساخراً وأسرع نحو المشنقة وهو يقول

- جئتك يا خال

وأنزل الجثة برفق ووضعها فوق الحمار، ثم انتزع عباءة عثمان فغطاها به، ونخس الحمار ليسير مسرعا، وحين نهق الحمار وهو يضرب الأرض بحوافره همس على فى أذنه

- اسكت لا فضحك الله وهيا بنا يا جميل من هنا فأمامنا عمل كثير

قالت فاطمة وهى تتأمل الجسد المغطى المسجى أمامها فى القاعة

- إذن فقد جئت به

ثم أفلتت من عينيها عبرة حائرة وهى تقول

- أبكيك الآن يا منصور

فقال سالم وهو يتحامل على نفسه ويقف عند باب القاعة

- لقد نجحت يا على وكنت أعرف أنك ستنجح

فرفعت فاطمة رأسها وقالت

- سأجهزه للدفن وندفنه الليلة فى البستان

فقال على وهو يتطلع إلى سالم

- لم يؤن الأوان بعد يا أماه فلا دفن دون معزين، وسأحضر لك المعزين الليلة

فقالت فاطمة وهى لا تفهم من حديث ابنها شيئاً

- معزين ؟

وتدخل سالم فى الحديث قائلا وهو يبتسم لعلى

- نعم اتركيه يذهب، فأمامه مهمة صعبة هذه الليلة وسينجح

وحين أخذت فاطمة تبكى أمام جثة أخيها، وقفت سالم يحاول أن يهمس عبارات العزاء، وانفلت على من القاعة فى سكون وهو يغلق الباب وراءه ويحتويه الليل البارد

٢٨

جنازة عند الفجر

صاح أحد الجنود والفتى يدخل حاملا الطعام تنبعث من أوانيه الأبخرة الذكية الرائحة

- لقد تأخرت علينا يا أسطى

وقال آخر وهو يتلمظ مستمرئاً الرائحة

- لقد ظننا أنك نسيتنا، وقلنا سننام بلا طعام

فأسرع الأسطى يوزع أواني الطعام الفاخر وهو يقول

- ألم أقل لكم أنني أعددت لكم شيئاً

خاصا الليلة للعشاء، لقد انتظرت حتى أكل الضيوف الكبار فى القصر حتى أحضر لكم من طعامهم شىء مفتخر

واندفع الجنود يلتهمون الطعام وقد تجمعوا فى غرفة الحراسة فى قصر دليلة، وقد أمضهم الجوع والبرد، ودفعهم إلى ازدراد الكميات الهائلة التى حملها إليهم الفتى تابع الأسطى حسنين المحشى الجديد، وقد نسوا غضبتهم عليه لتأخره عن موعد عشائهم المعتاد فى لهفتهم على ملء بطونهم الخاوية

وأخذ الأسطى يتحرك بينهم فى خفة وهو يمازج هذا ويداعب ذاك، ويملأ كل صحن يخلو، ويقدم الماء المعطر لمن يريد، وسرعان ما امتلأ جو حجرة الحرس بجو من البشر والأنس والاطمئنان. وحين انتهى الطعام كان الأسطى قد عرف من أحاديثهم المتناثرة وأسئلته البريئة الساذجة موقع كل حجرة فى القصر ومضى يجمع الأوعية الخالية وهو يرقب بوادر الخدر التى بدأت تظهر عليهم مبتسما، وقال واحد منهم وهو يتثاءب فى صوت مسموع

- بعد هذا الطعام الدسم يحلو النوم

فقال الآخر وهو يبادله تثاؤبا بتثاؤب

- ولكن النوم علينا حرام فنحن حراس لا بد أن نظل ساهرين وغيرنا ينام

وازدادت ابتسامة الأسطى اتساعا وهو يحمل الأوعية الفارغة ويغادر الحجرة متسللا

ولو رآه أحد فى الدقائق التالية لخروجه من حجرة الحرس لدهش مما كان يفعل، فقد أسرع إلى عربة اليد التى أتى عليها بأوانى الطعام من دكان الأسطى حسنين المحشى فجرها إلى داخل القصر ثم ربط فيها حماراً قوياً، وساق الحمار والعربة إلى زاوية من الحديقة لا يراهما من بالخارج أو من بالقصر ثم أسرع يعود إلى الحجرة وابتسم وهو يدخل من الباب الكبير إذ كان الجميع يغطون فى نوم عميق وهمس لنفسه

- اخرج يا صبى الأسطى حسنين المحشى وادخل يا زيبق.

ثم وضع لثامه فوق وجهه وأغلق الباب عليهم بالمفتاح، وأسرع يتسلل كالشبح بين دهاليز القصر وحجراته، مستعينا بما سمعه من الحراس من وصف للقصر، حتى وصل إلى قاعة فسيحة تنتهى ببابين مغلقين، فعرف أنه وصل إلى حجرات النوم، وقدر أن دليلة تنام فى واحدة من الحجرتين وأن زينب تنام فى الأخرى

وظل على كامناً إلى جوار الحائط لحظات حتى تأكد أن دخوله القاعة لم يوقظ أحداً من النائمين ثم أخرج من ملابسه قطعتين من البنج البطىء الاحتراق، وأشعل واحدة منهما ثم اقترب محاذراً إلى الباب الأول فوضع يده على مقبضه ومضى يفتح فى بطء شديد، ثم دفع الباب دفعة رقيقة ورمى البنج المشتعل داخل الحجرة ثم أغلق الباب وتسمر فى مكانه ودوى دقات قلبه يملأ أذنيه

ومرت لحظات ولم يصدر من الحجرة صوت، فالتقط أنفاسه ثم مضى يسير فى حذر إلى أن اقترح من الباب الثانى وأشعل قطعة البنج الثانية ثم مضى يفتح الباب بنفس الحذر الذى فتح به الباب الأول وخيل إليه أنه سمع صوتاً داخل الحجرة فوقفت يده فوق المقبض وظل مكانه كأنه استحال إلى صنم، ولكنه لم يسمع صوتا ثانياً، فأدرك أن النائم بالحجرة يتقلب فى نومه فجذب الباب فى رفق ورمى قطعة البنج المشتعلة ثم أغلق الباب مسرعاً وانتظر

وكان يقف وسط الظلام ساكنا وألف فكرة تدور فى رأسه، ففى واحدة من هاتين الحجرتين غريمته العنيدة دليلة، لولاها لكان قد انتصر المشنقة سوقا كأنه عجل يساق إلى المذبح، ولولاها ما مات خاله منصور وراء كل شر أصابه ووراء كل بليه ابتلى بها وفى الحجرة الثانية زينب، زينب التى ساقه سحر عينيها إلى الصندوق كالأبلة لتعطيه هدية عاجزة ذليلة إلى جلادها زينب ذات النظرة الساحرة الفاتنة، فى الوجه براءة كأنها ملاك، وفى الفعل حية لا تقل عن أمها سماً وخطراً ولكنها حلوة كالطيف، شهية مثيرة، حين تتأود فى حديثها يهتز قلبه مذعورا وهى تقول

- واستطعت أن تبنجها وتقيدها وتخطفها دون أن يراك أحد؟

فقال على

- كانت مهمة سهلة، لم يقايضنى شىء سوى الانتظار فى القاعة حتى يتم البنج فعله، ولكن عندما تأكدت أن البنج قد حقق مفعوله دخلت الحجرتين وكتفت صاحبتيهما ثم ها هما

فقالت فاطمة وهى تلتف إلى الغرارة الثانية

- من هى هل هى ؟

فقال على وهو يغض من بصره

- نعم إنها زينب

ثم رفع عينيه وهو ينظر إلى أمه بحدة ويقول

- لقد تسببت واحدة فى سوقى إلى المشنقة، وكانت الأخرى سبب مصرع خالى

فعلت وجه فاطمة سحابة حزينة وقالت

- هل امتلأ قلبك بالحقد الأسود يا على ؟

ثم التفتت إلى سالم وهى تقول

- أعطهما ضد البنج وخفف القيود عن قدميهما لتستطيعا السير ثم سارت إلى حيث وقف على، وأخذت تنظر إلى عينيه حتى غض الطرف وأطرق برأسه، فاحتوته بين ساعديها ومضت تهدهده كأنه طفل صغير، بينما تدافعت الدموع إلى عينى على، واهتز كتفاه، ومضى ينشج فوق صدر أمه، وهو يحس أن دموعه تغسل من قلبه أشياء كثيرة

*

حين فتحت زينب عينيها بهرها ضوء المصابيح التى تملأ القاعة فعادت تغمضهما مسرعة وهى تحس بالخوف يتسلل إلى قلبها .. إن القاعة التى تنام فيها في قصر الضيافة ليست كهذه القاعة فى شىء .. وطرقت سمعها أصوات لغط حولها، وحاولت أن تنصت وهى مغمضة العينين فلم تتبين من الحديث الدائر حولها شيئاً، فعادت تفتح عينيها فى حذر ثم تجول بنظرها فى الحجرة، وجاءها صوت قاس يقول فى غلظة

- لقد أفاقت الثانية من أثر البنج فهيا بنا فقد أوشك النهار أن يطلع .. وتلفتت زينب حولها فى ذعر، كانت ترقد فوق الأرض وأمامها تقف أمها دليلة شاحبة الوجه ساهمة النظرات وقد قيدت يداها، وإلى جوارها يقف فارس طويل يبدو الإعياء واضحا فى نظراته ووقفته المتخاذلة .. وحاولت أن تحرك يديها وسرعان ما أدركت انها هى الأخرى مقيدة اليدين، واشتد ذعرها حين حاولت أن تحرك ساقيها المرتجفتين، وقال صوت ساخر هازئ خفق له قلبها

ها نحن نلتقى ثانية يا زينب

وحين التفتت رأت الوجه الباسم الذى توقعته، وكادت تبتسم بدورها وقد أحست بقلبها يضطرب فى صدرها، ولكن النظرة القاسية التى رأتها فى عين على قتلت البسمة قبل أن تصل إلى شفتيها .. وسمعت صوتا آخر يقول مخاطباً أمها

- انظرى إلى جيداً يا دليلة .. هل عرفت من أنا ؟

وانفرجت شفتا دليلة لأول مرة لتقول بصوت متخاذل دهشت له زينب

- نعم أعرف   أنت فاطمة امرأة حسن رأس الغول

ورأت زينب امرأة جميلة طويلة القامة تتقدم إلى أمها وفى عينيها نظرات حاقدة رهيبة وتقول

- وهذا ابنى الذى سقته أنت وابنتك إلى المشنقة

وتبعت زينب يد فاطمة الممتدة فرأتها تشير إلى على، فازداد خفق قلبها، وأدركت أنها وأمها قد وقعتا فى يد الزيبق الذى كانت أمها تطارده   ولم تدر أتسعد لهذا أم تحزن، فإن هذا يعنى أن علياً قد نجا مما كانت تدبره دليلة. ولكن معناه أيضاً أن علياً لن يرحمهما، وجاءها صوت فاطمة مرة أخرى وهى تشير إلى منضدة طويلة فى وسط القاعة

- وهذا أخى منصور يا دليلة   أخى الذى تسبب فى مصرعه فمات أبشع ميتة، غرق فى النطرون المغلى، وقطع رأسه، وشنقت جثته فى الميدان ليتفرج عليها كل أهل مصر

وارتجفت زينب وأحست بساقيها تخذلانها، ولكنها تحاملت على نفسها حتى لا تقع، بينما رأت الدماء تغيض من وجه أمها وهى تهمس فى ضعف

- لم أكن أعرف يا فاطمة

وعاد صوت فاطمة قاسياً رهيبا يقول

- فى بلادنا يا دليلة ننحر عند قبر الميت العزيز عجلا لنفرق

لحمه على المساكين، وفى مثل هذه الساعة من الليل لا توجد عجول ولهذا فلننحر الليلة على قبر منصور كلبتين ونوزع لحمهما على ذئاب الصحراء في الرميلة وقرة ميدان

والتفتت إلى سالم وهى تقول

- هيا بنا لندفن ميتنا قبل طلوع الفجر

وسار سالم يحمل مشعلاً، بينما تقدم على إلى الجثة المسجاة فوق المائدة، المستطيلة فحملها، وأشارت فاطمة بسيفها المشرع إلى دليلة وزينب فسارتا خلف على سيرا بطيئاً متعثراً على قدر ما تسمح به القيود المتينة التى ربطت بها قدماهما

وخـــرج هذا الموكب الرهيب من باب الدار الخلفى إلى البستان، وزينب لا تنظر يمنة أو يسرة ولا تكاد تسمع سوى وجيب قلبها إذن فهذه هى النهاية وهى التى كانت تظن الدنيا كلها ملك يديها جميلة هى، شابة وحلوة ومشتهاة ثم إن أمها دليلة التى يخيف اسمها أشجع الرجال وأقساهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة مريرة دليلة، ها هى تسير إلى جوارها حطام امرأة عجوز متهالكة لا تكاد تقوى على السير

وكانت زينب ترتجف حين وقف الموكب الرهيب أمام فتحة القبر فى البستان، كان البرد قاسيا، ولكنها كانت تحس ببرد أشد قسوة فى داخلها ووضع على الجثة فى الحفرة بينما أخذ سالم يتلو القرآن بصوت هادئ تشوبه رجفة خفيفة . ثم حمل

على المعول ومضى يهيل التراب على الجثمان. واهتز الليل بصوت بكاء مفجوع حزين والتفتت زينب، كانت فاطمة تبكي كما لم تر امرأة من قبلها تفعل وكانت تهمس وسط دموعها

- وداعا أيها الغريب، عشت غريباً ومت غريباً، ووقفت جثتك تطل على الناس بلا وجه يا من أضعت وجهك حبا ووفاء استرح هنا حيث ترقد غريباً كما عشت

وأحست زينب بالدموع تسيل من عينيها، وعلى يسوى التراب فوق القبر ثم يضع المعول ويقول

- لقد انتهى كل شيء يا أمي

وجففت فاطمة عينيها، ثم التفتت إلى دليلة وهي تقول في صوت امتزج الحزن فيه بالحقد

- حانت الساعة يا دليلة

ورفعت سيفها واتجهت نحو دليلة وشبحها يتراقص وسط عتمة الليل التي لا يقطعها سوى ذبالة الشعلة المتراقصة في يد سالم

ومادت الأرض بزينب، وسمعت وهي تهوى إلى الأرض أمها وهي تصيح في فزع ورعب بالغين

وقال علي في تهكم

- لقد فقدتا الوعي من الرعب

فقالت فاطمة ناقمة

- لتذوقا طعم ما أذاقتاك يوم ساقتاك إلى المشنقة

ثم ركلت دليلة بقدمها وهى تقول لسالم

- احمل كل واحدة إلى حجرة منفصلة وقيدهما إلى الحائط واحرسهم بكل يقظة

كان هذا الصباح صباحا مشؤوما على أكثر من واحد فعثمان قد تلقى من صفعات صلاح الكلبى وشتائمه ما جعله يتمنى أنه لم يولد وصلاح الكلبى تلقى غضبة العزيز العارمة فى يأس وقنوط وأخذ يلوح بساعديه فى الهواء وهو يقول

- لقد فشلت، وفشلت دليلة لا فائدة إنه انتصر

فعاد العزيز يصيح فى غضب

ألم يكن الأجدر بك أن تعترف بهذا من قبل أتنتظر كل هذه المدة لتقر بعجزك بعد أن أصبحت ضحكة مصر كلها جثة بلا رأس تشنق جثة بلا رأس ثم لا تستطيع أن تحرسها هل طارت الجثة هل انشقت الأرض وابتلعتها ؟

فأطرق صلاح الكلبى وقال فى مرارة

- لقد عاد إلى حيله، وخدر الرجال ببنج دسه فى خمر وسرق الجثة

وعاد صوت العزيز الغاضب يرن فى أذنيه قائلا فى قسوة

- إذن فهو أمهر منك ومن كل رجالك

وصمت العزيز لحظة ثم قال فى صوت رهيب :

- لم أعد أنا أستطيع الانتظار، سأعلن له الأمان، وأعينه مكان أبيه حسن رأس الغول ليكون شريكاً لك فى المقام ولو طلب أن أنحيك سأعزلك، أفاهم أنت ؟

وازداد إطراق صلاح الكلبى وهو يحس بجفاف حلقه، والعرق البارد ينداح من رقبته وقال

- فاهم يا مولاى

وعاد العزيز يصرخ.

- اذهب وأعلن له الأمان، ماذا تنتظر ؟ أن يسبوقنى أن نفسى فقال صلاح وقد لاحت له بارقة أمل

- ولكن يا مولاى إن دليلة لم تظهر هذا الصباح، وقد أرسلت إليها هى وابنتها زينب فلم أجدهما كما لم أجد الحرس المكلفين بحراستها، ألا يجوز أن تكون فى أثر الغريم

فبدا الاهتمام على وجه العزيز وهو يقول

- ماذا تعنى يا صلاح ؟

فازداد صلاح تحمساً واقتناعاً بفكرته وهو يقول

- أعنى يا مولاى. أن ننتظر حتى تظهر دليلة، فلا أظن إلا أنها فى أثره وستعود به كما وعدت مكشوف الرأس عارى القدمين إن دليلة لا تفشل أبداً

فأطرق العزيز وهو يقول

- أنت محق فى هذا يا صلاح لننتظر

ولكن ما لبث أن رفع رأسه وهو يصيح

- ولكن لن أنتظر أكثر من الغد فإن لم تعد فى الغد ناديت بالأمان له وأشركته معك فى المقام

فتنهد صلاح فى ارتياح وهو يقول

- نعم، فى الغد يا مولاى افعل ما تشاء

٢٩

لا يصح سوى الصحيح

حين دار المفتاح فى الباب ارتجفت زينب ورفعت رأسها ، لم تكن قد نامت منذ أفاقت من إغمائها قرب الصباح لتجد نفسها فى هذه الحجرة الصغيرة مقيدة اليدين والقدمين، مربوطة إلى وتد فى الحائط كأنها كلب مسعور وحين فتح الباب رفعت عينيها فى ذعر وعند الباب كان على يبتسم وهو يحمل بين يديه صفحة مليئة بأنواع الطعام ويقول بصوته الساخر

- هل أزعجت ضيفتنا الرقيقة المرهفة ؟

واستعادت زينب توازنها بسرعة وقالت له وهى تهز يديها المقيدتين فى وجهه

- وهل يطيب لك أن تسخر من النساء المقيدات العاجزات أيها الفتى الشهم الهمام

فابتسم على وهو يضع الطعام أمامها، ويفك قيود يديها وهو يقول

- ها نحن قد أطلقنا هذه المخالب فهيا أنشبيها فى عنقى

وجعلت زينب تدلك رسغيها لتعيد جريان الدم فيهما، وعضت على شفتها وهى تنظر إليه فى تحد، فعاد يقول وهو يقرب صفحة الطعام أمامها، ويكشف الغطاء عن الآنية

- لقد أوشك النهار أن ينقضى وأنت منذ عشاء الليلة الماضية لم تذوقى طعاما   لعل الطعام يعيد إليك شيئاً من البشر الذى استطعت أن تخدعينى به

وفجأة انفجرت زينب باكية وهى تضرب صدره بقبضتيها فى عنف وتصيح وسط بكائها

- ماذا تريد منى، انتقامك وحققته وذليلة وأذللتها وانهارت أمامك، وأنا وقيدتنى   ألا يكفيك كل هذا   ماذا تريد ماذا تريد

فجمع على قبضتيها فى يده وضم كتفيها إليه باليد الأخرى ونظر فى عينيها من عل وهو يقول فى بطء

- أريدك أنت

وشهقت زينب فى ذعر وهى ترتجف أمام النظرة الرهيبة المعنى التى تبدت فى عينيه، وقالت وهى ترتجف

- أنا

وزادت ضمته لها قوة وهو يقول ووجهه يقترب من وجهها وأنفاسه تلفح وجهها

- نعم أنت

وحاولت أن تبعده ولكنها كانت عاجزة عن الحركة، ووجهه يقترب وأنفاسه نار مشتعلة وفى عينيه لهيب ويده قاسية تكاد تمزق لحمها، ورفعت عينين ضارعتين إليه   واقتربت شفتاه من شفتيها وهو يقول

- ومن يمنعك منى الآن

وأدركت أنها لن تستطيع أن تقاوم   القيد فى قدميها ويده تمسك قبضتيها، وهو يضم كتفيها فى عنف، وعيناه حلوتان مستديرتان، فيهما رغبة طاغية مجنونة، وأنفاسه تقترب من وجهها وشفتيها كاللهيب وأغمضت عينيها فى استسلام وخدر   وانتظرت أن تحس بشفتيه تأكلان شفتيها، ولكن انتظارها طال، ففتحت عينيها لتراه ينظر إليها فى حنان وهو يهمس

- أنا الذى أمنع علياً، عنك   فأنا أحبك

ثم دفعها بعيداً عنه وأسرع خارجاً وهو يغلق الباب وراءه فى عنف   وابتسمت زينب، ومدت يديها تصلح شعرها فى حنان

ثم قربت صفَحة الطعام أمامها ومضت تغنى فى خفوت وهى تأكل فى شهية من فاتته وجبتان

قال على لسالم وهما فى حجرة على فى البستان

- ضع البنج لدليلة فى الطعام والشراب معاً فسآخذها الليلة

فقال سالم وهو يربت على كتف صديقه الفتى فى حنان

هذه مخاطرة لا لزوم لها يا على، فعندما يكتشفون حرس دليلة فى الحجرة بعد زوال أثر البنج عنهم سيعرفون أنها خطفت ولا يجد العزيز بدا من إعطائك الأمان

فقال على

- ليس هذا هو النصر الذى أريد يا سالم لقد قطعت دليلة على نفسها عهدا لن تستطيع الوفاء به وسأفى به أنا حتى يعرف الجميع من فينا الذى إذا قال فعل

فتنهد سالم وهو يقول

كم أود أن أصحبك يا على فليست هذه المخاطرة كغيرها من المخاطرات

فابتسم على وهو يربت على كتف صديقه وقال

- مازلت ضعيفا من أثر طعناتهم الغادرة يا سالم

ثم تنهد وهو يرقب وجه صديقه الساحب المتغضن وقال

- هؤلاء الزعر أقوياء وهم يمسكون السلاح ويتساندون لهم القوة والبطش ولهم السطوة والعزوة، كنا اثنين ومع هذا

هاجمونا بكامل عددهم كأننا جيش كامل

فابتسم سالم ابتسامة المجربين العارفين وهز رأسه وقال

– هذا حال الدنيا دائماً يا بنى، الحق فى جانب من ملك القوة، والقانون كلمته، والشرف ما يفعل حتى ولو كان أحط ما فى الكون من فعل ومع هذا

وازدادت ابتسامة سالم وهو يربت على وجنة صديقه مكملا حديثة قائلا

– ومع هذا فالذكاء قد قهر القوة يا بنى. وأنت الدليل على هذا. فأنت فرد تملك ذكاءك وحده ومع هذا استطعت أن تعلم الأقوياء معنى الخوف

فابتسم على فى مرارة وهو يقول

– ليس فى الأمر ذكاء يا سالم هم يسرقون فبرعت عنهم فى السرقة، هم يحتالون فهزمتهم فى أبواب الاحتيال إنه نفس السلاح أذقتهم طعمه فاعترفوا بسطوته

وتنهد على وقد شردت نظراته ثم قال وهو يرقب الشمس تغرب

– سأبدأ فى التنكر الآن حتى أتمكن من إتقانه. وأرجو أن تكون دليلة مبنجة حين يحين الميعاد

*

كَان حارس الباب فى قصر العزيز يدور للمرة العاشرة حول البوابة وهو يتثاءب حين لمح الجارية تقبل وفوق رأسها سلة

كبيرة ، فوقف يرقبها وهى تقترب ، وسرعان ما لاحظ أنها من جوارى العزيز للملابس الفاخرة التى ترتديها وعقد الجوهر الذى يهتز على صدرها وهى تسير مترجرجة متمايلة ، وصاح فيها صيحته التقليدية وهو يبتسم ويداعب شاربه بيده الطليقة من السلاح

- من هناك ؟

فابتسمت الجارية فى وجهه وهى تشوح بيدها فتكشف عن ساعد بض قد امتلأ بالأساور الذهبية وقالت فى دلال

ما هذا أيها الجندى   ألا تعرفنى   كل جنود الباب يعرفوننى   أنا جلنار جارية العزيز تأخرت فى الطريق حتى أجمع كل ما طلبته سيدتى ، وما عدت إلا الآن ، فافتح الباب وأنت صاحب الفضل

وكان الجندى يعرف من نزوات العزيز ما يعرفه كل الجنود ، فزادت ابتسامته اتساعا ، وقال فى غزل

وأنت جلنار يا جلنار   ما هذا معك يا جارية يا صاحبة العيون الحوراء

فضحكت الجارية فى دلال وقالت وهى تغمز له بعين كحلاء

- هذه بعض الأطعمة وخمر لسيدتى وفاكهة

ثم مدت يدها إلى السلة فأخرجت تفاحة قدمتها له وهى تبتسم ، فبادلها ابتساما بابتسام وضغط على يدها وهو يأخذ التفاحة فتأودت ، فقال فى لهجة ذات مغزى :

- أستسمرون الليلة ؟

فوضعت الجارية يدها على فمه فى حركة ألهبت الدم فى عروقه وقالت

- هس لا تقل هذا حتى لا تفضحنا

ثم همست فى أذنه وهى تفرك خده بيدها

- سأدعوك عندما تنتهى نوبتك لتكمل سهرتك مع من تظل ساهرة من الجوارى

ثم ابتسمت ابتسامة أنستة نفسه، وقالت وهى تنفلت من أمامه متجهة إلى الباب

كل التفاحة وافتح الباب أسرع

وأفاق الجندى إلى نفسه فمضى يفتح لها الباب وهو يقول

- ادخلى وأسرعى قبل أن يراك أحد فتسوء العاقبة

ثم نظر إليها وهى تختفى فى ظلام القصر مبتسماً، وشم التفاحة فى اشتهاء، ومضى يقضم منها فى شراهة

* * *

ما كاد على المتنكر فى ثوب الجارية يدخل من باب القصر حتى أسرع محاذراً يتستر بالجدران حتى دلف إلى القاعة الكبرى ووضع السلة إلى جوار بابها بينما اقترب منه حارس القاعة وهو يقول

- العزيز نائم وممنوع أن يدخل أحد إلى هنا فى مثل هذه الساعة .. فقال على فى صوت الجارية الناعم

- أعـرف أيها الجندى ولكن زميلتى قمـر زمـان أرسلت لك معى هذه السلة وتقـول إنهـا تنتظرك عند الفجـر بجـوار باب الحرملك ولم يفهم الحارس شيئا من كلام الجارية، فاقترب منها ليتفحص ما تحمل ويحاول أن يفهم معنى حديثها وما أن اقترب حتى وثب عليه بخفه، وضربه فوق رأسه بجمع يده، ثم تلقاه فوق ساعديه، وكتف يديه وقدميه فى سرعة، ثم كمم فمه، ووقف يرهف أذنيه ولما تأكد أن أحدا لم يسمع شيئاً مما حدث، تسلل فى هدوء قاصدا غرفة نوم العزيز وعند أول الصالة المؤدية لها توقف ووضع السلة فوق الأرض ثم تسلل فى هدوء وراء شبح الحارس الذى وقف عند الباب وعندما عاد إلى السلة إلى باب العزيز ويخرج منها دليلة الغائبة الوعى فيكشف رأسها ويعرى قدميها ويتركها مربوطة أمام الباب، ثم انحنى وثبت فوق ثوبها ورقة مطوية

ووقف لحظات يتأملها فى همس

- وعد قطعتيه على نفسك يا دليلة ووفيت أنا به

ثم انفلت عائدا وهو يقول

- لنسرع فالبنج فى التفاحة لا بد أن يكون قد أنام حارس الباب الآن

قالت فاطمة لزينب وهى تتأملها

- إذن فأنت من توله بك على

فرفعت زينب رأسها إليها وابتسمت ولم تتحدث، وتلاعبت على شفتي فاطمة ابتسامة هادئة وهى تقول

- أنت بالفعل زينة النظر وبهجة العين ولكن

وتنهدت فاطمة فقالت زينب فى حدة

- ولكننى ابنة دليلة أليس كذلك ؟

فقالت فاطمة فى حدة أشد من حدتها

- ألم تسوقيه إلى المشنقة، أنت إذن ابنتها

وأطرقت زينب وهى تقول فى صوت خافت

- لم أكن أعرف أن المسألة ستنقلب شراً هكذا، ومع هذا فأنا الملومة

وغزا الحنان صوت فاطمة وهى تربت على كتفها وتقول

- لا بأس عليك، إن له قلباً لم يعرف بعد الغل والحقد، وسينسى، فرفعت زينب رأسها إليها فى أمل وقالت فى لهفة

- حقا وأنت

وابتسمت فاطمة وهى تقول

- أنا أنا أحبه يا ابنتى وأحب سعادته، وكل من أحبه على فهو قريب إلى قلبى

وهبت زينب من جلستها وفى عينيها دموع وهتفت

- وهو هل

وطوقتها فاطمة فى حنان وقالت

- نعم يا زينب إننى أمه وأعرف. إنه يحبك ولكنه يكره

دليلة من كل قلبه

فقالت زينب وهى تطرق فى أسى

إنها أمى

واحتضنتها فاطمة فى حنان وهى تقول

- ليس لك فى هذا ذنب

ومضت زينب تبكى فى هدوء، بينما ربتت فاطمة على رأسها فى حنان وقالت

- فى الغد ستعودين إلى قصر العزيز حيث تلتقين بأمك، وسترحلان، كل ما أرجوه أن لا يظل فى قلبك حقد عليه

قالت زينب من بين دموعها

كل ما أرجوه أن ينسى هو

فزادت ضمة فاطمة لها وهى تقول

- أما إساءتك فسينساها أما أنت فأنا أعرف أنك قدره إنه لن ينساك يا زينب

كان الحاجب يصرخ كالمجنون وهو يدق باب العزيز فى ذعر، فهب العزيز مجفلا من نومه وأسرع يفتح الباب وهو يصيح

- ما هذا أيها المأفون هل جننت لتوقظنى بهذه الطريقة ؟

فصاح الحاجب وهو يشير إلى جسد متكور تحت قدمى العزيز

- انظر يا مولاى هذا الذى تحت قدميك وأمام غرفتك ..

وقال العزيز وهو يتمالك نفسه ويجمع ثيابه حول جسده

- هذه دليلة   مكشوفة الرأس حافية المقدمين   ما هذا على صدرها

فقال الحاجب وهو يرفع الورقة من فوق ثيابها

- إنها ورقة يا مولاى

فصاح العزيز محتقناً، وقد أخذ الحراس والحجاب يتوافدون على صياحه

- أعرف أيها الغبى أنها ورقة   افتحها واقرأ ما فيها

وبيد مرتجفة فض الحاجب الورقة ومضى يقرأ فى صوت مضطرب

- يا رايح قل للجاى، مافى حيلة بهذا الزيبق. ماحلفت دليلة لتحقيقه بكل عزيز، حققه على الزيبق خادم مولانا العزيز   صاح العزيز فى دهشة وذهول

- على الزيبق فعل هذا بدليلة؟

وسرى الاسم كالسحر بين الحرس والحجاب الذين هزتهم صيحة ثانية حين اكتشف أحدهم حارس الحجرة مكمماً مقيدا، وازدادت حيرتهم حين اكتشف آخر حارس القاعة مكمماً كزميله. وصاح العزيز وهو يهرول ووراءه الحجاب والحراس إلى قاعة العرش:

-أسرعوا أحضروا صلاح الكلبى فى الحال، وأحضروا وزير التشريفة.. أما هذه المأفونة فانقلوها إلى حجرتها واعملوا على

إفاقتها وليسرح المنادى فى كل الأسواق ليعلن أننى أعطيت الأمان لعلى الزيبق ابن حسن رأس الغول وعينته مقدماً للدرك مكان أبيه وشريكا لصلاح الكلبى. فليظهر وعليه الأمان من غضبى، فهذا عفوى عنه أسرعوا أسرعوا

قال سالم وهو ينحنى فيرفع عن قدمى زينب القيود

- تستطيعين الآن أن تعودى إلى القصر فلم يعد هناك ضرر من معرفتك بأمر هذا البيت

فقالت زينب فى دهشة وهى لاتحس فى نفسها فرحاً للأفراج عنها

كيف

فابتسم سالم وهو يقول

- عندما تخرجين إلى الشارع ستعرفين، لقد عفا العزيز عن على وعينه مقدما للدرك مكان أبيه وشريكا لصلاح الكلبى.

وقالت زينب فى شرود

- مبارك له

- مبارك له

ثم همست وهى تسوى ثيابها

- ألم يترك لى رسالة

فقال سالم وهو يطرق

- لا .. فقط قال لى أطلق سراحها لتعود إلى أمها ..

كـان الموكب حـافـلا تتـقـدمـه الطبـول والأبواق ثـم وزير التشـريفـات ووراءه حـارسـان، ثـم ثلاثة خيـول مطهـمـة وضـعت فوقـهـا الصناديق التى سرقـهـا على الزيبق مـن الخزانة، ووراءها ركب الزيبـق حصـانه وقـد ارتدى ثيـاب فـارس وتدلى من جـانبـه سيف أبيه قطاع الجادل. ووراءه ركبت (فاطمة) فـرسـهـا وهى تتزيا بزى أحـمـد بن البنى وإلى جوارها سـالـم بطلعتـه المهيـبة وقامته الشامخة، ووراءهم سار الزعر يحملون الحراب

وقال الحمامى وهو يشهق

- هذا على الزيبـق، إنه هـو الذى حـبـسنى واسـتـولى على حمامى بينمـا فغر شـمـيعـة اليـهـودى فاه وهو واقف أمام دكـانه وقال

- ياوقعتك يا شميعة إنه الزيبق

وصاح الأسطى حسنين المحشى وهو يضرب كفاً بكف

- ولقد اشتغل عندى صـبـيـاً وكنـت أتشـرط عليـه وأشخط وانطر بينما هتف عم عباس وهو يلوح بمبخرته

- مـدد ياست مـدد. اذكـرنا يا على ونـظر إليـه على فلمحه وسط الجموع المتكاثرة وابتسم، فصـاح عم عبـاس وهو يطلق البخور من مبخرته

- الولد وصل مدد يا أم العواجز مدد

ثـم همس لنفسـه وهو يختفى بين الجمـوع التى احتشـدت ترقب الموكب

كلهم ينسون يا عباس عندما يركبون الحصان. مدد ياست، نظرة يا أم العواجز

وابتلعه الزحام

قالت فاطمة وهم يدخلون القاعة الرحبة فى المنزل

- عشت ورأيت يا على لقد أعادنى هذا اليوم صبية فهذا العزيز يستقبلك كما استقبل أباك ويضع بيده العباءة على كتفيك أبعد هذا فرحة لى.

فقال سالم وهو يبتسم ابتسامته العريضة.

- لقد كاد صلاح الكلبى أن ينشق من الغيظ ولولا هيبة العزيز لهجم عليك ياعلى يفترسك

فقال على وهو يخلع عباءته

- إن صلاحا قبل أمر العزيز على مضض وأنا على حذر من قلبه الأسود، ولكننى منذ اليوم سأمنع ظلمه وأكف شره وأنشر العدل بين الناس وأعيد للمظلومين حقوقهم التى سلبها ببطشه وغدره وقسوته

ونظرت فاطمة إلى ابنها فى فخار وقالت

- إن حسن رأس الغول لم يمت فأنت حقا ابنه.

وقال سالم

- أما دليلة فهى ستسافر الآن إلى بغداد ولن تعود ولقد قال لها العزيز إن أرض مصر حرام عليك إلا إذا أذن الزيبق.

فابتسم الزيبق فى مرارة وهو يقول

- والزيبق لن يأذن أبداً

ثم قبل وجنة أمه وصافح سالماً وقال

- سأذهب إلى حجرتى لأستريح ، فيبدو لى أننى لم أعرف النوم منذ أجيال

لم يكد على يدخل حجرته حتى طرق الباب طرقاً خفيفاً فصاح فى ضيق

- من هناك

وفتح الباب وأطل وجه سالم الذى قال

- هناك من يريد أن يراك .

ثم فتح الباب إلى نهايته لتبدو فيه زينب وهى تتقدم مطرقة الرأس خافضة البصر ، وأقفل سالم الباب وراءه وهو يقول

- سأحضر لضيفتنا ماتشربه حلاوة انتصارك

وساد الصمت فى الغرفة لحظات ، ثم تقدمت زينب فى بطء وهى تهمس

- إننى مسافرة يا على

فقال على

- أعرف ، فأمك تترك مصر اليوم .

فعادت تقول

- سأسافر معها

ونظر على إليها ثم تقدم منها ورفع رأسها إليه لتطالعه

عيناها الحزينتان ، وهمس

- زينب

ونظرت إليه ثم اندفعت إلى صدره فاحتواها وسمعها تهمس بين شفتيه

وغابا فى قبلة طويلة لم يقطعها سوى طرق على الباب الذى فتح ليدخل منه سالم يقول

- لقد أرسلت دليلة رسولاً يقول لزينب أن تعود فى الحال..

ثم سعل فى اضطراب وهو يقول

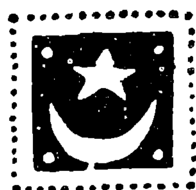
- ماذا أقول له

فنظر على إلى زينب ، ونظرت زينب إلى على ، ثم نظرا سويا إلى سالم الذى أطرق ، وقال وهو يغلق الباب وراءه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة

- نقول له تسافر هى إذا شاءت طبعا

وضحكت فاطمة التى كانت تقف إلى جوار الباب فنظر إليها سالم ثم انفجر ضاحكا فى سعادة

وفى داخل الحجرة كان على وزينب يعيشان فى قبلة طويلة حالمة



المؤلف

*** فاروق خورشيد**

- ولد في مارس ١٩٢٨ القاهرة.
- حصل على ليسانس آداب - قسم لغة عربية - كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٥٠
- يعمل حاليا رئيس اتحاد كتاب مصر ومقرر لجنة الفنون الشعبية بالمجلس الأعلى للثقافة - أستاذ الأدب الشعبي بالمعهد العالي للفنون الشعبية - أكاديمية الفنون عضو المجلس الأعلى للثقافة.

*** الكتب**

*** (القصة)**

- مجموعة الكل باطل ١٩٦٠ - الكتاب الماسي

٢- مجموعة القرصان والتنين ١٩٧١ هيئة الكتاب

٣- مجموعة المثلث الدامي ١٩٧٩ - دار المعارف.

٤- مجموعة حبال السأم ١٩٨٧ هيئة الكتاب

٥- مجموعة كل الأنهار ١٩٩٦ - هيئة الكتاب.

٦ زهرة السلوان

*** الرواية**

٧- سيف بن ذي يزن ١٩٦٧ الكتاب العربي

٨- مغامرات سيف بن ذي يزن - دار الهلال ١٩٦٤

٩- علي الزيبق ١٩٦٧ دار الهلال

- خمسة وسادسهم ١٩٨٠ - هيئة الكتاب

١١- حفنة من رجال ١٩٨٠ - دار اقرأ - بيروت.

١٢- وعلى الأرض السلام - هيئة الكتاب - مختارات فصول ١٩٨٦

١٣- الزهراء في مكة - دار الهلال ١٩٨٧

١٤- الزمن الميت - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨

١٥- ملاعيب على الزيبق - دار الهلال ١٩٨٩
١٦- روايتان (إنها تجرى إلى البحر - البحر ليس بملآن) ١٩٩٦

*** الدراسات**

١٧- «محمد» في الأدب المعاصر ١٩٥٩ - المكتب الفنى.
١٨- فى الرواية العربية ١٩٦٠ - الجمعية الأدبية المصرية
١٩- بين الأدب والصحافة ١٩٦١ - دار الثقافة المصرية.
٢٠- فى كتابة السيرة الشعبية ١٩٦٤ - دار الثقافة العربية.
٢١- أضواء على السيرة الشعبية ط١ - هيئة الكتاب.
٢٢- السيرة الشعبية ١٩٧٩ - دار المعارف.
٢٣- هموم كتاب العصر ١٩٨١ دار الشروق - بيروت.
٢٤- مع المازنى - دار الهلال ١٩٨٦
٢٥- عالم الأدب الشعبى العجيب - دار الهلال ١٩٨٨
٢٦- السيرة الشعبية العربية - هيئة الكتاب ١٩٨٩
٢٧- الجذور الشعبية للمسرح العربى - هيئة الكتاب ١٩٩١ - ط٢ باسم «الموروث الشعبى» - دار الشروق.
٢٨- فى الأصول الأولى للرواية العربية - هيئة الكتاب ١٩٩٢
٢٩- أدب السيرة الشعبية دار لونجمان ١٩٩٤
٣٠- الجذوب - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٥
٣١- معادن الجوهر دار الشروق.

*** المسرح**

٣٢- أيوب ١٩٦٥ - الهيئة العامة للكتاب
٣٣- ثلاث مسرحيات ١٩٦٤ - الجمعية الأدبية المصرية.
* المسألة - مثلت فى تونس ١٩٨٧
* حبظلم بظاظا - مثلت فى القاهرة والإسكندرية والخرطوم و المغرب.
* ثالثا وأخيرا - مثلت فى سوريا ١٩٨٦
٣٤- حديقة المردار - ابن خلدون ١٩٩٣
٣٥- مسرحيتان (رع يغضب - القنبلة) ١٩٩٦

*** من أدب الكلمة**

٣٦- كلمات فى الحب والأسى - ١٩٨٣ دار اقرأ - بيروت

٣٧- حديث النفس - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٩

*** من أدب الرحلات**

٣٨- فى بلاد السندباد - دار الهلال ١٩٨٧

*** أدب الطفل**

مغامرات فى أفريقيا   مولد بطل - عبلة والصبى المقاتل   السيف والكلمات - ثورة العبيد - الفارس والجواد   ذات الهمة   الأميرة المنتصرة - الزير سالم - مغامرات المهرج قشمر   الأميرة ذات الشعور والمارد   الجنى والكلب المسعور على باب والأربعين حرامى   كنوز الجبل   معروف الإسكافى   الجنى الطائر الجوهرة والملك الطماع   الخاتم المسحور وملك الجان   العراب الأسود والحلم.

*** جوائز رسمية**

جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ١٩٨٩

وسام الآداب والفنون ١٩٨٩

وسام الجمهورية ١٩٦٤

جائزة الدولة التشجيعية عن القصة الروائية ١٩٦٤

جائزة جامعة المنيا لأحسن روائي ١٩٨٤

درع جامعة صنعاء ١٩٨٥

شهادة تقدير الجامعة العربية للفنون والإعلام والثقافة ١٩٨٦

درع فرقة الأصدقاء المسرحية - الخرطوم ١٩٨٧

درع جامعة الزقازيق ١٩٩٦

درع الاتحاد العام للصحفيين العرب ١٩٩٦

الشهادة الذهبية لأحسن كاتب مهرجان القاهرة الثالث للإذاعة والتليفزيون ١٩٩٧

قائمة إصدارات

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١	قصصنا الشعبى	د فؤاد حسنين على
٢	- يا ليل يا عين	يحيى حقى
٣	- سيد درويش	محمد دواره
٤	- المجذوب.	فاروق خورشيد
٥	- فن الحزن	كرم الأبنودى
٦	- المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى..	د. نبيلة إبراهيم
٧	إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١	د. محمد حافظ دياب
٨	- إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢	د محمد حافظ دياب
٩	- أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى	إبراهيم حلمى
١٠	- موال أدهم الشرقاوى	د يسرى العزب
١١	- الرقص الشعبى فى مصر	سعد الخادم
١٢	المغازى	د. صلاح فضل
١٣	- بين التاريخ والفولكلور	د. قاسم عبده قاسم
١٤	مملكة الأقطاب والدراويش	عرفه عبده على
١٥	فلسفة المثل الشعبى	محمد ابراهيم أبو سنة
١٦	الظاهر بيبرس	.د. عبد الحميد يونس
١٧	- الحكاية الشعبية	د عبد الحميد يونس
١٨	- خيال الظل	د عبد الحميد يونس
١٩	- الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة	سعد الخادم

٢٠ - الفن الإلهى	محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ - النيل فى الأدب الشعبى	د نعمات أحمد فؤاد
٢٢ - الفولكلور فى العهد القديم جـ١	تأليف جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة ابراهيم
٢٣ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٢	تأليف جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة ابراهيم
٢٤ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٣	تأليف جيمس فريزر ترجمة د. نبيلة ابراهيم
٢٥ حكاية اليهود	تأليف زكريا الحجاوى
٢٦ عجائب الهند	تقديم يوسف الشارونى
٢٧ - حكاية اليهود ط ٢	زكريا الحجاوى
٢٨ - الحلى	د عبد الرحمن زكى
٢٩ أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
٣٠ - السيد البدوى ودولة الدراويش	محمد فهمى عبد اللطيف
٣١ - التاريخ والسير	د حسين فوزى النجار
٣٢ - خيال الظل	د. ابراهيم حمادة
٣٣ - فرق الرقص الشعبى فى مصر	عبير السيد
٣٤ - مباحث فى الفولكلور	محمد لطفى جمعة
٣٥ - نجيب الريحانى	عثمان العنتبلى
٣٦ - عالم الحكايات الشعبية	فوزى العنتيل
٣٧ الزخارف الشعبية على مقابر الهو	محمود السطوحى
٣٨ - الفولكلور ما هو	فوزى العنتيل
٣٩ - سيرة الملك سيف بن ذى يرن	المجلد الأول
٤٠ سيرة الملك سيف بن ذى يزن	المجلد الثانى
٤١ سيرة الملك سيف بن ذى يزن	المجلد الثالث
٤٢ - سيرة الملك سيف بن ذى يرن	المجلد الرابع
٤٣ سيم العشق والعشاق	أحمد حسين الطماوى

٤٤- كتابات فى الفن الشعبى. حسن سليمان
٤٥- المأثورات الشفاهية تأليف يان فانسينا
ترجمة د. أحمد مرسى
٤٦- بين الفولكلور والثقافة الشعبية فوزى العنتيل
٤٧- الشعر البدوى فى مصر- ج١ صلاح الراوى
٤٨- الشعر البدوى فى مصر- ج٢ صلاح الراوى
٤٩- الطفل فى التراث الشعبى د. لطفى حسين سليم
٥٠- تغريبة الخفاجى عامر العراقى. باسم حمودى
٥١- الفولكلور قضاياه وتاريخه. تأليف يورى سوكولوف
ترجمة حلمى شعراوى - عبد الحميد حواس
٥٢- الأسطورة والإسرائيليات د. لطفى سليم
٥٣- البطل فى الوجدان الشعبى محمد جبريل
٥٤- الاحتفالات الدينية فى الواحات د. شوقى حبيب
٥٥- الاحتفالات الأسرية فى الواحات د. شوقى حبيب
٥٦- من أغانى الحياة فى الجبل الأخضر د. هانى السيسى
٥٧- النبوءة أو قدر البطل
فى السيرة الشعبية العربية د أحمد شمس الدين الحجاجي
٥٨- من أساطير الخلق والزمن صفوت كمال
٥٩- بطولة عنترة بين سيرته وشعره.. د. محمد أبو الفتوح العفيفى
٦٠- جحا العربى وانتشاره فى العالم. كاظم سعد الدين
٦١- الزير سالم فى التاريخ والأدب العربى. د. لطفى حسين سليم

كتب تصدر قريباً

* الشعر الشعبى العربى — د. حسين نصار
* الأسطورة فجر الإبداع الإنسانى. — د. كارم محمود عزيز

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)





على الزيبق

يُعد هذا الكتاب إحدى ثمار اهتمام الكاتب الكبير فاروق خورشيد بالسير الشعبية، حيث يقوم بإعادة صياغة بعض السير بأسلوب عصرى مستفيدا من إمكانيات فن الرواية، حيث تتحول السيرة الحافلة بالكثير من الخرافات والغيبيات والشعوذات والثرثرات التى كانت تفرضها طبيعة العمل الشفاهى، إلى رواية ذات بناء فنى محكم، لها منطقها الفنى الخاص، ولها مصداقيتها، بحيث تبقى روحها الشعبية كالعطر الذى يميز أهله، وتبقى لها مشهياتها الفنية الإثارية، دون مبالغة أو خروج على المألوف.

ولهذا فإننا نبادر بنشر هذا الاستلهام الحديث للسيرة الشعبية الشهيرة (على الزيبق) لنثبت إلى أى حد يمكن أن يستفيد كتابنا من تراثنا الشعبى فى استلهام أعمال حديثة تعمق فينا جوهر ومقومات الشخصية المصرية العربية.

الأمل للطباعة و النشر

الثمن : جنيهان